قراءات مسمومة

مقالات

علاء لطفي

اكتب

قراءات مسمومة

علاء لطفي

قراءات مسمومة / مقالات

علاء لطفي

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة , ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

عزة أبو الأنوار

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٢١٠

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٢١- ٣

قراءات مسمومة

مقالات

علاء لطفي

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



الإهداء

إلى ذكرى

الكاتب الصحافي

أنـــور زعـــلوك



التي أهواها !!!

كثيراً ما راودتني رغبة حالمة في الدخول إلى ذلـك العـالم الساحر الذي تُدار فيه المعارك بريشة القلـم، ويمتطـي فيـه الفرسان سطور الكلمات المشوقة دفاعاً عن رمـوز الـوطن وقضاياه.. وما من شك في أن الإمـساك بـالقلم شـرف لا يضاهيه شرف، ومداده الحقيقي هو إحساس جارف بالمسئولية الوطنية وبقيمة الكلمة كنبراس يهتدي به الباحثون عن الحقيقة، وذلك ما يجعل من مهنة الكتابـة الـصحافية إحـدى أدوات المشروع السياسي للمجتمع وليست فقط بوقاً تُلقى من خلاله الكلمات بوعي أو بغير وعي.. منذ نحو خمسة عـشر عامـاً والحلم يتملكني، رغم أن المعادلـة ليـست دائمـاً أحلامـاً وطموحات ،ففي البداية هناك ذلك الـشعور الخفـي بقيمـة الكلمات ثم آداب الدخول إلى بلاط صاحبة الجلالة.. وهنـاك ذلك القارئ الذي عركته الحياة ويدرك جيداً كيف يُفرق بين الغث والثمين بفطرته النقية وذكائه الخـارق، بـل وخبرتـه الصحافية التاريخية الناطقة بجداريات المعابد .. ثم هناك مسئولية ضبط العدسة وبلورة الأفكار بخبرة وصلابة مقاتـل وأخـلاق فارس وفطنة مؤمن ،وهي الوصفة الـسحرية لأحـلام جيـل بأكمله ذاق المعاناة وسط الدسـائس والمـؤامرات في بـلاط صاحبة الجلالة.. نعم لم تكن الرحلة وردية منذ بدايتها الأولى، ودفعت بنا ريـاح عاصـفة بعيـداً عـن الأقـلام والأوراق

واستنفذت طاقتنا قضايا تحديد المصير الذاتية، ومــع ذلــك لم تشغلنا أو تقذف بنا بعيداً عن قضايا الوطن وهمومــه ،وكــان هدفنا الأول والأسمى أن نصيغ أحلام جيلنا، وأن نكون صوته المسموع مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات, ورغــم كل الخطوط الحمراء والفخاخ المصطنعة, فنحن جيل ما بعــد النكسة الذي استنشق كل أكاذيب رواد علــم النكــسة، ولم ينتشلنا سوى نسمات النصر والحريــة واســترداد الكرامــة بانتصارات أكتوبر، واكتسبنا مناعة الانهيار الداخلي من كثــرة السقطات ومساندة الشرفاء .. لكن فجأة وتدريجياً بدأت ريشة هذا القلم الذي تخيلته في البداية "سيف فــارس" يتحــور إلى "خرطوم إطفاء حريق" في مواقف عديدة كانــت تــستدعي التدخل بكلمات مهدئة ، وتجد نفسك في المرآة برداء جنــرال مطافئ، ثم ما أن تدير ظهرك وتعاود النظر مجدداً لتجد أمامك "فني لحام" يرتدى القناع الواقي ويحمل في نفس موضع القلــم "باشبورى" تندلع منه النيران، وتسمع نداء من بعيد يردد على مسامعك " طفي هنا يا ابني وولع هناك خليها تسخن شــوية" وفي تلك اللحظة يصدمك التساؤل: من ينبغي أن تكون مــن بين هؤلاء؟! فارس ؟! أم إطفائي؟! أم عبده حريقة؟! .. عفواً.. أترك لك صديقي القارئ تحديد إجابة هذا السؤال مــن بــين سطور هذا الكتاب لعلنا نعرف سوياً حقيقة أنفسنا وحقيقة من حولنا.

الفصل الأول ..

فكر التغلغل والاختراق.. !!

قراءة في كف أمريكا

أكثر ما يثير الإعجاب بالسياسة الأمريكية أنها واضحة التوجهات، تشبه في أحيان كثيرة الكتاب المفتوح ولا يصعب فهمها أو اتهامها بالالتواء والغموض ،فهي عندما تكون ذات أغراض إنسانية وحضارية تفصح عن نفسها بكل وضوح، وعندما تكون على النقيض ذات ملامح استعمارية كئيبة وأهداف دنيئة فيمكنك أن تميز ذلك بمنتهى البساطة، إذاً أين تكمن المشكلة في فهم السياسة الأمريكية والتعامل معها في كل حالة بنفس المستوى والندية؟ المشكلة أننا أفراداً وجماعات وحكاماً ومحكومين لا نقرأ! وإذا قرأنا لا نفهم! وإذا حدث - لا قدر الله- وفهمنا فإننا نفتح أفواهنا من فرط الدهشة !. والأمريكيون بدورهم لا يبذلون أي جهد لتضليلنا عن أهدافهم لكنهم بارعون في تسويق فكر التغلغل في سياق خطابهم السياسي والإعلامي الذي نستقبله دائماً بلا وعي، وأحياناً بالتصفيق والتهليل حسب ثقافة القطيع الذي يمارس في أحيان كثيرة أدوار العمالة بلا ثمن أو غواية، وفى أحيان أخرى يؤدي المكلف به حرفياً.

فمثلاً في قراءة سريعة لترجمة الجزء الخاص بمصر من تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن دعم حقوق الإنسان والديمقراطية

٢٠٠٤-٢٠٠٥ نقرأ التـــالي (أبـــدى الـــسفير والمـــسئولون الأمريكيون الآخرون قلقاً محدداً بشأن طلب الحكومة الإعـــلان عن الديانة في بطاقات الهوية، وهو عمل يؤثر تأثيراً سلبياً على المواطنين الذين يريدون التحول عن الإسلام، إضافة إلى أتبـــاع الديانات الأخرى غير المعترف بها ،أو التي قامت الحكومة بحظر مؤسساتهم) فهي تتحدث عن الحرية الدينية في اتجـــاه واحـــد فقط، من الإسلام إلى أية ديانة أخرى سماوية أو غـــير سماويـــة ولكنها بالطبع ترفض التحول في الاتجاه المضاد من الـــديانات الأخرى إلى الإسلام؛ وعن الإصلاح السياسي قـــال التقريـــر: (أثارت الولايات المتحدة بصورة مستمرة قضية دعم الإصلاح السياسي والاقتصادي في مصر مع الحكومة المصرية ومصادرها غير الحكومية، وقابل السفير ومسئولون أمريكيـــون آخـــرون شخصيات متعددة من المعارضة، بما فيهم أيمن نور قبل إلقـــاء القبض عليه) وإذا امتد بك الوقـــت لقـــراءة بـــاقي التقريـــر ستكتشف اختزال الأحزاب المصرية في حزب واحد وشخص واحد ،الأمر الذي يثير علامات استفهام.

مشهد آخر تأخذنا إليه محطة فضائية عربية لإحدى جلسات الاستماع في الكونجرس الأمريكي وفتحت فيه ملفات الإصلاح في مصر والسعودية وعدد آخر من البلدان العربيـــة، ثم بـــدأ المعلقون في إبداء ملاحظاتهم وعدم رضاهم لانتقاص الإجراءات

الإصلاحية الأخيرة في مصر عن مواصفات الديمقراطية الأمريكية، وبالطبع فإن أبرز تلك الانتقادات هي قانون الطوارئ.. وإذا نظر المتحدث خلفه لحظة، لرأى قانون طوارئ بألوانه المتعددة البرتقالي والأصفر والأزرق يغطي الولايات الأمريكية بأكملها، وجرت في ظله انتخابات رئاسية أمريكية، ولو قرأ التقارير المتلاحقة عن انتهاك الحريات المدنية ومراقبة الحياة الخاصة للمواطنين ناهيك عن معتقلات جوانتامو تلك البقعة السوداء في تاريخ الحضارة الأمريكية أو طائرات التعذيب السرية، إذاً لا تعايرني ولا أعايرك كلنا في الطوارئ سواء.

المشهد الأخير أعلنت عنه إليزابيث تشيني، نائبة مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأدنى، أن إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش طلبت ٣٠ مليون دولار إضافية في إطار برنامج إصلاح التعليم في منطقة الشرق الأوسط لعام ٢٠٠٦، ليصل بذلك المبلغ الإجمالي للبرنامج إلى ٢٧٠ مليون دولار؛ و يهدف البرنامج إلى القضاء على انجذاب الشباب نحو التطرف وإلى وقف سيطرة الحكومات في العالم العربي على قطاع التعليم وإرساء نظام تعليمي يتميز بتحكم محلي أكبر، وبتعاون رجال الأعمال المحليين والآباء في بلورة التعليم الذي يقدم لأبنائهم.. خطاب فضفاض يتسع لكل الاجتهادات، لكنه يؤدي إلى نتيجة وحيدة ،هي إلغاء المجانية وانسحاب الدولة من دورها الاجتماعي في إطار أعم لنشر الأمية .

علاقات حرجة

كثيراً ما تسقط القوى الدولية الكبرى في أوهام الخلط بين أحلامها غير المشروعة وتطلعات الشعوب نحو الحرية، ويصور لها مريديها أن طريقها سيكون مفروشاً بالورود وسوف تُستقبَل استقبال الفاتحين — وليس الغزاة والمستعمرين — إذا ما أقدمت على التدخل في الشئون الداخلية للدول ،سواء كان هذا التدخل سياسياً أو عسكرياً أو حتى اقتصادياً .

وفي زحمة التقارير والنداءات والصرخات التي يحاصرها بها المريدين والأتباع تعجز عن الوصول إلى حقيقة الإرادة السياسية للشعوب، والتي هي بمثابة حجر الزاوية لأي تغيير ترغب في إحداثه ،و بالتالي تَلْقَى أية دعوات تطلقها رفضاً تاماً وفشلاً ذريعاً، لأنها عجزت عن عزف النغمة السياسية الصحيحة.

وتكتمل الدائرة الخبيثة بغرور القوة الذي يصيبها في مقتل كما يجرى الآن في العراق، بتحول الحديث هناك إلى فاصل زمني يصل إلى ١٠ سنوات لكي يتحقق الاستقرار بعد أن كانت أقصى التقديرات طموحاً تتحدث عن عامين بعد القبض على صدام، والحقيقة الأكثر مرارة ولا يدركها سوى الأمريكيين أنفسهم أن العراق بدأ يتحول منذ فترة إلى أفغانستان جديدة ،كالتي أسقطت الاتحاد السوفيتي وأدت إلى انهياره ،فالساحة العراقية باتت تجتذب كل من له ثأر سياسي

أو تاريخي تجاه أمريكا ،ولم يعد الأمر يقتصر على المقاومة البعثية أو تنظيم القاعدة ،إذ أن أطرافاً أخرى كثيرة مرشحة للانضمام لهذا الكونسورتيوم الدولي، وأبلغ دليل هو نوعيات الأسلحة التي في يد هؤلاء المقاتلين، المؤشرات إذاً تقول أن من مصلحة قوى عديدة بقاء الولايات المتحدة أكثر وقت ممكن في المستنقع العراقي لاستنزاف أكبر قوى عرفها تاريخ البشرية حتى الآن، وهي حيلة معروفة جيداً لمن يقرأ التاريخ ويستوعب دروسه..

ولكن يبدو أن في صفوف الإدارة الأمريكية ذاتها لوبي لا يستهان به مطلقاً يعمل على تنفيذ هذا المخطط، فهو يغرق الإدارة الأمريكية يومياً في تقارير تآمرية لا تتحدث إلا عن كسب مزيد من الأعداء يومياً، والتضحية بالصداقات الإستراتيجية القائمة لأتفه الأسباب والمبررات.

والمؤلم حقاً أن تكون العلاقات الإستراتيجية الأمريكية المصرية مرشحة دوماً للاختبار بمعرفة هذا اللوبي، إذ نراها تنزلق بين حين وآخر في متاهات هؤلاء الأتباع والمريدين، وآخرها التشكيك في نوايا القيادة السياسية بإحداث تغير نوعي حقيقي في العملية السياسية الإصلاحية، بالقدر الذي تسمح به ظروف المجتمع وبالضمانات الصارمة التي تكفل عدم وصول أحفاد هتلر أو موسيليني لسدة الحكم ،وهي ضمانات لا ترتقي في تعجيزها إلى مثيلاتها في الدستور والقوانين الانتخابية الأمريكية والتي تزداد صرامة عند تطبيقها في اختيار مرشحي

الرئاسة من بين صفوف الحزبين الكبيرين الرئيسيين الجمهوري والديمقراطي.

وأزعم أن الفضل يُنسب إلى هيئة الاستعلامات الأمريكية في إدراكي مدى صرامة تلك القوانين ،بدءاً من الترشيح ومروراً بالدعم المالي للمرشحين، وحدود مساهمة أية جهة أو فرد، وضرورة تقديم كشف حساب تفصيلي بكل سنت يتلقاه المرشحون دعماً لحملتهم الانتخابية. وتجريم أي دعم مالي خارجي من الدول أو الهيئات الدولية ،حتى يكون الناخب الأمريكي وحده هو صاحب القرار في اختيار من يمثله، فلماذا تحولت السياسة الأمريكية اليوم إلى إنكار تلك الحقوق للمواطن المصري ؟! ولماذا يتكرر الحديث يومياً عن مراقبين دوليين للعملية السياسية داخل أعرق نظام سياسي في تاريخ المنطقة؟! فمصر دولة مستقرة في التاريخ منذ آلاف السنين، وشعبها يمتلك من الخبرات السياسية والعسكرية والقدرة على إفراز قياداته التاريخية والسياسية دون وصاية أو نصيحة من صديق.. ألا يستحق ذلك أيضاً أن نراجع أنفسنا؟!.

عنبر العقلاء

تلعب التقارير الصحافية المفبركة والمجهولة المصدر والمنسوبة إلى دبلوماسيين عرب أو مصدر مسئول أو مصادر خاصة دور بالونات اختبار لاستطلاع النوايا والتوجهات، أو محاولات استدراج لمناطق الغرق وبؤر الموت كما هو حادث مع صحيفة نيويورك تايمز والواشنطن بوست في مقال شهير لـ "نواف العبيد" .. والقصة كما يدركها "عنبر العقلاء" أن تقرير"بيكر هاملتون" ـ والذي لم يخرج عن كونه رؤى سياسية لتصحيح مسار السياسة الخارجية الأمريكية ـ دفع بالإدارة الأمريكية إلى البحث عن طوق نجاة من أزمتها الطاحنة ،فلم تجد في دفاترها البالية سوى طرح أجندة مشبوهة قديمة حاولت ترويجها مرات عديدة كلما اشتد السعير العراقي، وتقضي بإرسال قوات عربية إسلامية لتكون غطاء لاحتلال أنجلو أمريكي، لكنها مع ظهور التقرير الأخير تحورت مهامها لتصبح غطاء انسحاب شكلي مع بقاء السيطرة الأمريكية، وتكون مهمتها الحفاظ على أيتامها في الحكومة العراقية العميلة. لذا لم تكن مفاجأة ما نشرته صحيفة "نيويورك تايمز" ونسبته إلى دبلوماسيين عرب، ومفاده "أن السعودية أبلغت الإدارة الأمريكية أنها قد تقدم دعماً مالياً لعراقيين من طائفة معينة في أي حرب ضد طائفة إسلامية أخرى، إذا ما سحبت الولايات المتحدة قواتها من العراق.

وزعم الدبلوماسيون أن الملك السعودي عبد الله أبلغ هذه الرسالة إلى نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني قبل أسبوعين أثناء زيارة الأخير للرياض. وقال مسئولون أميركيون إن العاهل السعودي عبّر أثناء تلك الزيارة عن معارضة قوية لأية محادثات دبلوماسية بين الولايات المتحدة وإيران، وحث واشنطن على تشجيع استئناف محادثات السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. ويعكس التحذير السعودي مخاوف حلفاء أمريكا من السنة العرب تجاه تصاعد نفوذ إيران في العراق، ومن طموحاتها النووية".. انتهى التصريح المجهول المصدر مخلفاً وراءه ابتسامة بلهاء لكاتبه الذي يبدو أنه معزول تماماً عما يدور في العراق الآن، فالنفوذ الإيراني مسيطر تماماً على الوضع في العراق، والولايات المتحدة نفسها اعترفت به وأجرت جولات عديدة من المفاوضات للحفاظ على حياة جنودها هناك.

الملاحظة الثانية أن الولايات المتحدة شاركت بنفسها في هدم إستراتيجيتها المعروفة باسم الاحتواء المزدوج لإيران والعراق، وسواء كان ذلك باستدراج من عملاء إيران في العراق لإتاحة الوقت أمام المشروع النووي الإيراني أم لأطماع أمريكية في نفط العراق، فإن المحصلة واحدة وهي خسائر بقيمة ٤٠٠ مليار دولار تصل إلى ٢ تريليون في بعض التقديرات الأكثر دقة، وعدد من القتلى لم يكشف بعد عن رقمه الحقيقي.

الملاحظة الثالثة أن الحديث عن مخاوف من مذابح للسنة في حال الانسحاب فهو إقرار لأمر واقع بالفعل، والمذابح متبادلة

وجارية بين السنة والشيعة، والاحتلال لعب دوراً مفضوحاً في تكريسها. ومع ذلك فقد يكون التقرير توخى في المقـــام الأول إيجاد مخرج للولايات المتحدة من مأزقها في العراق.. وهذا من حق واضعي التقرير.

فـــ (الهم الوطني) في كل بلد يحظى بأسبقية لا تتقـــدمها – في العقل والعادة ـــ أسبقيات هموم الأوطان الأخرى.. وبنفس المنطق فإن تقرير مبدأ التدخل العسكري علناً أو سراً في الشأن العراقي ليس (هماً وطنياً) مصرياً أو سعودياً أو أردنياً خالـــصاً، بل إن الرفض لم يقتصر على دول عربية أو إسلامية ،وامتد إلى دول غربية مثل ألمانيا وفرنسا ،لذلك ليس من المـــستغرب أن تنأى السياسة الخارجية السعودية بنفسها عن المستنقع العراقـــي وتفضل المظلة الإسلامية كبديل لقوات الاحتلال وليس إضافة لها، والخوف كل الخوف أن يكون الانسحاب الأمريكي مظلة للإعداد للعمليات القادمة ضد إيران ،فالخطط الأمريكية تجـــاه إيران تجعل من الساحة العراقية مرشحة لتكون قاعدة الانطلاق في المواجهة المحتملة، ووجود قوات عربية في العـــراق لـــضبط الأمن يسهل على القوات الأمريكية التحـــرك نحـــو الهـــدف الإيراني، كما يجعل القوات الأمريكية في مأمن مـــن انقـــلاب القوى الموالية لإيران واستهدافها في العراق، خاصة مـــع إدراك إدارة بوش أن قواقما في العراق ستكون صيداً سهلاً للميليشيات العراقية المتحالفة مع إيران إذا ما انفجر الـــصراع الإيـــراني / الأمريكي، سياسياً أو عسكرياً.

خطاب العرش

رغم قناعتي بأنه من الظلم قراءة خطاب الرئيس الأمريكـــي جورج بوش أمام الكونجرس عن حالة الاتحـــاد مـــن خــلال تعليقات الصحف أو ترجمات غير أمينة, إلا أن قراءة النـسخة الإنجليزية قد أكدت بما لا يدعو إلى الشك أنه أدار ظهره كلياً لحقائق التاريخ والجغرافيا والسياسة في الشرق الأوسط ،واعتمد سياسة "القوة تخلق الحق وتحميه" لذلك كان لابد من الحديث عن المسكوت عنه في خطاب الاتحاد.

فإذا كان من حقه أن يزف إلى الشعب الأمريكـــي أرقـــام إنجازاته الاقتصادية والسياسية الآنية والمستقبلية، فإن من واجبه أيضا أن يكشف عن أرقام ضحايا سياساته من القتلى من أبناء هذا الشعب دون ذكر قتلى شعوب المنطقة العربية، ولا مـــانع من أن يذكر أيضاً تقديراته المرتقبة من القتلى للسنوات القادمة، ولا أنكر مهارته في إغراق المـــواطن الأمريكـــي في الأرقـــام والتحليلات الاقتصادية ومؤشرات البطالة ومعـــدلات النمـــو والرعاية الصحية لمرضى الإيدز ،إلى أن يصل الحديث عن الأمن فيضل الطريق ويعجز عن تقديم تفسير لتآكل التحالف الـــدولي للحرب على الإرهاب، والذي بلغ ذروته في الهجـــوم علـــى أفغانستان ثم تدهور إلى نقطة العزلة الدولية في حربـــه علـــى العراق .. نفى بوش أية نوايـــا لـــبلاده في فـــرض النمـــوذج الديمقراطي الأمريكي ،واعتبر أن السلام الذي نبحث عنه على

المدى البعيد يتحقق بإنهاء الظروف المغذية للعنف وأيديولوجيات القتل ،وذلك بنشر ثقافة الحرية ،وهي القوة الوحيدة القادرة على حماية العالم، مؤكداً تصدي أمريكا مع حلفائها في العالم لدعم الحركات الديمقراطية ..لكنه لم يذكر إجراءات الاعتذار عن جرائم الحرب التي ارتكبتها قواته في العراق ورفض تحديد جدول زمني لسحب القوات الأمريكية، واعتبر أن الانتخابات التي جرت فتحت مرحلة جديدة للوضع السياسي في العراق ..واختص الرئيس الأمريكي بالذكر عند حديثه عن المشروع الأمريكي في الشرق الأوسط كلاً من السعودية ومصر داعياً إلى إجراء إصلاحات ديمقراطية..لكنه لم يذكر من قريب أو بعيد جدار الفصل العنصري الإسرائيلي الذي طالبت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرار تبنته يوم ٢١ يوليو ٢٠٠٤، بأن تحترم إسرائيل رأي محكمة العدل الدولية في لاهاي التي حثتها على تفكيك أجزاء من الجدار الفاصل الذي تبنيه في عمق الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية، بل إن الحكومة السويسرية أعلنت أن أي مؤتمر دولي لن يعقد بشأن مسألة الجدار الفاصل الذي تبنيه إسرائيل في الضفة الغربية، وباعتراف "روبرتو بالزاريتي" المسئول في وزارة الخارجية السويسرية فإن أحداً لم يطلب الدعوة إلى عقد مثل هذا المؤتمر، وأن الولايات المتحدة وإسرائيل أعلنتا أنهما لن تشاركا في هذا المؤتمر في حال انعقاده، واختزل المسألة الفلسطينية في مساعدة مقدارها ٣٥٠ مليون دولار لدعم الإصلاحات الاقتصادية

والأمنية في السلطة الفلسطينية، وزيـارة لـوزيرة الخارجيـة الأمريكية كونداليزا رايس للأراضي الفلسطينية وإسـرائيل لبحث كيفية مساعدة الفلسطينيين على حفظ الأمـن وبنـاء مؤسسات دولة "سلمية مستقلة وديمقراطية"..لكن لا شيء عن عودة الحقوق، فقط إقامـة دولـتين ديمقـراطيتين، إسـرائيل وفلسطين.. ولم يصدمنا ما قاله بوش، وإنما ما رآه كثيرون في الخطاب من نقاط تحول إيجابية كثيرة، وتصديق عزمـه علـى الحوار وانتهاج العمل الدبلوماسي أكثر من أي وقت مـضى، وبناء تحالفات أخرى، غير آبه لما قد يصدر عن بعض جماعات الضغط اليمينية التي يتزعمها تيار اليمين المحافظ الذي قيل أنـه وضع خطة صياغة المنطقة منذ نهاية ثمانينيات القرن الماضي وبدأ بتطبيقها عملياً في الولاية الأولى للرئيس بوش الابن الذي خاض إلى الآن حربين كبيرتين لتنفيذ تلك الخطط.

اضحك كركر ! !

مع خالص الاعتذار للفن المصري الأصيل وللأغنية الرائعة.. لكنه حقيقة ضحك كالبكاء، فالواقع المضحك المبكي الذي اعتدت قراءته في خطاب الرئيس الأمريكي السنوي عن حال الاتحاد وأصبحت أعتبره من أجمل النكات السياسية التي أتحرق شوقاً إلى الاستماع إليها أو قراءة ما دار حولها، تحول في ذهني إلى فاكهة شتوية نادرة تبعث الدفء في العلاقات السياسية الدولية المشتعلة.

ولا أدعي قدرتي على قراءة ما بين السطور، لأني غالباً ما أجد نفسي مثلي مثل المواطن الأمريكي ،في حيرة من مدى انحراف الوعود والبرامج السياسية للرئيس وإدارته مع الحصاد السياسي الفعلي على أرض الواقع.. ولمن لم يسمع من قبل عن خطاب حالة الاتحاد، فالحديث عن نشر الديمقراطية في العالم لم يتوقف منذ أن حلّت علينا إدارة الرئيس "جورج دبليو بوش"، أما النتيجة فكانت كالآتي من وجهة نظر المواطن الأمريكي:

أولاً : وصول حكومة دينية شيعية إلى سدة الحكم في العراق تحت سمع وبصر البيادة الأمريكية، بل وبرعاية كاملة لها.

ثانياً : وصول الرئيس الإيراني أحمد نجاد إلى موقع الرئاسة رغم المطاردة النووية في المحفال الدولية والحشود العسكرية في العراق، تتصدر ذلك صورته الرائعة وهو يحتجز الرهائن الأمريكيين في حادث اقتحام السفارة الأمريكية في طهران. .

ثالثاً : صعود "حماس" في انتخابات فلسطينية ديمقراطية لتولي السلطة الفلسطينية ،وهو الوجه السياسي المتشدد للنضال الفلسطيني من وجهة نظر المعسكر الصهيوأمريكي.

وفي كل انتخابات ديمقراطية حرة تجرى في المنطقة، إذا بصعود من يرفضهم الرأي العام الأمريكي متأثراً في ذلك برفض الإدارة والرئيس لهم ،وتوصيفهم بـ"قوى التطرف الإسلامي" ،والسبب الرئيسي للرجعية والتخلف ،وحملة لواء المعارضة في العالم للمد الديمقراطي والحرية والتحرر . . ثم نجد رفضاً شديداً ونفوراً أمريكياً من قبول نتائج العملية الانتخابية.. والتفسير الوحيد الذي أملكه أن الأمر لا يتعلق برغبة أمريكية في نشر الديمقراطية، وإنما بخطة لنشر العملاء ،يعلم الله وحده إن كانت قد آتت ثمارها أم فشلت..وهو ما يحتاج إلى تفسير من سفراء الولايات المتحدة في الأقطار الإسلامية عن سر العلاقة بين صعود قوى التشدد الإسلامي للحكم ـ حسب وصفهم ـ وحديث الرئيس الأمريكي عن نشر الديمقراطية!!.اللهم إذا كان في الأمر مزاح من النوع الثقيل أو تواطؤ مغلف بالاستهبال.

أما أغرب ما في الخطاب فهو الحديث عن وصفة تكنولوجية لتخليص أمريكا من إدمان النفط الذي يأتيها من مناطق غير مستقرة في العالم، وما لم يذكره الرئيس الأمريكي أن المقصود تحديداً هو الشرق الأوسط، وكأن غزو العراق لم يكن لاحتلال منابع النفط هناك، وإنما لنشر الديمقراطية فقط!! أو ربما لحساب

تأمين إسرائيل، رغم أن تأمين إسرائيل لم يكن لسواد عينيها أو لقوة اللوبي الصهيوني في الإدارة الأمريكية ،وإنما أيضاً لتأمين مصالح أمريكا النفطية قبل كل شيء، كما أكد ذلك الربط المتكرر في الدراسات السياسية الأمريكية بين إسرائيل وتأمين تدفق النفط، وهي النظرية السياسية التي ثبت فشلها في الشرق الأوسط، ولازالت الولايات المتحدة تتمسك بها وتنظر إلى إسرائيل كحليف إستراتيجي. . فكيف سيقنع بوش اللوبي الصهيوني في إدارته بانتهاء الأهمية الإستراتيجية لإسرائيل وبضرورة تقليص المساعدات العسكرية والاقتصادية لها نتيجة لتراجع أهميتها بتراجع الاعتماد الأمريكي على نفط الشرق الأوسط . . من سيسمح له بتهديد وجود إسرائيل بالأساس؟ أو بتهديد استثماراته العائلية في صناعة النفط؟ أرتعد بالنيابة عنه كلما تصورت أن يكون بدعوته تلك قد أصبح هدفاً للوبي صناعة الوجود الإسرائيلي! لكني أطمئن كلما زاد يقيني أن حديثه للاستهلاك المحلي الداخلي فقط، ولسد الفجوة المتزايدة داخلياً بين الإدارة الأمريكية وقطاعات واسعة من الشعب الأمريكي، كلما ازداد أمد التورط الأمريكي بالعراق وتصاعد الحديث عن احتمالات مواجهة مع إيران أيضاً لصالح تأمين الوجود الإسرائيلي في المنطقة..الخطاب لا يجرؤ على رسم مشهد انهيار وتهاوي قيم وتعاليم الحكم الأمريكية بركائزها من الحق والعدل والمساواة والديمقراطية بفعل فاعل يرفض مبادئ الأخلاق في السياسية.

أكاذيب تاريخية

تسللت إسرائيل إلى الوجود من بين كومة من الأكاذيب التاريخية شكلت في مجملها فكرة الحق التاريخي لليهود ،والتي قامت عليها الدولة الإسرائيلية.. ولا يفضح تلك الأكذوبة سوى الجغرافيا، تلك المتلازمة الوحيدة التي تفضح دوماً أكاذيب التاريخ، فنظرة سريعة إلى "أطلس خرائط المستعمرات البريطانية لعام ١٩٣٤" تكشف بدقة أنه لم تكن هناك إسرائيل ولكن فقط فلسطين، وهذا يفسر عشق الإسرائيليين للتاريخ وكراهيتهم للجغرافيا التي بنوا على أنقاضها -عنوة - دولتهم المسروقة..وهذا يفسر أيضاً ولعهم بوصف أتفه الأحداث بأنها تاريخية تماماً ،مثلما جرى في زيارة الرئيس الأمريكي جورج بوش للمنطقة والتي بدأها بزيارة إسرائيل أولاً تعبيراً عن حقيقة قائمة، وهي أن واشنطن لن تنظر أبداً إلى القضية الفلسطينية والحقوق العربية سوى من منظار تل آبيب، بل لن تطرح حلولاً أو تفرض مقترحات أو تعيد حقوقاً لا تقبلها إسرائيل..وهذا ليس تشاؤماً، ولكن تحذير من الإفراط في التفاؤل الخادع بجدوى مجيء أو رحيل أي رئيس أمريكي للمنطقة، والمسألة بأكملها ليست سوى زيارة مقايضة بين رؤى ـــ تاريخية أيضاً ـــ غير قابلة للفعل تطرح فكرة دولتين متجاورتين، إحداهما مدججة بالسلاح والأخرى مجردة من النوايا بامتلاك سلاح مقابل تشكيل تحالف ضد إيران.. بوش

جاء يبحث عن مقايضة حسابية معقدة وليس عن حل للمسألة الفلسطينية، فمقابل قيام الدولة المجردة الفلسطينية يقتضي الأمر إعلان الحرب على إيران وقبول تقسيم العراق وقطع المعونات عن مصر وإبادة حماس ،وهو ثمن تاريخي عادل من وجهة النظر الأمريكية التي تبحث عن مصالحها فقط..

وهي نفس المقايضة التاريخية التي أدت إلى انهيار الخلافة الإسلامية عندما تكتل العرب في مواجهة الدولة العثمانية ،الوريث الأخير للخلافة الإسلامية في سلسلة من الحروب والانقسامات والمؤامرات، إلى أن انهارت تماماً بفعل وعود الحرية والاستقلال ،ووقتها سقطوا في قبضة بريطانيا وفرنسا أذلاء لعشرات السنين..

والفضيحة أن رؤية بوش للحل جاءت متأخرة عن قرار التقسيم أكثر من ٦٠ عاماً، والحدث التاريخي الوحيد هو تلك الاستفاقة الأمريكية من تلك الغيبوبة السياسية الطويلة، ومحاولة تصحيح مسار السياسة الخارجية الأمريكية بعد أن تم التقسيم بأموال دافعي الضرائب الأمريكيين من خلال الجدار الفاصل أو العازل الذي روج لوهم تحقيق الأمن الإسرائيلي ،ليصبح في واقع الأمر احتجازاً لإسرائيل خلف حائط إبادة، فالعمليات الانتحارية لم تتوقف، والصواريخ لم تمتنع، والأمن لم ولن يأتي على أرض مسروقة.. وتحولت واشنطن بعد استدراجها للعراق إلى عدو تاريخي للعرب ،وسوف تصبح عدواً تاريخياً للمسلمين بضرب إيران، وربما بغزو باكستان لتقليم مخالبها النووية.

الصحافة الأمريكية هي الأخرى أصابتها عدوى التهليل التي تنتاب صحافة العالم الثالث فيما يخص كاريزما الزعيم والقائد الملهم، وهي بالأصل عدوى نازية تنتاب الصحافة في العالم من حين لآخر وتفقدها الشروط الموضوعية، فأخذت تصور أهداف الجولة وكأنها من مقتضيات المصلحة الأمريكية العامة، وهي كما فضحتها أو كشفتها صحيفة الواشنطن بوست "كانت مجرد مسعى لحشد دعم للضغوط الدولية والإقليمية ضد إيران"، تحسباً لمواجهة مع النفوذ الإيراني المتزايد في المنطقة بشكل أكبر، وهي تعبير عن قلق مسئولي الإدارة الأمريكية حيال ما يرونه بمثابة جهود من جانب إيران لتطوير سلاح نووي وترهيب جيرانها، وهي سعي من بوش لطمأنة زعماء الشرق الأوسط ببقاء نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة.. وإذا كانت تلك هي النوايا الحسنة لزيارة السيد الرئيس، فما هو التفسير لصدور تقرير الاستخبارات الأمريكية الذي يُبرئ إيران ويُثير قدراً هائلاً من الارتباك في الدوائر السياسية والشعبية العربية تجاه طهران؟!

الأمر لم يخرج عن سياسة العصا والجزرة، فإما أن يتحالف العرب مع واشنطن في مواجهة طهران والشيعة، أو أن تتساكن واشنطن مع طهران في مواجهة العرب السنة، لنسقط من جديد في فخ التقارير ولعبة المقايضات التاريخية القذرة.

بيعة أبدية

بحثت بشغف شديد على مدى أسبوع كامل عن الترجمة العربية الرسمية لنص خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش أمام الكنيست الإسرائيلي بمناسبة مرور ٦٠ عاماً على إعلان تأسيس دولة إسرائيل فوق الأراضي العربية المحتلة والمسروقة، فلم أجده نهائياً إلا في المواقع الإسرائيلية العربية على شبكة المعلومات، بينما تجاهلته تماماً وزارة الخارجية الأمريكية في موقعها، ونشره موقع البيت الأبيض بالكامل .. فما هو مغزى ذلك؟!، هل يعني أن الرئيس الأمريكي في بيعته لإسرائيل كان يعبر فقط عن وجهة نظره الشخصية والعائلية وساكني البيت الأبيض فقط دون الشعب الأمريكي وحكومته ممثلة في وزارة الخارجية؟!.

أم أن البيعة الأبدية التي قدمها بوش لإسرائيل دخلت إلى مراكز الأبحاث والدراسات لإعادة إنتاجها في صورة قرارات ومؤتمرات وندوات وأوراق عمل ملزمة للمنظمة الدولية؟! أتصور أنها مسألة تستحق التوقف والتأمل ، فليس من المعتاد أن نرى تنافراً بين أجنحة السياسة الأمريكية حول الشأن الإسرائيلي، وإنما تنافس وسباق في الإذعان والركوع والخشوع.. والسبب في سوء ظني هو تلك المضامين والرسائل التي اختارها جورج بوش ليتوج بها آخر خطاب له في إسرائيل كما يبدو قبل إنهاء ولايته في البيت الأبيض... لقد كان خطاب مكاشفة بامتياز، مزق فيه بوش بقية الأقنعة التي حاول

بها -على امتداد سنوات حكمه- إخفاء انحيازه الكامل لإسرائيل وكراهيته المترامية الأطراف للعرب والمسلمين.. وقف بوش في هذا الخطاب عارياً دون رتوش، واضحاً دون مواربة، صريحاً دون دبلوماسية، صهيونياً دون منازع، يهودياً أصولياً دونه أصولية "كهانا حاي" الدينية وأصولية "ليبرمان القومية"، حاقداً على الإسلام والعرب والمسلمين دون أدنى تردد أو خجل... لقد كان خطابه بيعة أبدية ليهودية إسرائيل وصهيونية نظامها، ودعماً بلا تحفظ لأيدلوجيتها العنصرية وسياساتها التدميرية الوحشية، كما كان حكماً بالإعدام على حلم التسوية السلمية والدولة الفلسطينية، وتراجعاً صريحاً عن وعده في إقامة هذه الدولة، التي ترك الحديث عنها لأولمرت ،الذي وضعها بدوره كالريشة في مهب الريح بلا لون أو طعم أو رائحة... مجرد حديث لطالما سمعه الفلسطينيون على مدى ستة عقود مرت منذ النكبة.. جدد الرئيس الأمريكي جورج بوش، في خطابه الذي ألقاه في الكنيست بعد ظهر الخميس ١٥ مايو ٢٠٠٨، دعمه وتأييده الكامل لإسرائيل في حربه ضد ما سماه "الإرهاب" في إشارة إلى فصائل المقاومة الفلسطينية واللبنانية، في وقت لم يذكر فيه الفلسطينيين إلا بشكل عابر تحدث عن استقلال إسرائيل وتجسيدها لقيم الديمقراطية والحرية والمساواة، وخلع عليها من النعوت والأوصاف ما لم يقل (قيس) في (ليلى) ولا (روميو) في (جولييت)، بينما لم يشر إلى معاناة الشعب الفلسطيني لا من قريب ولا من بعيد، ابتداء من النكبة

التي تسببت بها إسرائيل مروراً بجرائمها عبر ستة عقـــود ضـــد فلسطين الإنسان والوطن والمقدسات، وانتهاء برفضها القـــاطع لحقوق هذا الشعب في الحرية الكاملة والناجزة، وفي الاستقلال و العتق .. لقد نسى بوش وعده للفلسطينيين وعهده أمام العالم في لحظة (حُلُول) نادرة في الذات الإسرائيلية، حتى كأنه يَمُـــدُّ الأشهر الستة الباقية حتى قيام دولة فلسطين حـــسب الوعـــد (البوشي)، فيجعلها ستين سنة جديدة. فقال بنبرة التحـــدي: "ستحتفل إسرائيل بالذكرى الـــ ١٢٠ وهي أقـــوى وأفـــضل تقدماً، والفلسطينيون سيكون لهم الوطن الذين حلمـــوا بـــه، الدولة التي ترفض الإرهاب، وحينـــها ســـيُمحى حـــزب الله وحماس".. وفي شرم الشيخ لم يكن قد تخلص بعد من حلـــول الذات اليهودية، لذا لم يكن من المستغرب أن نرى "نيتنيـــاهو" يعظ.

الديمقراطية بالتعذيب

قبل أربعة عشر عاماً طلبت لقاء الرجل في زيارتي الخاطفة لواشنطن لكنه رفض وتعلل بكثرة مشاغله لشهر قادم وهو أقرب موعد يمكن أن تتاح لي فرصة الجلوس إليه والتحدث معه.. وقد كان اعتذاراً مهذباً ذكياً للغاية، لأن إقامتي كانت لمدة خمسة أيام فقط، ولن أتمكن من العودة إليه بعد شهر حيث موعد مغادرتي وعودتي إلى القاهرة؛ كنت أتصور وقتها أن الرجل قد يحمل إجابات ترضى فضولي عن انتخابات التجديد النصفي للكونجرس وما قد تحدثه من تأثيرات على وجه الحياة في الشرق الأوسط، وتصورت في سنوات عدة بعد ذلك - شهدت فيها العلاقات العربية الأمريكية أسوء مراحلها -أن لقائي به وقتها ربما كان ليمنع هذا التدهور لو أمكننا فتح النوافذ على مصراعيها باقتراب آخر مضيئاً للفكر السياسي الأمريكي مع الإعلام المصري.. وحتى لا أهدر الفرصة مجدداً فقد استقبلت دعوة الجامعة الأمريكية بالقاهرة لمحاضرة "جيمس زغبي" رئيس المعهد العربي الأمريكي في واشنطن، باهتمام وحرص شديدين بحثاً للمرة الثانية عن بصيص ضوء في النفق المظلم الذي تمر به العلاقات الأمريكية العربية منذ استيلاء الجمهوريين على الكونجرس عام ٩٤ ثم البيت الأبيض بعدها .. في المحاضرة جلست أنتظر إجابة سؤال طرحته منذ ١٤ عاماً عن موقع الشرق الأوسط في أجندة مرشحي الرئاسة الأمريكية, وهو سؤال تجيب عنه الممارسات السياسية

الأمريكية كل يوم منذ ضرب واحتلال العراق وأفغانستان، لكني تصورت أن ما حدث من تدهور كفيل بمراجعة المواقف وإعادة قراءة خرائط المنطقة من جديد، وأن الرجل سوف يحمل معه ملامح تغير ولو طفيف في الفهم الأمريكي للمنطقة.. وهو ما لم يحدث ولن يحدث كما استشعرت من حديثه التحليلي المطول لاتجاهات وتكوينات مرشحي الرئاسة الأمريكية، فالقضايا الداخلية لازالت وستظل هي المحرك للاتجاهات التصويتية للرأي العام الأمريكي، بل وأبشركم أيضاً بأن الرؤية الأمريكية لا تزال أسيرة العدسة الإسرائيلية التي تحدد لها ما تراه يتوافق فقط مع مصالح الدولة العبرية، وهذا التجاهل لقضية السلام في الشرق الأوسط يأتي متماشياً مع حملة انتخابات ٢٠٠٨ ،فالمرشحون لن يتعرضوا إلى القضية إلا إذا دعوا إلى ذلك، وهو ما يحدث عادة عندما يتحدثون أمام جمهور من الإسرائيليين أو العرب الأمريكيين، أو أن تطرح القضية في معرض التحدي خلال لقاء عام ضمن الحملات الانتخابية.

قد يكون انتظاري أربعة عشر عاماً للقاء "جيمس زغبي" لم يأت لي بفهم جديد عمّا توصلت إليه من قناعات بشأن طبيعة العملية السياسية داخل النظام التشريعي الأمريكي، لكنها أيضاً لم تطرح رؤية لمعادلة التأثير العربي في الداخل الأمريكي لتحقيق توازن في العلاقة مع اللوبي الإسرائيلي بما يحفظ للولايات المتحدة مصالحها المباشرة في المنطقة وصداقاتها، وهو من

المفترض أن يكون دور الأمريكيين العرب المخضرمين من طراز جيمس زغبي، لا أن يقتصر الأمر على نقل مشاهدات ولقطات تسجيلية أرشيفية لفكر المرشحين لا تسمن ولا تغني من جوع في الظروف الدقيقة التي تمر بها المنطقة العربية.

أتصور أن العرب الأمريكيين مُطالبين بإقحام ملفات الشرق الأوسط والقضايا العربية في سباق الانتخابات الرئاسية الأمريكية الجارية.

أتصور أن دورهم الراشد العاقل أن يفضح أخطاء الإدارة الحالية التي جعلت من العراق وأفغانستان مقبرة لأبنائهم وعشائرهم.

أزعم أنهم مطالبون بحركة تصحيحية للمفاهيم الأمريكية بحق الآخر ،والتي انتقلت من "مساعدة الآخر" إلى "قتل الآخر".

أن يستردوا الفخر الأمريكي بمد يد العون للبشرية، لا بالتعذيب والقتل وسياسات التجويع.

أن يعيدوا شعار الاحترام للجميع بدلاً من الديمقراطية بالتعذيب للجميع.

ميثاق الشرف الكلبي

اعترف مدير وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) مايكل هايدن للمرة الأولى في جلسة استماع أمام أعضاء لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، في فبراير ٢٠٠٨، أن الـ "سي آي إيه" اعتمدت تقنية "الإغراق" في استجواب ثلاثة مشبوهين من شبكة القاعدة، هم خالد الشيخ محمد وأبو زبيدة وعبد الرحيم الناشري، في وقت ساد الاعتقاد بوشوك وقوع هجمات ضخمة أخرى على الولايات المتحدة، والاعتراف نشره موقع راديو "سوا" الأمريكي وقناة "الحرة" الأمريكية على طريقة "شهد شاهد من أهلها".

لمجرد الشك والاعتقاد أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية- الراعي الرسمي للديمقراطية وحقوق الإنسان- على استخدام التعذيب بحق الاشتباه هم، ثم لم تلبث أن اعترفت بذلك علانيةً على لسان المسئول الأول عن تقنيات التعذيب في جرأة لا تحسد عليها، وقبل ذلك في يقين لا يخطئ بأنه لا أحد يمكنه المحاسبة.. فمن يستطيع أن يضع تقريراً يتهم فيه الولايات المتحدة بارتكاب جرائم ضد الإنسانية ؟! لا أحد، بل من يجرؤ على المحاسبة إذا وثقت الاتهامات في تقارير وإفادات مسئولين؟! لا أحد..ربما لأن المسألة يجرى صياغتها بتعبيرات وألفاظ غاية

في الأناقة والدبلوماسية، فالمسألة كلها مجرد تقنيات .. فتقنيات تحرير العراق من نظام صدام قد تجاوزت أعداد ضحاياها ثلاثة أضعاف ضحايا هيروشيما.. وجداريات التعذيب في معتقل "أبو غريب" مجرد تقنيات، والعرب والمسلمون أصبحوا فئران تجارب لتلك التقنيات ليس إلا، ودون افتراضات بسوء النية لا سمح الله. ورغم أن وثائق إدانة الولايات المتحدة بالتعذيب جرى تسريبها بمعرفة الصحافة البريطانية منذ عام ٢٠٠٥ وحتى الآن، ورغم اعترافات الإدارة الأمريكية ومسئوليها أمام لجان التحقيق البرلمانية وتأكيد مدير الاستخبارات القومية "مايك ماكونيل" أن التقنية مازالت ضمن ترسانة وكالة الاستخبارات، وأنها تستخدم بموافقة خاصة من الرئيس الأمريكي والمدعي العام، رغم ذلك كله لم نسمع أو نشاهد حتى الآن بيانات الشجب والإدانة من الاتحاد الأوروبي التزاماً بالحكمة القائلة بأن "الكلب لا يقضم أُذن أخيه"، وعملاً "بميثاق الشرف الكلبي".. المفاجأة ليست في اعتراف هو تحصيل حاصل، لكنها في المزاج العام الذي كشفت عنه استطلاعات الرأي في نوفمبر ٢٠٠٧ وأظهرت أن نحو ٤٠% من الشعب الأمريكي لا يعارض تلك التقنيات، وأن غالبية الأمريكيين لا ترى في التقنية المسماة بـ "ركوب المياه" ضرباً من أنواع التعذيب، فيما رأت شريحة أن للولايات المتحدة حق استخدامها ضد المعتقلين،

وأعرب أكثر من ثلثي المستطلعين- أي ما نسبته ٦٩% أن "تزلج المياه" ضرب من التعذيب، مقابل ٢٩% معارضة، وشارك في المسح الذي أجرته CNN بالتعاون مع "أوبنيون ريسيرش كورب" ١٠٢٤ شخصاً.في سؤال بشأن السماح للإدارة الأمريكية باستخدام التقنية لانتزاع المعلومات من المعتقلين المشتبه بمزاولتهم الإرهاب، جاء رد ٥٨% بالرفض، بينما ٤٠% بالإيجاب.. وتلك مؤشرات لما ستسفر عنه نتائج الانتخابات الرئاسية الأمريكية، سواء كان الرئيس ديمقراطياً أم جمهورياً فكلاهما نتاج للمزاج الأمريكي العام الذي يستسيغ تعذيب الشعوب الأخرى حفاظاً على أمنه، وأن المقولة التاريخية بأن النظام السياسي الأمريكي يصحح أخطاءه تلقائياً بفعل آليات الانتخاب والحراك السياسي الديمقراطي في مجتمع حيوي دائم التنفس والتنفيس، لم تعد صالحة للاستخدام أو التطبيق في حالات الحرب، وأن المكارثية كامنة في جينات الأمريكي مثلما النازية كامنة في جينات الألماني والصهيونية في جينات الإسرائيلي والغباء في جينات العربي.

الانتحار الأمني

فوبيا الأمن ليست بلا ثمن.. لكنها في أحيان كثيرة تتجاوز المفهوم المادي لتسع المفهوم السياسي للكلمة، ولكل منهما ثمن وتكلفة تدفعه الشعوب وفق استجابتها الخاصة لمفهوم الأمن.. الولايات المتحدة اختارت الطريق الصعب لسداد تكلفة الأمن نقداً من دماء مواطنيها، وعلى حساب مخصصات التعليم والصحة وإعانات البطالة، ورأت أن الحل السياسي قد يُفَسَّر بأنه رضوخ للابتزاز وليس استجابة لمنطق الأشياء.

وأبدأ بما كتبته سوزان وجوزيف ترينتو في الواشنطن بوست تعليقاً على معلومات بريطانية تفيد بإماطة اللثام عن مؤامرة إرهابية ترمي إلى تفجير ما لا يقل عن عشرة طائرات أمريكية أثناء عبورها أجواء المحيط الأطلسي، متجهة في طريقها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكشفاً عن إنفاق الولايات المتحدة حتى الآن ما يقدر بحوالي ٢٠ مليار دولار على أمن الطيران منذ وقوع هجمات ٩/١١، واعتبروا أن ذلك لم يحقق المستهدف ،وهو تطوير الدفاعات الأمنية بما يتواءم والخطط والمؤامرات التي طورها الإرهابيون خلال المدة نفسها؛ويبرز بوضوح الاتجاه الأمني والدعوة إلى الإغراق في مزيد من الهوس الأمني التي يروج لها الكاتبان ويعبران دون قصد عن تيار مستشري في المجتمع والإدارة الأمريكية.

والسؤال يتكرر كلما وقفنا على أعتاب سبتمبر جديد، هل هناك حل سياسي أرخص من حيث التكلفة الاقتصادية، و ذو مردود سياسي عالٍ على المدى البعيد أوالقريب؟

أتصور أن الإجابة بنعم تستدعي قراءة ما كتبه : آري بيرمان مطلع أغسطس ٢٠٠٦ في مجلة "ذى نايشن" تحت عنوان " هيمنة الجمعية الأمريكية الإسرائيلية لشئون العلاقات العامة AIPAC" ويرصد فيه مدى الانبطاح السياسي الأمريكي في أحضان إسرائيل بدءاً من الكونجرس ومرورا بالإدارة الأمريكية وانتهاء بالقواعد الشعبية الكنسية، فيقول إن " جمعية AIPAC هي اللاعب الرئيسي فيما يشار إليه في بعض الأحيان "باللوبي الإسرائيلي" – وهو تحالف يضم كبرى الجماعات اليهودية، من مفكري المحافظين الجدد والمسيحيين الصهاينة- وبعلاقاتها النفوذية بين أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب والقواعد الشعبية المؤثرة، وصلاتها الوثيقة بالمتبرعين من الأغنياء، تعتبر جمعية AIPAC المبعوث الرئيسي للوبي الإسرائيلي إلى الكونجرس ،وقد أصبح غالبية القادة المنتخبين ينظرون إلى مصالح جمعية AIPAC، ومصالح إسرائيل، ومصالح الولايات المتحدة، على أنها شيء واحد؛ البعض في الكونجرس يشعر بانزعاج شديد من جمعية AIPAC بسبب وجهات نظرها المعارضة ووسائلها الخرقاء، ولكن الغالبية لا يتجرأون على التصريح بذلك علانية".(انتهى).

وإذا كان ذلك هو منطق الأشياء الـذي يحكـم سياسـة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، فما هو المنتظـر للأمـن القومي الأمريكي سوى مزيد من الانتهاك!!.والمزيد من الهوس الأمني ،والمزيد من الإنفاق العسكري، والمزيد من التـورط في الحروب وسفك الدماء واكتساب العـداوات والانـزلاق إلى دوامة الثأر، وهي مقدمات لنتـائج معروفـة أدت إلى انهيـار إمبراطوريات كثيرة في التاريخ. فإذا أردت أن تهلك أمة فـلا سبيل سوى إنهاكها في حروب لا تنتهي ،وأن تبقيها في تهديـد أمني مستمر كما يحدث الآن مع الولايات المتحدة، وحدث من قبل مع الاتحاد السوفيتي ومن قبل مع رجل أوروبا المـريض أو الإمبراطورية العثمانية. ولا يعني ذلك أننا نرجـو للولايـات المتحدة نفس المصير أو أننا نتآمر على رفاهيتها ،لكنها حسابات التاريخ التي لا تجامل أحداً..ولحظتها قد تقفز إسـرائيل مثـل جرذان السفينة الغارقة لتلحق ربما بالقارب الصيني الذي بـدأ يشرع قلاعه منذ فترة، وليتبقى فقط بـين أمريكـا والعـرب والمسلمين حصاد مر، ملوث بالدماء، وثأر لا ينتـهي سـوى بالفناء.

ثم ما هي مقومات بقاء إسرائيل وسط بحر الكراهية الـذي يزداد منسوبه يوماً بعد يوم؟

ومن يتصور أن طفل أمريكا المدلل يمكنه العيش بعيداً عـن الحضانة الأمريكية والتغذية بالأنابيب ؟ لا أحـد يـصدق أن

استمرار الدعم الأمريكي بكل تلك التكلفة السياسية والاقتصادية يمكن أن يستمر بلا نهاية، لم يحدث في التاريخ أن اقتاتت دولة وشعب على "قفا" دولة وشعب آخرين إلى أن تقوم الساعة. و إن غداً لناظره قريب!!

الانصهار الكيماوي الأخير

ظاهرة "البطة العرجاء" هي علامة فارقة لكل الإدارات الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ،وتصيب الغالبية العظمى من الإدارات في فصلها الثاني من الحكم، حيث تتلاشى تدريجياً القوة السياسية والمعنوية للحكم في البيت الأبيض ،وتنحدر السطوة يوماً بعد آخر.

والسياسة كونها أشرس أنواع الفنون البشرية، وهي على درجات أعلى وأكبر من القسوة والوحشية في المجتمع السياسي الأمريكي ، فالسلطة تُعطَى لمدة محددة ومحدودة المعالم، وتُؤخَذ رويداً رويداً عندما تبدأ مرحلة العد العكسي لفصل جديد من الانتخابات . وقد اكتشف الرئيس بوش -كما اكتشف والده سابقاً، وبيل كلينتون لاحقاً، وريجان فيما قبلهما- أنّ كلامه وأفعاله انحدرت قيمتهما السياسية والاقتصادية والمعنوية داخلياً وخارجياً، فرأس مال السلطة له حدود، وفورة القوة السياسية النافذة والفعالة تبدأ بالانحدار إلى أنهار التاريخ والنسيان!

لكن الرصد والمشاهدة والتفسير لظاهرة البطة العرجاء اقتصر دائماً على تقييم أداء الإدارة الأمريكية خلال فترة الاقتراب من صناديق الاقتراع دون توضيح هوية الشيطان الذي جعل البطة عرجاء ،ودون محاكمة حقيقية لهذا الشيطان الذي

أحدث عاهة مستديمة بالبطة الرئاسية..ويلعب دور الشيطان في تلك الملهاة السياسية مراكز الأبحاث والدراسات الشهيرة في الولايات المتحدة ،والتي يروج لها السياسيون كلّ وفق مزاجه السياسي، ويزعم أنه يستقي خطه السياسي من خلالها، ويطلق عليها مصطلح "ثينكس تانكس "Thinks Tanks. تقوم هذه المراكز البحثية بإمداد صانعي السياسية الأمريكية ووسائل الإعلام بتحليلات ودراسات تتعلق بكل القضايا الهامة، ما يجعلها لاعباً هاماً في تحديد أولويات القضايا الإستراتيجية التي تواجه الولايات المتحدة، وتشارك كذلك في تحديد المسارات التي يجب أن تسلكها الحكومة الأمريكية في تعاملها مع هذه القضايا. إذاً فهي شريك كامل في تضليل صانع القرار ،ومن قبله الناخب الذي أوصله إلى مقعده الرئاسي أو النيابي.. وفي لحظات إنتخابية سعت تلك المراكز إلى إغراق الحقائق المفصلية داخل تفصيلات هلامية ،باعتبار أن الشيطان دائماً ما يكمن في التفاصيل، وكلما زادت التفاصيل حشدت معها المزيد من الشياطين.. فالعراق المهزوم المفتت والمنهار أصبح -بقدرة قادر- لا يشكل سوى مكون واحد من حقيبة قضايا الأمن القومي الأمريكي التي تضم الأمن الداخلي للولايات المتحدة والحرب على الإرهاب، ومكافحة الانتشار النووي خاصة إيران وكوريا الشمالية بعد ثبوت كذب الادعاءات بامتلاك بغداد طاقية الإخفاء النووي، ثم يتحول الانسحاب من العراق في تقرير مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية بواشنطن إلى

خطر داهم على الأمن القومي، ومؤلف الدراسة هو "أنتـــوني كوردسمان" باحث بالمركز وأحد الخبراء العسكريين، وتظهـــر الدراسة في توقيت سياسي حرج أمريكياً قبل أســـبوعين مـــن إجراء الانتخابات التشريعية، ورغم استمرار نـــداءات خـــبراء ومسئولين أمريكيين بضرورة نقل مسئوليات قوات التحـــالف إلى قوات الأمن العراقية؛ لكن الدراسة تعرض بنظرة متـــشائمة الوضع في العراق، وتشكك في قدرة القوات العراقية على تحمُّل المهام الأمنية وحدها في الفترة الراهنة. وهو ســـيناريو ســـعت إدارة الجمهوريين إلى إنكاره على مـــدى ســـنوات احتلالهـــا العراق، وتؤكد دوماً سيطرتها على أوراق اللعبـــة، ثم أخـــذت تلوح بفشلها مع اقتراب الحسم الانتخابي ،طمعاً في تعـــاطف انتخابي لموقفها الرافض للانسحاب، والإصرار على أن قـــضايا داخلية أكثر إلحاحاً وأهمية ستحسم المعركة الانتخابيـــة مثـــل موقفهم الصلب من قضية زواج المثلين؛ النتائج وحدها أثبتـــت أن شيطان مراكز الأبحاث كان يكتب ويقرأ في لحظات كثيرة لنفسه فقط ولأهوائه السياسية التي تلقى صدى عند صـــانعيه, لكنها لا تصمد عند لحظة انتخاب حقيقية تصاحبها اســـتفاقة شعبية بدأت حريقها من لندن بـــسقوط حـــزب العمـــال إلى واشنطن بانصهار وإذابة رامسفيلد في الكيماوي العراقي.

الشذوذ السياسي

" شرف لا أدعيه وتهمة لا أنكرها" .. في سياق تلك الحكمة المنبطحة، جاءت اعترافات السيناتور الجمهوري السابق مارك فولي المتهم بالتحرش الجنسي بقاصر، ولازالت القصة تتوالى فصولها بعد أن أعلن عن شذوذه الجنسي مشيراً إلى أنه يخضع للعلاج وكأنها خطوة يريد منها تبرئة نفسه أو تبرير سبب لجوئه إلى محاولة التحرش بمتدرب شاب (١٦ عاماً) عمل مراسلاً في مجلس النواب الأمريكي لفترة مؤقتة. ورغم استقالة فولي إلا أن تلك الحادثة وجهت صفعة سياسية إلى الجمهوريين الذين خسروا مرشحاً قوياً لانتخابات الكونجرس في مواجهة الديمقراطيين الذين لا يحتاجون إلى أكثر من ١٥ مقعداً إضافياً للحصول على الأغلبية .

كل ذلك لا يعنينا، كما أن تداعياته السياسية على مستقبل الجمهوريين أيضاً لن تقدم أو تؤخر بالنسبة إلينا، بل إن اتهاماته لرجال الدين باستغلاله جنسياً لن تضيف بُعداً جديداً لرؤيتنا لتصريحات بابا الفاتيكان بحق الرسول الكريم، فنحن على يقين بأن من كتبها أو رددها ربما يخضع أيضا للعلاج النفسي من اعتداء جنسي سابق، لكن الرمزية التي تعبر عنها تلك الحادثة

أخطر بكثير من تداعياتها السياسية والقانونية .. مـــاذا يعـــني ذلك؟!

أن العالم طوال السنوات الماضية وعلى مدار فترتي الحكـــم الجمهوري كان يتعامل دون أن يدري أو ربما يدري مع نظـــام شاذ جنسياً، وإلا فبماذا نسمي ما حدث من انتهاكات جنسية في معتقلات أبو غريب سوى أنها الامتداد الطبيعي لأخلاقيات السادة في واشنطن؟!.. القصة لا تثير الدهـــشة ،فالمؤشـــرات كانت واضحة، وكثيراً ما استخدمت في تلك زاويتي الأسبوعية تعبير "النظام الدولي الشاذ جنسياً"، لكن المثير للدهشة أن هناك في عالمنا العربي من لازال يعتقد في استقامة الإدارة الأمريكيـــة الحالية ويمد لها يد العون في ورطتها داخل العراق أو في مشروع تحرشها بإيران أو في تحركاتها تجاه ســـوريا وجنـــوب لبنـــان ودارفور والصومال . وهذا أيضاً لا يعنينا وربنا يهنئ ســـعيداً بسعيدة، فما يعنينا فقط أن نورط أنفسنا فيما دأبت الـــدوائر الرسمية على نفيه من الإسهام في حلف لتطويق طهران، ومـــا تردد عن نجاح وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايـــس في انتزاع موافقة وزراء خارجية الدول الخليجية بالإضافة إلى مصر والأردن، على تدشين تحالف مشترك تقوده الولايات المتحـــدة ،أهم بنود أجندته مواجهة النفوذ الإيراني في المنطقة خـــصوصًا

بالعراق، والتصدي لبرنامج طهران النووي، لأنه يعني ببساطة توريطاً لتلك الدول في حرب أمريكا القذرة في العراق ،كما أنه تجهيز لذبح إيران لحساب إسرائيل. وقد لا يعنينا أيضاً ذبح إيران من عدمه، باعتبار أن الخبرات التاريخية أكدت مراراً وتكراراً أن مصر مستهدفة من إرهاب الحرس الثوري الإيراني، لكن يبقى تساؤل مرير وهو إذا كنا عاجزين عن تحقيق توازن الرعب والردع مع إسرائيل، فلماذا لا نترك غيرنا يحقق هذا التوازن؟! لماذا أصبحنا نفزع لما تفزع منه إسرائيل والولايات المتحدة؟! ومنذ متى أصبحت أجندتنا السياسية مماثلة لتلك التي تروج لها واشنطن؟! الإجابة بسيطة، فقد استغلت "رايس" قلق الدول العربية من السيطرة شبه الكاملة لإيران على الأوضاع بالعراق للإعلان عن هذا التحالف المشترك بما يخدم مصالح الأطراف المنطوية تحته، وأعطت الضوء الأخضر للدول العربية للعودة بقوة إلى الساحة العراقية لمواجهة النفوذ الإيراني المتنامي عبر تقديم ضمانات أمنية للشركات ورجال الأعمال والدبلوماسيين العرب، من أجل استعادة الوجه العربي للعراق وعدم تحويله إلى مسرح للنفوذ الإيراني. وما لا ترغب كونداليزا في إعلانه بصفة رسمية هو أن الحرب الباردة تدق الأبواب من جديد، باعتبار أن البرنامج النووي الإيراني هو وعاء لاستثمارات روسية، وأية مواجهة عسكرية مع إيران

ستعني ببساطة مواجهة مع المشروع الاستثماري الروسي. إذاً فهي قد تكون عودة لسياسة الأحلاف من جديد بعد أن استعادت واشنطن عداواها القديمة؛ ففي نفس اللحظة التي تسللت فيها إلى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق كانت روسيا تتسلل إلى مناطق نفوذها في الخليج العربي، وتقترب من منابع النفط وخطوط الإمداد وتنقل التكنولوجيا النووية لخصومها التاريخيين، وترسل بوارجها إلى السواحل اللاتينية، وربما هي من استدرجها إلى أفغانستان والعراق وقريباً إيران.. وهذا أيضاً لا يعنينا فنحن مجرد أغنام على مأدبة اللئام!!

إنقاذ أمريكا أولاً ! !

طرحت مسألة اختيار كونداليزا رايس لحمل حقيبة الخارجية الأمريكية في فترة الرئاسة الثانية للرئيس جورج بوش عدداً من التساؤلات في ذلك الوقت، كان أبرزها يدور حول ماهية أولويات السياسة الخارجية الأمريكية في الأربع سنوات القادمة، وهو في رأيي كان تساؤلاً مشروعاً من مواطن غير أمريكي مثلي باعتبار أننا جميعا نعيش العصر الأمريكي، سواء أنكرنا أم قبلنا، وسواء كان يمثل هذا العصر الجنة الموعودة لكثيرين أو يمثل الجحيم المحتوم للأكثرية .

ولأن مرحلة الإعجاب بالنموذج الديمقراطي الأمريكي في صفوف النخبة المثقفة العربية قد ولت بلا رجعة بعد غزو أفغانستان والعراق وإعادة تسمية الأحداث بأسمائها الحقيقية مثل وصفها بأنها قوة احتلال، وأن أعمال الإرهاب في العراق هي مقاومة مشروعة، وأن انتخابات العراق هي مراسم تنصيب لحكومة عميلة، علماً بأن ما قبلها كان أكثر عمالة، ثم مسلسل الخسائر في الأرواح والمعدات في صفوف قوات الاحتلال الذي بات أكثر علانية من ذي قبل دفعت بالحديث إلى انسحاب أمريكي وتنبؤات عن حرب أهلية داخل العراق.

إذاً فالمراجعة أضحت أكثر إلحاحاً، والأولويات اختزلت في واحدة فقط هي إنقاذ أمريكا..أولاً من نزيف الحرب والدماء والخسائر في العراق، ثانياً إنقاذ سمعتها الدولية من جرائم الحرب

الموثقة بالصور وباعترافات جنودها، وثالثاً تخفيض رصيدها من الكراهية في العالمين العربي والإسلامي.فالمأزق الحقيقـي أمـام السياسة الخارجية الأمريكية هو نظرتها المظلمة إلى الأوضـاع السياسية في مجتمعاتنا، ثم على الجانب المقابل تكمـن نظرتنـا الأكثر ظلامية للمجتمع الأمريكي، فالجهل المتبادل بالآخر يمثل تحدياً أكثر إلحاحاً..والسؤال هنا : أكثر إلحاحاً لمن ؟

هل تخسر أمريكا أم يخسر العرب من استمرار حالة الجهـل والعداء الحضاري؟ .. قد لا يرى صانعو الـسياسة الخارجيـة الأمريكية أي أثر مباشر يمس بلادهم، وأن مجتمعاتهم ليست في حاجة إلى إصلاح، بل إن المراجعة في حد ذاتها مرفوضة.

وقد يكون هذا المفهوم مقبولاً قبل أحداث سـبتمبر وفـق التصور القائل بأن العرب ليس باسـتطاعتهم عبـور النـهر للمجتمع الأمريكي وإحداث أدنى تأثير به، وأنهم ضحية تخلفهم وأسرى ثقافتهم الاستبدادية القمعية، لكن أحـداث سـبتمبر أحدثت دماراً في نظام الحقوق المدنية داخل المجتمع الأمريكـي واستلهمت الإدارة الأمريكية من التجربة العربية أنظمة الرقابة والمطاردة للمواطن الأمريكي وتـصنيف الأمـريكيين وفـق معتقداتهم الدينية وأصولهم العرقية وسقوطهم في قبضة الهـوس الأمني خصماً من رصيد الحريات.

نعم إنقاذ أمريكا يبدأ من سياسة خارجية أكثر عدلاً وأكثر نزاهة وحيادية، لا بإرسال المزيد من الجنود والمقاتلات والدعم

المالي لأنظمة استعمارية تريد أن تُسجَن أمريكا والعرب خلف جدارها العنصري.

إنقاذ أمريكا يبدأ أيضاً بإنهاء استثمار السلطويين العرب لحالة عداء الشارع العربي للنموذج الإصلاحي الأمريكي وتصويره كمخطط استعماري يستهدف تطويع الأنظمة والشعوب وتحويلهم إلى عملاء ،تماماً كما يجري في العراق.

إنقاذ أمريكا يبدأ من تقليص مخصصات تمويل الاغتيالات والانقلابات والتدخل في الشئون الداخلية للدول والمجتمعات في ضوء فشل مبدأ تصدير الديمقراطية الذي اعتمدته في العراق وأفغانستان كما فشل مبدأ تصدير الثورة الإيرانية قبل ذلك بسنوات.

الطُعم الأمريكي

بدت زيارة كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية للمنطقة وكأنها جولة تعاطي إجباري للطُعم الأمريكي — المسمي مؤتمر الخريف للسلام — طوعاً أو كرهاً.. فمن قبل دور الفريسة في أجندة المؤتمر فهو مرحب به، وأما من كشفت له بصيرته أن القطة الوديعة ليست سوى أسد يهوذا ينتظر التهامه على عجل فسوف يُسحب من "قفاه" إلى مائدة المؤتمر لابتلاع الطعم الذي يُكرس ببساطة سيناريو الفريسة والصياد ،الدائر منذ عشرات السنين بمساندة قوى استعمارية، بدأت إنجليزية وتحولت الآن لتصبح أمريكية. وبهذا المعنى فأمريكا لن تكون وسيطاً نزيهاً للسلام في أي يوم من الأيام .. فهي ليست مؤهلة لذلك سواء اليوم أو غداً، كما أنها لا تؤمن بالحقوق العربية، ولن تجرؤ على إظهار أي قدر من الاحترام لتلك الحقوق.. فضلاً عن أنها عودتنا دائما على مدى إدارات أمريكية متعاقبة على التلويح بالفتات في عامها الرئاسي الأخير لقطعان الخراف العرب..هذا هو ما نحن عليه من المنظور الأمريكي سواء اعترفنا بذلك أو أنكرناه ،وأي خروف تسول له نفسه استخدام قرونه فسوف تكسر ويذبح ويلقى لأسد يهوذا كما حدث في العراق. وبتلك المقاييس فالمؤتمر من وجهة

النظر الأمريكية والإسرائيلية سيكون ناجحاً إلى أبعد مـــدى، وذلك للاعتبارات التالية :

أولاً :ليس هناك إطار مرجعي حاكم لأجندة المـــؤتمر، وإن وجدت له أجندة فقرارات كلٍ من مجلس الأمن والأمم المتحدة ومبادئ مؤتمر السلام ومبادرة السلام العربية مستبعدة، باستثناء الرؤية الهلامية للرئيس الأمريكي جورج بوش بشأن إقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس بجانب دولة إسرائيل.

ثانياً: ليس هناك إطار زمني محدد لتنفيذ ما يتفق عليه مـــن قرارات هلامية.

ثالثاً: ليس هناك ضوابط أو آليات لتنفيذ خطـــة الـــسلام الهلامية المقررة.

رابعاً: ليس هناك قوى دولية أخرى ضـــامنة مثـــل الأمـــم المتحدة أو مجلس الأمن، والحَكَم والخصم واحد ،وهو الولايات المتحدة الأمريكية، والمرجعية الوحيدة هي رسالة الـــضمانات الشهيرة والمخفية، التي كان قد بعثها الرئيس بوش إلى شـــارون في عام٢٠٠٤ و بها تعهدات أمريكية بعدم عـــودة اللاجـــئين، وبعدم العودة إلي حدود ما قبل عدوان١٩٦٧ وعدم التفـــريط في القدس عاصمة إسرائيل الأبدية!. إذاً ســـقف الطموحـــات الإسرائيلية من المؤتمر ينحصر في اجتماع للعلاقـــات العامـــة

،ولتدشين الاعتراف العربي الرسمي بإسرائيل وتوسيع التطبيع العربي الإسرائيلي عن طريق مشاركة عربية أوسع في المؤتمر، ومن دول لم تشارك من قبل في لقاءات تحضرها إسرائيل، مقابل اتفاق عام يمهد لمفاوضات غير محددة المدة مع الفلسطينيين حول التسوية النهائية. أما من يفكر في رفض المشاركة والحضور فقد أُرسلت إليه قبل جولة رايس رسالة تهديد ووعيد محددة في مذكرات "ويسلي كلارك" القائد السابق لحلف شمال الأطلنطي التي صدرت بعنوان "وقت للقيادة من أجل الواجب والشرف والوطن" مفادها أن إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش وضعت إستراتيجية عسكرية منذ وصولها إلي السلطة عام ٢٠٠٠ ،تتضمن شن حروب ضد سبع دول في الشرق الأوسط منها العراق، لتغيير نظم الحكم القائمة فيها وفي سبيلها ،للتدخل في سبع دول خلال خمسة أعوام تبدأ بالعراق وسوريا وتنتهي بإيران، ثم تحول الأمر من مجرد رسالة تهديد إلى إجراءات بقرار بمجلس الشيوخ الأمريكي الذي يدعو الإدارة الأمريكية إلى تقسيم الدولة العراقية إلى ثلاث دويلات. والسؤال هو : ماذا يجب أن نرجو من طاعة السيد الأمريكي إذا كانت جوائز المسابقة تذهب بالكامل إلى إسرائيل ولن نجد حتى الفتات، والمؤتمر والمفاوضات ليسا سوى عودة إلى المربع صفر الذي اختفي هو الآخر.

سياسة كسب الوقت

المشهد السياسي في الشرق الأوسط يزداد تعقيداً في ثلاثة ملفات رئيسية تشترك جميعها في السعي لكسب الوقت دون إقرار للحلول، في الملف الإيراني يبدو الأمر وكأن إيران تفاوض نفسها، فالمفاعل النووي يُبنَى بأيدي الخبراء الروس، والمفاوضات تُجرَى مع روسيا التي التزمت أمام المجتمع الدولي بترويض النمر الإيراني وتقليم مخالبه النووية- وكله بثمنه طبعاً- فتخصيب اليورانيوم داخل روسيا قبل تزويد المفاعل النووي به ليس مجاناً، وبالتالي فتكلفة إنتاج الطاقة بالمفاعل الإيراني لن تكون اقتصادية ،كما أن ترك الأمر بالكامل لإيران تكلفته السياسية أعلى ويعجز لوبي إسرائيل عن تحملها، إذاً ما يجري هو محاولة لكسب الوقت من جانب إيران وربما روسيا بالإغراق في التفاوض والتفاوض حتى يبدأ التشغيل الفعلي, وربما في تلك الأثناء تأتي رياح تذهب بالمعارضين للبرنامج النووي الإيراني.

أما الملف الثاني والذي نجد أيضاً روسيا تتفاعل معه بشكل غير مسبوق، هو صعود حماس لتولى السلطة الفلسطينية ومع دعوة روسيا لقادة حماس للتباحث في موسكو نجدها تمارس أيضاً لعبة كسب الوقت باستباقها المحادثات مع روسيا ورفضها

الاعتراف بدولة إسرائيل، ورغم ما يبدو عليه الأمر من صيغة تشنج فالحقيقة أن حماس تلتزم منهج المفاوض الإسرائيلي، وهو التشدد إلى أقصى مدى ثم التراجع خطوة خطوة إلى الخلف، ولا أظن أن حماس ستنجح إذا لم تجد من تستند إليه من قوى دولية في تراجعها إلى الخلف أو إلى نقاط الالتقاء في المفاوضات مع إسرائيل، باعتبار أن التفاوض هو الخيار الوحيد المتاح لكل الأطراف.

كما أن روسيا لن تخرج عن الإجماع الدولي وتقبل برنامج حماس للتصعيد العسكري مع إسرائيل ،إذا فرضنا أن هذا الخيار مطروح للبحث في ضوء ما حققته حماس بالفعل، وهو ٦٠ هجوماً انتحارياً منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي.

ولا يجب أن نغفل أيضاً أن التحركات الروسية تأتي في إطار السياسة الخارجية لرئيس الوزراء "بوتين" القائمة على أدوار مستقلة وفق المصالح والرؤية الروسية إزاء قضايا دولية حادة، تختلف عن الرؤية الغربية لها، وترفض تهميشها والقبول بمكانة الشقيق الأصغر، كما أرادت لها واشنطن.

المشهد الثالث فاقت دمويته كل تصور ووتيرته تتصاعد كل يوم لتأخذ صورة الحرب الدينية ،وهي خطوة تستكمل بها عملية تفتيت العراق إلى دويلات سنية وشيعية وكردية و..و..إلى نهاية القائمة، والمثير أن الكل ينظر إلى الكل على أنه

ميليشيا عميلة والجميع يتفق على أن وحدة العراق واستمراره كدولة موحدة يتعلق أساساً بتصفية جماعات الموت (الميليشيات) وإرسالها إلى مكانها الطبيعي وحضنها البيولوجي وهو (مزبلة التاريخ).

محصلة ذلك كله أن الحوار مرفوض، والإقصاء هو المنهج الوحيد السائد داخل العراق، والمناخ الاستعماري رابح في كل الأحوال من تجارة الموت والأسلحة ونهب الثروات البترولية ،وبالتالي فإن الرفض الأمريكي لمسودة قرار تُمهد لإنشاء مجلس دولي لحقوق الإنسان ليحل محل المفوضية المعنية بحقوق الإنسان يأتي في سياقه الطبيعي لخطط التقسيم الجارية في العراق، والتي تتنافى مع كل القيم الإنسانية، ولذلك فلا مانع من ممارسة سياسة كسب الوقت حتى تكتمل خطة تقسيم العراق.

دورة قذرة للتاريخ

الظواهر السياسية في أحيان كثيرة تتشابه مع الظواهر الكونية في ندرة تكرارها على مدى دورات زمنية متباعدة . . بل موغلة في القدم مثل زيارات المذنبات.

والأزمات السياسية الدولية قد تكون فرصة لا تعوض لتأمل خيوط العنكبوت وهي تُنسَج بحرفية شديدة حول دولة ما أو نظام سياسي لاصطياده والتهامه بالكامل، مثلما حدث في أفغانستان في زمن الاتحاد السوفيتي أو في زمن الهيمنة الأمريكية وكما يجرى الآن في العراق.. إلا أنه منذ انهيار تركيبة التوازن الدولي وظاهرة خيوط العنكبوت تتكرر بمعدلات دوران أسرع، ومع احتلال العراق بدأت الولايات المتحدة تضخ المزيد من خيوط العنكبوت لتحاصر بها دول المنطقة تحت مسميات فوضوية مرتجلة . . فمقاومة الاحتلال في العراق دفاعاً عن الأرض أصبحت إرهاباً، وضرب العلاقات السورية اللبنانية أصبح تحريراً للبنان وحفاظاً على سيادتها، والوساطة المصرية والمبادرة السعودية يصفها ديفيد وولش مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية بأنها صفقة تهدد سيادة لبنان ،وينسى وولش أو يتناسى أن سيادة لبنان قد انتهكت بفعل الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان والقصف الجوي المنظم لبيروت بواسطة الطيران الإسرائيلي، ولم نجد وقتها الولايات المتحدة تتحدث عن سيادة لبنان أو نشاهد زيارات تعسة لمسئولين أمريكيين للأراضي

اللبنانية لتقديم التعازي أو الاعتذارات عن استخدام المعونات العسكرية الأمريكية لإسرائيل في انتهاك سيادة لبنان!!.

فمنذ صدور توقيع الرئيس الأمريكي لقانون محاسبة سوريا في ديسمبر ٢٠٠٣ والتحضيرات جارية لتحصيل فاتورة تفجير مبنى السفارة الأمريكية مرتان في لبنان، وخطف أمريكيين خلال سنوات الحرب الأهلية ،وتحديد المسئولين عن تفجير مقر المارينز في بيروت، هذا فيما يخص الأجندة الأمريكية بشأن سوريا، أما الأجندة الإسرائيلية فهي صورة طبق الأصل مما يجري في العراق!

التأمل الثاني للظواهر السياسية الدولية الراهنة يرتبط بالموقف الدولي من الأزمة الإيرانية النووية،وتحديداً الموقف الروسي/الصيني . . فكلما أثارت أمريكا وأوربا نزاعاً دولياً في منطقة الشرق الأوسط أعلنتا بشكل استباقي لأية تكهنات بأنهما لا يعتزمان استخدام حق الفيتو في مجلس الأمن.

فهما غير معنيتان حالياً بالسياسة ،وتمارسان فقط الانتهازية السياسية عن بُعد خشية إشعال حرب باردة مع الولايات المتحدة الأمريكية والمعسكر الغربي، تسحق نموهما الاقتصادي الذي بلغت مؤشراته لدى الصين عن العام الماضي أكثر من ١٠٠ مليار دولار فائض في الميزان التجاري، والسوق الأمريكية هي الهدف الرئيسي للتجارة الصينية تليها الأوروبية ثم الآسيوية.

إلا أن الوجه الآخر للانتهازية السياسية الروسية الصينية يرى ضرورة استهلاك الولايات المتحدة وأوروبا في معارك مختلفة وإنهاك قواهما في ساحات حرب مفتوحة الاحتمالات, بل ودخولهما في مواجهات عقائدية مع تيارات الإسلام المختلفة من شيعة وسنة.

وخطورة ما نشاهد من معالجات ومواقف سياسية في ملفات الأزمة الإيرانية واللبنانية السورية أنهما تثيران ذكريات تاريخية مؤلمة عن مؤامرة القوى الاستعمارية لتقسيم مناطق النفوذ في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر فيما بينها بموجب "الاتفاق الودي"، في دورة قذرة أخرى للتاريخ.

فتّش عن النفط

تروي الأسطورة قصة الصراع والدسائس والمؤامرات بين حيوانات الغابة، وأحياناً ما يكون الثور الأسود هو الضحية، وفي أحيان أخرى يكون الثور الأبيض تبعاً لحركة التاريخ والجغرافيا، فهي أولاً وأخيراً قصة لا يفترض فيها توثيق الأسماء والشخوص والألوان، لكننا عفواً اليوم سوف نستخدم الألوان لأن الثور الجديد المقرر ذبحه هو السودان ذو البشرة السمراء..فالمحكمة الجنائية الدولية التي أُنشئت عام ٢٠٠٢ كأول محكمة دائمة في العالم لجرائم الحرب مارست الصمت لسنوات طوال وفي مناسبات عديدة إزاء جرائم فظيعة ارتكبت في أنحاء مختلفة من العالم، لكنها دوماً تمتنع عن ممارسة الصمت إذا ما كان الثور الأسود عربي المنشأ مثل الذي كان في العراق، واقتنع جيرانه وأصدقاؤه أن التخلص منه سيُعيد الاستقرار بالمنطقة فإذا بأبواب الجحيم تفتح على مصراعيها، ولا أحد يجرؤ أن يحاكم بوش ومساعديه وأعوانه، رغم إقرار الأمم المتحدة بأن القوات الأمريكية هي قوات احتلال، ورغم الفظائع والانتهاكات التي ارتكبتها قوات الاحتلال من قتل وتعذيب واغتصاب، فما هي الحصانة التي تمنع تلك المحكمة الجنائية الدولية من القصاص للضحايا؟ وما هو نوع العدالة الدولية السارية؟ هل تحكمها الجينات والأعراق ولون البشرة؟ أم هي أسيرة الاستثناءات والمحاذير والشروط الأمريكية؟ هل

يجوز محاكمة رئيس أمريكي أمامها أو رئيس وزراء بريطاني سابق متواطئ، أو إيطالي متحالف؟هل يجوز اعتقال مجرمي الحرب من مسئولي الحكومة الإسرائيلية؟ أتصور أن الإجابة معروفة في أذهان الجميع وهي استحالة أن يتم ذلك؟.. الشق الثاني من المعادلة يرى أن الانضمام لأية منظمات أو اتفاقيات ومواثيق دولية ينبغي بالأساس أن يحقق مصالح أطرافها وليس مصلحة طرف على حساب الآخر، وبالتالي ليس هناك معنى لانضمام العالم العربي والإسلامي والإفريقي إلى اتفاقيات أو منظمات أو معاهدات ومواثيق تتحول تدريجياً إلى أداة لإرهاب الدول الصغيرة ولفرض هيمنة الدول الكبرى، ينبغي أن نمتنع عن الاندماج في حالة الإسهال التشريعي التي أصابت التنظيم الدولي منذ أحداث سبتمبر، حتى لا نتحول الواحد تلو الآخر إلى ثيران سوداء وبيضاء وأن تلتزم كل دولة بالحصول على موافقة جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي قبل أي توقيع أو انضمام لمعاهدة دولية، وإن لم تلتزم فليس لها الحق في اللجوء إلى الجامعة العربية أو منظمة المؤتمر الإسلامي أو منظمة الوحدة الإفريقية طلباً للعون والمساندة.. الشق الثالث والأخير من المعادلة يفرض على التنظيمات العربية والإسلامية والإفريقية قيادة تحرك دولي مضاد لمراجعة العضوية بكل المعاهدات والمنظمات والهيئات الدولية التي قد تشكل تهديداً لأمن واستقرار الدول العربية والإسلامية والأفريقية، ليتم في مرحلة لاحقة تنظيم انسحاب جماعي منها تدريجي تصاعدي.، وإلى أن

نقرر ممارسة الرجولة، وكيفية، وتوقيت ممارستها فلنمتنع عن الاجتماعات في الجامعة العربية وإصـــدار بيانـــات التـــسكين والخنوع والإذلال التي لم تعد تكفي لتفريغ شحنات الغـــضب لدى الشارع العربي والإسلامي.. ولا يجب أن يفسر ذلك بأنه مباركة لأي عمل إجرامي تحت شعار مزيف لمعـــنى الحـــديث الشريف "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، بقدر ما هي محاولـــة لإعادة التوازن المفقود في العلاقات الدولية، ليس من المقبـــول التستر أو تبرير أي عمل إجرامي في دارفور أو غيرهـــا، لكنـــه تساؤل مشروع عن نوعية العدالة الدولية المتخصصة في الشئون العربية دون غيرها من ملفات الإجرام الإسرائيلي والأمريكي، وبشرط توافر آبار النفط لديها.

ثاني مرة .. فتش عن النفط ! !

في مطلع عام ٢٠٠٨ خرجت علينا جمهورية جورجيـــا في آسيا الوسطى تنفي ما رددته وسائل إعلام إسرائيلية عن تقديم قواعدها العسكرية للولايات المتحدة الأمريكيـــة، إذا قـــررت واشنطن إنزال ضربة بإيران.

وهو التقرير الذي روجت له صحيفة "جيروزليم بوســـت" الإسرائيلية مؤخراً أن واشنطن طلبت من تلبيسي النظر بإمكانية نشر قوات أمريكية في أراضي جورجيا لتحضيرها لإنزال ضربة بإيران.

وإذا سلمنا بأن إسرائيل هي الولاية الأمريكية الـــ٥٣ فلابد أن نصدق الصحيفة الإسرائيلية ،خاصة وأن الأنباء كانت قـــد ترددت لأول مرة في نهاية ٢٠٠٤ عن إجراء أمريكا مباحثات مع جورجيا وأذربيجان لإقامة حلف عسكري.

لكن الأمر ترجع بداياته إلى ما يسمى بالحملة على الإرهاب الدولي في أفغانستان ،والتي أصبحت ذريعـــة لـــبعض الـــدول السوفيتية السابقة لزيادة التعاون العـــسكري الـــسياسي مـــع الولايات المتحدة وحلف الناتو، وتحولت إلى ســـتار لتغلغـــل إسرائيل - التي ترتبط بعلاقات إستراتيجية مع تركيـــا- علـــى الخط في منطقة القوقاز تحت إشراف الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي الذي يزحف تدريجياً نحـــو الحـــدود الروســـية

،خاصة في ظل دعوات سابقة من باكو وتبليسي باستضافة قواعد للناتو في أراضيهما. إلا أن لعبة القواعد العسكرية تخفي وراءها دوماً هوساً أمريكياً بتأمين تدفقات النفط والغاز فبعد صراع دام أكثر من ثلاثة عشر عاماً من الاحتدام والجدل في منطقة آسيا الوسطى، وبالتحديد في منطقة بحر قزوين، قامت الولايات المتحدة الأمريكية وأذربيجان وجورجيا وتركيا في مايو من العام الماضي، بتدشين مشروع خط أنابيب نفط (باكو - تبليسى - جيهان) الممتد من العاصمة الأذربيجانية باكو، مروراً بالعاصمة تبليسى في جورجيا، ووصولاً إلى ميناء جيهان التركي عند منطقة الإسكندرونة المطلة على البحر المتوسط ومنه إلى الغرب، متجاوزاً بذلك مضيقي البوسفور والدردنيل، واستغرق بناء هذا الخط ثلاث سنوات، وسيسمح الأنبوب لأذربيجان بمضاعفة إنتاجها من النفط بحوالي ثلاث مرات بعد خمس سنوات، وبقوة ضخ تبلغ حوالي مليون برميل يومياً، على أن أقصى ما يمكن أن تنتجه حقول البترول بعد عدة أعوام من التنقيب هو ٣,٥ مليون برميل يومياً بعد عشر أعوام، وأضعف الاحتمالات تتحدث عن ١,٥ مليون برميل في اليوم. وقد شارك في مد خط باكو - جيهان، كونسورتيوم من الشركات الغربية تقوده شركة (بريتيش بتروليوم) البريطانية العملاقة، لتصبح بذلك حكومة أذربيجان المستفيد الأكبر من هذا المشروع، بصفتها الدولة المصدرة للنفط، وستحصل على نحو ٥٠ مليار دولار من المشروع خلال ال٢٠ عاماً المقبلة على

أساس ٢٥ دولاراً للبرميل، بينما تبلغ حصة تركيا من عائدات المرور ٢,٥ مليار دولار، وجورجيا نحو ٦٠٠ مليون دولار.

ومن هنا أصبح الوجود الأمريكي في مواجهة مباشرة مع إيران وروسيا، حيث حققت الولايات المتحدة الأمريكية أهدافها الرامية إلى منع مرور خط الأنابيب عبر أراضي إيران وروسيا، مما يحد من الاعتماد الحالي على نفط الخليج وروسيا وإيران، أو حتى منطقة الشرق الأوسط.

وتعتبر الولايات المتحدة خط أنابيب باكو - تبليسى - جيهان طوق النجاة للهروب من الاعتماد الغربي على نفط الخليج، وإنهاء للسيطرة الروسية والإيرانية الطويلة على إمدادات النفط القادم من بحر قزوين، وبالتالي إضعاف نفوذهما الاقتصادي والسياسي في المنطقة.. ومن ناحية أخرى، لعبت السياسة الأمريكية دوراً رئيسياً في جعل هذا الخط يسلك هذا الطريق بدلاً من بلوغ ميناء نوروسيسك الروسي المطل على البحر الأسود، أو السواحل الإيرانية الخليجية الأقصر طولاً، والتي تلبي الطلب الآسيوي أيضاً، لكن الضغوط الأمريكية لعبت دورها في هذا المجال، ورضخت الشركات الغربية لها رغم أن التكلفة كان يمكن أن تكون أدنى بكثير من مد الخط عبر خط باكو - تبليسى — جيهان، ثم أن هناك هدفاً آخر لعله الأكثر أهمية، حيث أن أي تدمير لنقطة ما في الخط سوف يكون عذراً مقبولاً لدى حلف شمال الأطلنطي للتدخل عسكرياً بحجة الدفاع عنه، وهو ما يمثل تهديداً عسكرياً مباشراً

لكل من روسيا وإيران.. إذاً اللعبة هي السنفط مـن جديـد، وستبقى دوماً طالما رأت الولايات المتحدة أنه أثمن من الـدماء، وطالما ظل ظمؤها للنفط لا يرتوي إلا بالدماء.

المريض مات

هل هناك ارتباط وثيق بين ازدهار صناعة النفط وصناعة الموت؟ أم أنهما مسمى لشيء واحد ؟!

الشواهد تؤكد أن إجابة هذا السؤال تكمن في الكشف عن مدى الاستفادة الأمريكية الحقيقية والمباشرة من الحرب على لبنان، وهي وفق ما سربته تقارير صناعة النفط تنحصر في تأمين خط أنابيب البترول الإستراتيجي الذي يبدأ من أذربيجان ثم جورجيا ثم تركيا، وتحديداً من (باكو ـــ تبليسي ـــ جيهان) ويمر في البحر المتوسط متاخماً للحدود السورية البحرية والحدود اللبنانية ووصولاً إلى ميناء حيفا ،ويقوم بنقل مليون برميل من البترول من بحر قزوين إلى شرق البحر المتوسط ، والمياه الفائضة في تركيا إلى داخل إسرائيل إلى ميناء إيلات على البحر الأحمر لتغذية أسواق الشرق الأقصى ،وبالتالي فإن المقاومة في أفغانستان والعراق ولبنان تمثل تهديداً مباشراً لكل تلك الأحلام الأمريكية الإسرائيلية التركية في السيطرة على مصادر الطاقة والمياه. من أيضاً المستفيد ؟! شركات السلاح الأمريكي ومَن وراؤها في الإدارة الأمريكية وهو بالطبع نائب الرئيس ديك تشيني.

من الخاسرون إذاً؟ أولهم إسرائيل لأنها بدأت بالعملية العسكرية وشرعت في القتل ،ولكن لحساب آخرين ولأجندة عمل تصورت أنها هي.التي وضعتها، بينما الحقيقة ذكرتها

صحيفة "معا ريف" في سياق خبر عن اتهام ضباط إسرائيليين وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس بأنها وراء توريط إسرائيل في توسيع الهجوم البري الإسرائيلي على لبنان.

وأشارت إلى أن ضباطاً كباراً أعربوا عن قناعتهم بأن قرار المجلس توسيع الحرب البرية في جنوب لبنان جاء بخلاف رغبة إسرائيل، وأن رايس هي التي اتصلت مرات عدة برئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت وطالبته بأن يواصل الحرب، رغم قناعة هيئة الأركان بأن الخسائر ستكون فادحة علماً بأن ١٥ جندياً إسرائيلياً كانوا قد قتلوا يوم صدور القرار وأصيب العشرات.

لندن أيضاً كانت علي موعد لدفع ثمن التواطؤ ولكنها إن صدقت ولم تفبرك قصة الطائرات المفخخة فستكون قد نجحت في إنقاذ رأسها مؤقتاً لأنه لازال هناك خمسة من المشتبه بهم هاربين وربما يكون هناك خلايا غيرها مستعدة لتنفيذ خطط أخرى بديلة.. ويبقى أخيراً لبنان الذي لعب دور الفريسة بنجاح منذ أن سمح لخلافاته السياسية بإضعاف جبهته الداخلية في اللحظات الأولى للحرب، وعندما بدأ في تداركها كان لبنان قد أصبح ركاماً.. البعض يكرر أخطاءه ولا يستفيد من لحظات ضعفه أو حتى قوته؛ لم يعد هناك لبنان لإنقاذه بقمة عربية طارئة، ومعنى ذلك أن القمة التي جاءت متأخرة للغاية كان الهدف منها فقط إنقاذ إسرائيل من ثأر حزب الله وإنقاذ لندن وواشنطن من ثأر التنظيمات الإرهابية قاعدية أو

ظواهرية، أما لبنان فلنقرأ له الفاتحة .. أكرر .. القمة العربيــة كان يجب أن تبحث فقط عن مخرج مــشرف لإســرائيل لأن المريض مات، كما أن مجلس الأمن يجب أن يركز في بنوده على تأبين الشعب اللبناني في ذكرى الأربعين، وذلك إذا تمكن مـــن الانعقاد في موعد مناسب من احتفالية التأبين ،أما إذا عجــز عن ذلك فليكتفِ بتوجيه الشكر إلى إسرائيل على جهودها في تقليص التضخم في أعداد الدول الأعضاء بالأمم المتحدة ضمن خطة إصلاح كوفي عنان للمنظمة الدولية.. أما دموع السنيورة أو نحيب نبيه بري فقد كانت معبرة عن لحظات الموت الأخيرة للشعب اللبناني ،وهي اللمسة الإنسانية الحقيقية الوحيدة الـــتي جاءت في التوقيت المناسب متزامنة مع مراسم الدفن في القمـــة العربية.

قراءات مسمومة

ترتكز السياسة في صناعتها على توليفة دقيقة من أعقد ما قدمه العقل البشري لفن صناعة الأكاذيب .. والشرفاء وحدهم ينأون بأنفسهم عن لحظات الضعف النفسي ،ذلك المرض العضال الذي يصيب السياسيين فلا يبرأون منه سوى بكارثة.

وفق هذا المنهج تُجرى حالياً عملية التحضير على قدم وساق لافتتاح حرب الخليج الرابعة على شرف إيران هذه المرة.. فانهيار التوازن الدقيق الذي قامت عليه سياسة الاحتواء الأمريكية على مدى عقود يجري استبدالها منذ احتلال العراق بسياسة التدمير والإفناء.. وهناك من يدق طبول الحرب ويبث بيانات الخداع على مدى ساعات اليوم أملاً في إحداث الاشتعال، لذا فالأهم من القراءة أن نكتشف الخداع والتضليل في المواقف.

من المؤكد أن هناك أسباب خفية لا تمت للشعارات الدينية بصلة تقف وراء سعي آيات الله إلى تفتيت الأنظمة السنية في المنطقة وهي:

سبب وطني يكمن في أن الشعب الإيراني لم ينسَ قط ولم يسامح تقديم السنة دعمهم وربما تحريضهم أيضاً لحرب صدام الدموية ضدهم، وقد استلزم الأمر عقوداً كي ينتقم الإيرانيون من أمريكا لخلعها حكومة محمد مصدق القومية ،حيث قتلوا

المئات من جنود البحرية وخطفوا وأعـــدموا عمـــلاء وكالـــة الاستخبارات المركزية بطريقة وحـــشية وقـــاموا باحتجـــاز الدبلوماسيين الأمريكيين وإهانتهم ،وهم سيقومون بالشيء ذاته وربما أسوء منه للدول العربية السنية حينما تحين لهم الفرصة.

سبب اقتصادي طفا إلى سطح المجتمع بعد أن حطمت إيران قطاعها الزراعي المزدهر من خلال ضرب بالتحكم بالأسعار - الذي أفاد الطبقات الوسطى والدنيا- عرض الحائط،وقد اضطر آيات الله إلى إنفاق ثروة على نظام رفاهية اجتمـــاعي يـــدعم ملايين المزارعين الذين هاجروا إلى المدن. وأدى هذا النظام إلى مضاعفة عدد السكان مما شكل عبئاً ضـــخماً علـــى الخزانـــة الوطنية.

والنتيجة مطالبة الإيرانيين بأسعار مرتفعة للنفط إدراكاً منهم لدوره في بقائهم بالحكم ،وتلاشي هذا العائد سيضع النظام في لحظة اختبار، إذ كيف سيتعامل نظام آيات الله المعتمد علـــى نظام الرفاهية وعلى الجيش مع انخفاض عوائد الـــنفط بـــشكل خطير؟.

الإجابة: لن يكون هناك خيـــار آخـــر ســـوى الإجـــراء العسكري.. فالتحكم في أسعار النفط يقف وراء اســـتعدادات إيران العسكرية للتحكم في طرق الملاحة البحرية في الخليج من خلال التهديد بإيقاف نقل النفط أو حـــرق حقـــول الـــنفط الخليجية ومرافق التحميل الضعيفة، وبذلك تقحم الغـــرب في

أزمة اقتصادية مميتة، وحينئذ ستتمكن إيران من تحويل ثــروات هائلة ستضعف اقتصاد الغرب تدريجيا حتى تقضي عليــه ،ممــا يسهل السيادة الشيعية السلمية، ويستثمر الإيرانيون في الوقــت ذاته الكره العربي للغرب وإسرائيل، ليس فقط لتشتيت الانتباه عن أهدافهم النهائية، ولكن كي يجمعوا الجهاد تحــت رايــة الشيعة كما حدث في العراق. ومدخلهم إلى ذلــك ســيكون برعاية الإرهاب العالمي وتقويض أية اتفاقية ممكنة في القــضية الفلسطينية مما يساعد الإيرانيين في تأجيج وتــشتيت جمــوع العرب السنية.

ويأمل آيات الله أنه حينما ينفجــر الغــضب الإســلامي سيجرف معه الأنظمة السنية الفاسدة. ويشعر الجهاديون الشيعة أن وقوع مكة والمدينة تحت سيطرة السنة أمر شنيع ويجــب أن يحطموا الاحــتلال الــسعودي وأن يحــل مكانــه الحكــم الشيعي..تلك هي الطبخة المسمومة التي نقرؤها بين حين وآخر مع تبادل الأدوار، فأحياناً ما يكون الهجوم على الأنظمة السنية لــصالح الــشيعية.. دانييــل دورون الكاتــب في صــحيفة Jerusalem Post أحد أبرع العازفين على أوتار الفتنــة ،وهو الذي قدم لنا العزف المنفرد السابق بحق إيران .. المعــنى المسموم..أن إسرائيل تراهن على استمرار بقائها بل وجودهــا في المنطقة باشتعال الحريق السني الشيعي والقتال تحت أســتار الكعبة.. أما التشنج الإيراني الحنجري الدائر الآن فهــو يــدفع بالمنطقة إلى جهنم جديدة وكأنهم يقرأون من كف إسرائيل.

رحلة.. وحظ سعيد

المشهد الإيراني يزداد تعقيداً والولايات المتحـــدة تـــسلمت دعوة إيران على رأس صاروخ مائي للقيام بعمـــل عـــسكري ولكن على طريقة جرب حظك "يا صابت يا اثـــنين عـــور". والمؤكد أن قادة الحرب في واشنطن لا يرون في إيـــران نزهـــة عسكرية بعد أن تصوروا العراق مجرد حدائق بابل فإذا بمقاومة تحرق الأخضر واليابس ، وإذا بالحديث يتدفق من بين أنيـــاب كونداليزا رايس عن آلاف الأخطاء الإستراتيجية، ولكن كبرياء رامسفيلد يدفعه إلى المضي قدماً نحو مزيد من الهلاك.

فرنسا أيضاً أرسلت إشعار اســتلامها الـــدعوة الإيرانيـــة وجاءت الموافقة الفرنسية على لسان رئيسها جاك شيراك الذي هدد باستخدام بلاده السلاح النووي ضد أية دولة تدعم مـــا وصفه بالهجمات الإرهابية في إشارة واضحة إلى إيران؛ بريطانيا بالطبع انضمت إلى قائمة المدعوين، وفي تصريح لرئيس الوزراء البريطاني توني بلير أكد أنه يشاطر الرئيس الفرنسي جاك شيراك مخاوفه من "الدول المارقة"، التي تطور قدراتها النووية بما يخالف واجباتها الدولية، أما إسرائيل فلن تترك الفرصة تفلـــت ولـــن تسمح لأي من الأطراف بالتراجع ،وعلى الجميع أن يـــستعد للموت دفاعاً عن نجمة داوود.

الحرب بدأت بالفعل منذ إطـــلاق إيـــران في٢٧ أكتـــوبر ٢٠٠٥ بمساعدة روسيا أول قمـــر اصـــطناعي مـــن ميـــدان

بليستسك للتحليق الفضائي بصاروخ حامـــل مـــن طـــراز " كوزموس ــ ٣٤ " تابع لوزارة الدفاع الروسية ، وســـارعت إسرائيل وقتها للتأكيد على وجود أغراض عـــسكرية للقمـــر الاصطناعي الإيراني، وربما بدأت قبل ذلـــك لحظـــة وصـــول أحمدي نجاد إلى الحكم في إيران.

الدعوة الإيرانية جاءت في توقيت ماكر فاقترنت على أرض الواقع بالمباحثات مع الولايات المتحدة الأمريكية بشأن الوضع في العراق مبطنة برغبة إيرانية في انتهاز هذه الفرصـــة لتهدئـــة الأجواء بين إيران وأمريكا ،ومحاولـــة التوصـــل إلى حلـــول للمشكلات القائمة بين البلدين لاسيما الأزمة النووية، وخلاف ما أعلنه وزير الخارجية الإيراني "منوشهر متكي"، بأن بلاده لا تتطلع إلى تحقيق مكاسب خاصة من هذه المباحثـــات ســـوى مصلحة العراق، فثمة دعوات داخل دوائر الحكـــم الإيـــراني تطالب بضرورة انتهاز هذه الفرصة للمساومة مـــع الحكومـــة الأمريكية بشأن الملف النووي الإيراني، وترى أنه ينبغي علـــى إيران استغلال هذه المباحثات للحصول على امتيـــازات مـــن أمريكا بشأن أزمتها النووية مقابل المساعدة في حل المـــشكلة العراقية ،وبالتالي الحد من معاناة الأمريكيين هناك، وعلى قـــدر ما يعمل الأمريكيون للتخفيف من ضغوطهم بـــشأن الملـــف النووي الإيراني.

الصفقة كما تراها إيران لن تقبلها إسرائيل واللوبي المـــساند لها وقد عبرت عن ذلك مجلة"تايم" التي أصرت علـــى تـــصوير

الحرب على إيران أنها نزهة عسكرية أمريكية ،فجاءت بتقارير عن خبراء عسكريين يعتقدون أن"نهاراً صاف ذا جو مـــشمس كاف تماماً للإجهاز على الدفاعات الجوية الإيرانية بـــصواريخ توماهوك التي تسير بهدي من الأقمار الصناعية، عندما تكـــون قاذفة B٢ مشغولة بقصف المواقع النووية الإيرانية بثمان قنابل تزن الواحدة منها ٤٥٠٠ باوند"، وما قالته"تـــايم"، يختلـــف بشكل واضح عن الذي تقوله مجلة "شبيجل" الألمانية في أحـــد تقاريرها حين تذكر أن المعلومات التي في حـــوزة المختـــصين بالشئون الأمنية تشير إلى أن طهران -كرد فعـــل في مواجهـــة الهجمة العسكرية- تقوم بإعداد المجاميع الإرهابية الدولية للقيام بعمليات إرهابية ضد الولايات المتحدة و حلفائهـــا، وهـــذه المجاميع سوف تصبح فعالة في مستقبل قريب ولهذا السبب فإن المجاميع المرتبطة بالجمهورية الإسلامية والتي تعتبر عناصر أمنيـــة في أرجاء العالم هي تحت مجهر الأجهزة الأمنية الدولية، ونحـــن من جانبنا نتمنى رحلة وحظاً سعيداً لكل الأطراف المتجهـــة في رحلتها إلى جهنم.

قُضي الأمر

استقبلت طهران "محمد البرادعي" بعبارة قُضي الأمر وانتهت إلى الأبد لغة المساعي الحميدة والدبلوماسية، فعلها الإيرانيون وخدعوا الأمريكيين باستغلال عامل الوقت، وإلهائهم بملف العراق والاستفادة من سنوات الاحتلال الثلاث للعراق، عمل خلالها الإيرانيون ليلاً ونهاراً لإنجاز برنامجهم النووي.

وبخروج ملف إيران من حقيبة البرادعي دخل إلى مجلس الأمن بدعوة وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس إلى اعتماد قرار بشأن إيران بموجب "الفصل السابع" لميثاق الأمم المتحدة الذي يجيز استخدام القوة.. لقد تم تضليل واشنطن وأجهزتها المخابراتية التي لا تقهر ،وتوريطها في العراق بتقارير مزيفة عن قدراته التسليحية النووية والكيماوية للتغطية على النشاط النووي الإيراني.

ويبدو أن كل التقارير والعملاء الذين استندت إليهم واشنطن في تحركها الآثم نحو المستنقع العراقي كان يرتكن إلى التقارير المرفوعة من شيعة العراق وعملاء إيران المدسوسين في صفوف العراقيين، والحقيقة أن الخطة نجحت وتم محو العراق تماماً من خريطة القوى الإقليمية لصالح إيران.

استطاعت إيران تضليل الأمريكان، وحتى نتائج الانتخابات الإيرانية التي لم يتوقعها أحد وكان يراهن عليها خصوم إيران

،يبدو أنها كانت معدة سلفاً باختيار رجل مثل "نجـاد" يمثـل المؤسسة الدينية المتطرفة لعلم الإيرانيين بقرب إنجاز برنـامجهم وحاجتهم إلى رجل يجيد المناورة السياسية المتشددة بدلاً مـن رافسنجاني أو خاتمي الذي كان ربما سيخضع للضغوط الأوربية والأمريكية ويرجئ المشروع، لتتفرغ بعدها أمريكا وإسـرائيل للتخلص من ملفاتهما العالقة، وأهمها تصفية المشروع النـووي الإيراني.

هذه المرة لن تخضع إيران لخبراء التفتيش في الأمم المتحـدة، أو أكاذيب وتلفيقـات أجهـزة الاسـتخبارات البريطانيـة والأمريكية ــ بداية التحضير للمواجهة ــ أو الإعداد لمرحلـة جديدة تنهي الرؤية السياسية الأحادية التي تفردت واشـنطن بتنفيذها للمنطقة والتي ستكون سبباً لهزائمهـا الـسياسية في المستقبل .

واشنطن لا تقرأ التاريخ ولا تستدعي من يقرؤه لها ،فالعدو التقليدي القادر على مواجهة روما كان الفرس بينما العـرب كانوا مجرد ترس في آلة الحرب تتخاطفه روما أحياناً وفـارس أحياناً أخرى، ولم يصبحوا كياناً إمبراطورياً إلا بالإسـلام، في حين أن إيران ظلت إمبراطورية متعددة الأعراق طوال سنوات وقرون، وبالتالي فإن الحرب لن تكون نزهة ،وربما لن تخـرج أمريكا من الخليج كما دخلته أول مرة بملابـسها العـسكرية الرسمية، فالسيناريوهات المطروحة اتفقت على استحالة شـن حرب شاملة ضد إيران على نمط الحرب التي شنتها الولايـات

المتحدة في أفغانستان عام ٢٠٠١، وضد العراق عـام ٢٠٠٣. بمعنى عدم الزج بقوات برية نظامية والاكتفاء بتوجيه ضـربات جوية وصاروخية ضد المنشآت النووية والصاروخية والعسكرية ذات الصبغة الإستراتيجية الحيوية، وذلك في شكل حملة جوية تستغرق أسابيع.

ويعتبر العائق الأول والرئيسي الذي يواجه المخططين هـو ضخامة عدد الأهداف التي ينبغي التعامل معهـا، لاسـيما في الضربة الافتتاحية، حيث يقدر عددها بحوالي ١٢٥ هدفاً إيرانياً ينبغي تدميرهم كدفعة أولى، وهو أمر من الصعب تحقيقه دون تكلفة عالية، بالإضافة إلى رد الفعل الإيراني وافتقاد إجماع دولي يتيح لواشنطن استخدام القوة العسكرية، وكلها صعوبات تنهي إمكانية تحقيقها في المستقبل المنظور.

المحصلة النهائية تؤكد أن الحسابات والمساعي الأمريكية بعد الحادي عشر من سبتمبر لتغيير أنظمة الحكم السنية في المنطقـة بأخرى شيعية -تحت دعاوى أن السنة هم وقود الإرهاب- قد نقلت الصراع إلى مستوى نووي بصعود نجم الشيعة، ولتصبح أحداث سبتمبر لهو أطفال مقارنة بما هو آت.

من يحاصر من؟!

يحدث هذا؟ العلم الأمريكي ذو النجوم والشرائط يرفرف في سماء طرابلس؟ يا ترى ما هو موقف أولئك "المساكين" من الأمريكيين الذين تعاملوا مع القذافي في السابق... منهم من مات ومنهم من لازال على قيد الحياة... من بينهم "بيللي كارتر" شقيق الرئيس الأمريكي السابق، و"إدوين ويلسون" عميل وكالة الاستخبارات المركزية CIA سي. آي. إيه. المسجون عشرين عاماً لتعامله مع القذافي، و"فرانك تيربيل"عميل استخبارات أمريكية سابق اختفى في بيروت وانقطع أثره، و"روبرت فيسك" عميل مزدوج ونصاب دولي...وغيرهم كثير من قدامى عملاء وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA وضباط القوات الخاصة بالجيش الأمريكي ومصرفيين ضالعين في الفساد... كلهم وضعوا مهاراتهم في خدمة عدو أمريكا معمر القذافي، ولكن عندما تمكنت منهم العدالة الأمريكية صدرت ضدهم أحكام قاسية.. هؤلاء جميعاً لابد أنهم الآن إما يتقلبون في قبورهم أو ـ إذا كانوا من الأحياء ـ يتقلبون فوق أسرة زنزاناتهم.

تساؤل طرحه فرانسو سودان، في مقاله المنشور بمجلة جون أفريك الفرنسية..وأجاب عنه، لكنه لم يقل الحقيقة كاملة لأنه لم يطرح السؤال كاملاً وهو: من يحاصر من بعد كل تلك السنوات؟ تحدث فقط عن التاريخ والأماكن والأشخاص لكنه

لم يذكر الحقائق وهي أن سياسة الحصار تضر جميع الأطـراف وأنها لا تسير في اتجاه واحد كما أراد لها التصور الغربي في كل تحركاته تجاه الشعوب الإسلامية والعربية، فمنذ عقود وسياسة الحصار تجتذب فقط بلدان عربية، فمرة ليبيا وأخرى العـراق وثالثة سوريا وربما إيران أيضاً ومصر ،وكل من لا يسير وفـق أهواء أوروبا وأمريكا فالويل والثبور وعظائم الأمور، والصدمة الحقيقية أن الحصار لم يثمر ولم يحقق نتائجه المرجوة والغـزو كما في العراق لم يحقق السلام في ربـوع بغـداد والتهديـد والوعيد لإيران سارع من عملية تخصيب اليورانيـوم وأدخـل المنطقة في سباق نووي.

ألا يستحق كل ذلك لحظـة تأمـل وإدراك أن الـسياسة الآنجلوأمريكية تسير نحو المجهول منذ اقترانها بالمصالح الإسرائيلية وانحصارها في البؤرة النفطية؟! هل من المتصور أن ترهن الأمـة الأمريكية بكل عقولها المفكرة وسبقها التكنولوجي مـستقبلها ببئر نفط أو جيتو إسرائيلي محكوم عليـه بالفنـاء التلقـائي والذوبان وسط هويات معقدة ومتشابكة؟!الولايات المتحـدة كانت تمتلك فرصة ذهبية قبل أحداث سبتمبر لغـزو العـالم بثقافتها وحضورها الديمقراطي الملهم لأجيال عديدة وتنصيبها نفسها كراعية لحقوق الإنسان وحرياتـه الأساسـية ،لكنـها أضاعتها وهي في قمة نضوجها عندما ألقت بعرض الحائط كل تلك النجاحات من أجل الجيتو الإسرائيلي وبئر النفط ،وهي لا تمانع في الإغراق مرة أخرى ،طالما أن أولمرت يطلب منها ذلك

في زيارته الأخيرة لواشنطن.. كم هو محزن أن تكـــرر الأمـــم العظيمة أخطاءها من جديد وهي تقرأ التاريخ في اتجاه واحـــد ونحو قبلة واحدة هي تل آبيب لتكتشف في النهاية أنها كانـــت تحاصر ذاتها قبل الآخرين، وتدفع ثمن تراجعها مهانـــة وإذلالاً لقيمها الديمقراطية ودعواتها الجوفاء للـــدفاع عـــن الحريـــات الأساسية ،وتتهم أتباعها بأنهم لم يساعدوا أنفسهم ،بينما هـــي تخلت عنهم في أول الطريق وقبضت ثمنهم نفطاً وقبلات مـــن أولمرت.

الفصل الثاني..

أدوات التغلغل فسدة ومفسدون ! !

لن يقرأ التاريخ!!

استيقظ ذات صباح ليجد نفسه ممتطياً ماسورة دبابة أمريكية حملته من أقصى الأرض حيث منفاه الإجباري إلى كرسي الحكم في بلد عربي منهوب.. لم تصل به أحلامه في يوم من الأيام إلى أكثر من أن يرى الديكتاتور يسقط بفعل آلية التغيير الإلهية .. وحده عزرائيل كان يتراءى له في أحلامه وهو يقبض الطاغوت ويريح شعبه من أنفاسه الكيماوية والجرثومية، لكن أمريكا التي استولت على صلاحيات مجلس الأمن وملك الموت في آن واحد، قدمت له حلمه على طبق مزين بجماجم العراقيين .. ولأنه لم يقرأ التاريخ ولن يمتد به العمر ليقرأه، و لم يستوعب أبجديات العمل السياسي قرر أن يستبدل هوية العراق العربية بنص هلامي بأنه عضو مؤسس في الجامعة العربية.. بمصطلحات فضفاضة تنزع عنه صفات العروبة إلى عالم أوسع وأرحب من تلك الثياب العربية البالية المتهالكة .. بل راح يطلب الثمن مقابل تمسكه بصفات العروبة ويكيل الاتهامات لكل دولة عربية لم تسدد إتاوة إعادة التعمير للمحتل.. وينظر إلى مقاومة المحتل على أنه تآمُر من دول الجوار، فهو يحمل نفس جينات سيده المخلوع ،بل يبدو أنه نتاج عملية استنساخ غير شرعية، ولو قرأت حواراته الأسبوعية الواحد تلو الآخر لوجدت نفسك أمام جيل جديد من الأشاوس، يتحدث عن التسامح الديمقراطي والتعددية الفيدرالية ويخفي تحت ثيابه

سكين التقسيم والتفتيت وينسى أن سيده الذي أتى بـــه هـــو نفسه خلع ثيابه عارياً لاعناً كل من.دفع به إلى المحرقة العراقية.. كولن باول أصابته فجأة حمى الصراحة ،فراح يشد ســـراويل إدارته واحداً تلو الآخر؛ الآن يعترف كولين باول ويعتذر بأن ما كان يردده في مجلس الأمـــن وخارجـــه لم يكـــن دقيقـــاً، ولتصرفه مغزى كبير لم يدركه الأشوس قبل الأخير مؤســـس الهوية العراقية الجديدة، فالنظام الأمريكي الـــذي "زيـــف" المعلومات عن قصد ليشن حرباً لازال يحكم، والنتيجـــة الـــتي أسفر عنها التزييف والكذب لاتزال تحصد أرواحـــاً عراقيـــة وأمريكية وإيطالية وبريطانية.. ومن جنسيات أخرى كـــثيرة، ولازال الشعب الأمريكي يدفع بسببها من عرقه وقوته ما كان يمكن أن يسد به ثقوباً سوداء في نظامه الاجتماعي.. اعتـــراف باول يشبه في قوته إعصار "كاترينا" من فصيلة سياسية تعصف بخمس سنوات من حكم الرئيس بوش، وإدانة قوية وتأكيداً من داخلها لكل ما يقال ضدها من خارجها، أما الاعتذار فيعني أن كل الأجهزة ومستويات الحكم القائمة لا تملـــك الـــشجاعة الكافية التي دفعت كولين باول إلى الاعتراف المؤلم باكتـــشافه زيف المعلومات التي أمدته بها أجهزة الاستخبارات عن عمـــد ولم يبلغه أحد بأنها مزيفة. وقال إنه لايزال متألماً، وسيعيش بقية حياته يعتصره الألم.. لقد لطخوا سجله، كما قال في حديثه مع بربارة والترز وأمام ملايين المشاهدين، ببقعة سوداء لن تـــزول "وستظل دائماً جزءاً من سجلي".

لكن باول لم يقل لنا لمن يوجه اعتذاره؟ للشعب العراقي ؟! الأحياء منهم أم الأموات؟! أم للشعب الأمريكي الشقيق الذي ذُبح أبناؤه من الوريد إلى الوريد؟!.

اعتذارك غير مقبول لأن جرائمك لم تنته، ولـن تـسقط بالتقادم، فسوريا يُجرَى تجهيزها للذبح على الطريقة العراقيـة وإذا أردت أن تقبل توبتك عن جرائمك الـسياسية وكـذبك أنت ورئيسك أمام العالم فلتفعل شيئاً لأجل الشعب العـربي في سوريا، فلتفضح كل المتآمرين على سوريا ،فأنت تعلم أكثر من غيرك أسماء الضحايا المنتظرين في طابور المسلخ !! كان أشرف لك أن تقدم استقالتك وقتها وتقذف بالسكين من يدك ممتنعـاً عن ذبح الأبرياء من أن تقف اليوم تطلب الـصفح والمغفـرة وتلعن من أوقعوا بك وأنت وزير خارجية أكبر إمبراطورية في التاريخ. لذلك كله لا أصدق أن ضميرك استيقظ، فالـسياسي لا يصح أن يكون له ضمير فلا أخلاق في السياسة .. هكـذا علمنا مكافيللي، لكن حقيقة تحولـك الـسياسي وتوبتـك المصطنعة لن تظل طويلاً تائهة وإن غداً لناظره قريب!!

لورا بوش

من ذكاء السياسة الخارجية الأمريكية أنها اكتشفت منذ أمد بعيد نظرية الدبلوماسية الشعبية ثم بدأت التنويع عليها وتطويرها بقفزات غير مسبوقة. كان أبرزها مبادرة قرينة الرئيس الأمريكي السيدة لورا بوش لمحاربة سرطان الثدي، فهي في حقيقة الأمر ليست سوى طريقة لتحسين صورة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط قبيل "مؤتمر الخريف للسلام"، تلك الصورة التي انحدرت إلى القاع مع قيام الولايات المتحدة بغزو العراق في مارس ٢٠٠٣، وهي شجاعة تُحسد عليها السيدة الأمريكية الأولى، لكنها مع الأسف الشديد شجاعة منقوصة كانت ستكتمل لو أنها اقترنت بمبادرة أخرى لمساعدة النساء العراقيات ضحايا اغتصاب جنود الاحتلال الأمريكي في العراق، واللاتي أصبحت صورهن تملأ صفحات الإنترنت خاصة موقع "يوتيوب" الشهير في أحقر استغلال جنسي من قوى احتلال لإذلال شعب وحضارة عربية عراقية.. لقد تورط عدد كبير من جنود جيش الاحتلال الأمريكي في إدانة بلادهم بتصوير عمليات اعتدائهم على أعراض العراقيات ثم بيعها لمواقع الفحش الجنسي بأسعار خيالية والتكسب من ورائها.. كان المتصور أن تُعلن "لورا بوش" عن برنامج مساعدات نفسية وطبية وعينية للضحايا وأسرهم وأطفالهم الذين يُقتلون بالعمد والخطأ يومياً على أيدي شركات الأمن المأجورة أو بمساندة

المارينز الأمريكي أو الذين تجاوز عددهم في عهد صدام حسين ٤ آلاف امرأة عراقية حسب تقديرات المدافعين عـن العُهـر الأمريكي .. كان على السيدة الأولى أن تعلـن بـشجاعة أن السرطان الحقيقي ليس في ثدي نساء المنطقة ولكنه في ذهنيـة صانع القرار الأمريكي الذي ينظر لذاته نظرة تفوق واسـتعلاء تذكرنا بهتلر وموسوليني وفرعون موسى.. عار التاريخ ياسيدتي الذي لحق بالولايات المتحدة لا يمكن أن تمحوه أثدية النساء أو مبادرات الدبلوماسية الشعبية الجوفاء، فالجراح غائرة ولن تلتئم قبل قرون من الآن ،وشكر الله سعيك..والسؤال هو : كيـف نصدق أن اليد التي أدمت وذبحت وقتلت يمكنـها أن تـداوى الجراح ؟! وهل يمكن لرحلات لورا بوش أن تحقق أي نجـاح؟ فمن هو الساذج في عصر الفضائيات الذي يرى الأحداث بعين صاحب المصلحة وحده؟ إن السبيل الوحيد لتحسين الـصورة هو اتباع سياسـات متوازنـة ومقبولـة وتحتـرم الآخـرين ومصالحهم، وليس منظومات إبادة تقودها جماعات من المرتزقة تحت مظلة احتلال أمريكي يفتقر لأية شرعية قانونيـة أثمـرت مقتل مليون ونصف عراقي حتى الآن ؛ لقد أثبت التـاريخ أن الشعوب التي ترزح تحت نير الاحتلال الاستعماري هي مـن أكثر الجماعات البشرية تعرضاً لجريمة الإبادة. وخلال قـرون عديدة كانت الشعوب والأقوام التي تُلحـق أقاليمهـا قـسراً بالدول المنتصرة عسكرياً لم تكن تملك أي ضمان غير حـسن نوايا تلك الدول.

كنا نتصور أن السيدة الأولى سوف تفسر لنا قرار الكونجرس الأمريكي بتقسيم العراق، ومن منحه ذلك الحق السلطة والصلاحية لاحتلال أرض الغير ثم تقسيمها إلى كانتونات عرقية ودينية، فالثدي العربي ليس أكبر همنا الآن، بل الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية والتنكيل المستمر بالأم والأخت والابنة الفلسطينية. نعلم جميعاً أن الولايات المتحدة أطلقت مبادرة الديمقراطية للمرأة العراقية التي أطلقتها وزارة الخارجية الأمريكية بكلفة بلغت ١٠ ملايين دولار، في شهر مارس من عام ٢٠٠٤، لكن محصلتها اليوم ساعات من البث المصور لجرائم الاستغلال الجنسي على شبكة المعلومات وعشرات من اللاجئات في الأقطار العربية المجاورة ، ومع ذلك فلن نفقد الأمل في مبادرة الثدي العربي التي تروج لها قرينة الرئيس الأمريكي، لعل وعسى تسترد المرأة العراقية كرامتها.

شجب.. أم إدانة؟!

أصابتنى وغيرى كثيرين حالة من الحيرة القاتلة والسقوط في فخ الاختيار بين بديلين أحلاهما مر ،وهو الشجب أم الإدانة؟!، والحيرة مردها إلى ثقافتي المحدودة وضيق الأفق لدىَّ كواحد من عامة الناس وضعف قدرتي على التفرقة بين الشجب والإدانة!! في المواقف التي تسكن المنطقة الرمادية، فضلاً عن أن المنتصر دائماً ما يكتب التاريخ ،ونحن مطالبون بأن نصدق كل حرف مثل "تخاريف صيام بوش" بشأن طلب الرئيس المخلوع صدام حسين مليار دولار نظير الخروج من العراق وقبوله بخيار اللجوء إلى بلد آخر وتجنب الكل ويلات الحرب، وذلك قبل شهر من بدء الحرب الأمريكية على العراق في ٢١ مارس ٢٠٠٣.

وقد جاء الكشف عن هذه الحقيقة المزيفة بتسريب محضر اجتماع بين الرئيس الأمريكي جورج بوش وحليفه الإسباني "خوزيه ماريا أثنار" جرى في مزرعة الرئيس الأمريكي بتكساس.

وهو تسريب يضفي تبريرات غير مفهومة على الأسباب التي دعت كل من الرئيس جورج بوش وحليفه توني بلير المضي قدما إلى الحرب وإرسال آلاف الجنود إلى ما بات يعرف بالمستنقع العراقي، بينما هناك حلول للتقليص من مصاريف أمريكا في الحرب من مبلغ ١٠٠ مليار دولار أميركي تدفع سنوياً من قبل الولايات المتحدة، و١٤ مليارات جنيه إسترليني

من قبل الحكومة البريطانية سنوياً، إلى مليار دولار تدفع مـــرة واحدة وقد يكون هذا المبلغ قابلاً للتفاوض.. وهي رواية تأتي في توقيت دقيق للغاية ،يُجرى فيه تقسيم العـــراق علـــى نـــار هادئة، وقد يكون الهدف منها أيضاً تبرير مخطط تقسيم العراق بعد أن حققت أمريكا هدفها من احتلاله ، ووضعت يدها على نفطه، وأضعفت قوته العسكرية التي تكاد تكون غير موجـــودة ولا يمكن أن تهدد أمن ربيبة أمريكا إسرائيل.. وليس من بـــاب المفاجأة أن يشترك المحللون الأوروبيون المحافظون مع نظـــرائهم من المحافظين الجدد في منظور واحد لمعالجة الوضع في العـــراق وهو التقسيم إلى ثلاث دويلات، وبدأ بالفعل أنصار التقسيم في الولايات المتحدة حملة إعلامية عالية التجهيز لإقناع أصـــحاب القرار بصحة موقفهم من القضية.. ولاحظ المتابعون عدداً من الإشارات الدالة على ذلك ،منها أن واشنطن تبـــذل جهـــوداً ملحوظة لزيادة دور شيوخ قبائل السنة في منطقة الأنبار عـــن طريق إقامة العلاقات المباشرة مع السياسيين المحلـــيين، ومـــنح المساعدة المالية والعسكرية لهم، وتثير نشاطات واشنطن عـــدم ارتياح حكومة المالكي، لكنه غير قادر على عرقلة تطوير تعاون الأمريكيين مع أهل السنة في العراق، والهدف وضع بنية أساسية لدولة سنية؛ أيضاً سمحت الولايات المتحدة بانسحاب القوات البريطانية من البصرة، الأمر الذي ســيؤدي إلى تزايـــد تـــأثير الجماعات الشيعية في المناطق الجنوبية، حيث لا تسيطر حكومة

المالكي عليها، وهو ما سيؤدي إلى رسم كيان دويلة شيعية في الجنوب.

وأخيراً فإن ذاتية كردستان العراقي في رأي واشنطن شيء طبيعي، وفي حقيقة الأمر فإن الأكراد حصلوا على أكبر الفوائد السياسية والاقتصادية من إزالة نظام صدام حسين، وحصل ممثلوهم على مناصب مهمة في العراق الجديد، ويسعون إلى الاستقلال عن بغداد، ولا تحتاج دولتهم إلا مجرد إعلان ذلك، كما أن القوات الأمريكية في العراق لا تحاول منع مطاردة الأقليات في كل المناطق (وفقاً لبعض المعلومات حتى تشجع هذا)، والنتيجة هي أن معظم سكان بغداد أصبحوا من الشيعة (٧٥%)، علماً بأن سكان بغداد كانوا من السنة (٦٥%)، وفي كركوك تجري بوتيرة عالية مطاردة العرب والأتراك والمسيحيين. وهكذا سقطت نظرية الحفاظ على وحدة الأراضي العراقية لدى الأمريكيين، وأكثر من ذلك فالخبراء على يقين من أن واشنطن قد أعدت منذ زمن بعيد سيناريو تقسيم العراق، وهو ما كانت تشير إليه الصحف الموالية لها من خلال الترويج لمشروعات تقسيم البلاد وتغيير الحدود في المنطقة بغرض التأثير على الرأي العام. ولا أدري هل الجامعة العربية سوف تشجب أم تدين!!!

حمى الاعتذارات المفخخة!!

خلقت حالة التناقضات الفكرية في السياسة الأمريكية والبريطانية تجاه الأزمة العراقية موجة من الاعتذارات داخل محافلها الدينية والسياسية، فقد انضم أساقفة الكنيسة الآنجليكانية البريطانية إلى المدرسة الاعتذارية الأخلاقية ــ التي دشنها وزير الخارجية الأمريكي الأسبق كولين باول ــ عندما قررت لجنة خاصة برئاسة رئيس أساقفة أكسفورد ريتشارد هاريس الاعتذار من المسلمين عن حرب العراق تصحيحاً للخطأ الذي ارتكبته الحكومة البريطانية؛ وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن قيمة هذا الموقف الكنسي ومدى تأثيره على القرار السياسي لحكومة توني بلير؟.. قد يكون من المبالغة حدوث تغيير جذري في السياسة البريطانية يعكس موقف الكنيسة مع العلم أن الملكة هي رئيسة الكنيسة، إلا أن تأثيرها المباشر في هذه السياسة أمر لا يمكن استبعاده.. وطرح هذه الاعتذارات الآن يتزامن مع تطورات أخرى غاية في الخطورة والأهمية.. هذه التطورات أشبه بكرات الثلج تكبر كل يوم ويتسع مداها لتفرض في النهاية مراجعة إستراتيجية لفكر أثبت فشله، كما تخلق مظلة شبه أخلاقية للانسحاب والتراجع من المستنقع العراقي .. فالقادة العسكريين قبل السياسيين أصبحوا على قناعة بأن الشروع في عملية سياسية هو الأقدر من الاستمرار في الحملة العسكرية على تحسين الأوضاع الأمنية،

وهو الأقدر كذلك على تهيئة مناخ ملائم لإنجاز انسحاب غير مهين للقوات الأمريكية من العراق. ويمر هذا الإدراك بعدد من التناقضات .

التناقض الأول: الذي تعاني منه السياسة الأمريكية هو إصرارها - المعلن على الأقل - على بناء نظام ديمقراطي في العراق في ظل الاحتلال، ومن دون تحديد جدول زمني لإنهاء هذا الاحتلال؛ ولكن كيف تجتمع الحرية بكل أبعادها التي تفترضها العملية الديمقراطية مع القيود التي تفرضها الاعتبارات العملية والأمنية لبقاء قوات الاحتلال وسلامتها؟

التناقض الثاني: هو محاولة الجمع بين الحرب غير المحدودة على الإرهاب، واتخاذ العراق ساحة لتجميع جماعات الإرهاب وتنظيماته وسحقها هناك مرة واحدة إلى الأبد من جهة، والعمل على إقامة نظام ديمقراطي نموذجي في العراق من جهة أخرى.

أما التناقض الثالث :فهو إستراتيجي إقليمي كشف عنه وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل الأسبوع الماضى حين ندد إثر لقاء مع وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس بتدخل إيران في الشئون الداخلية العراقية، وأن يتجه العراق نحو التفكك ليجر دول المنطقة إلى صراع .. فإيران تساند الشيعة في العراق بما في ذلك تقديم أموال وأسلحة. وتركيا لن تسمح

بدولة منفصلة للأكراد العراقيين على حدودها. والدستور قد يقسم البلاد ويحرم الأقلية السنية من حقوقها السياسية.

أما التناقض الرابع :فهو مخاوف دفينة أعلنها بوش صراحة بعد أن تلقى تقريراً من كبار مستشاريه العسكريين في البنتاجون برفض الدعوات للانسحاب الأمريكي من العراق ،وقال إن هذه الخطوة ستجعل العالم أكثر خطراً، وأن سحب القوات الآن يمكن أن يُفهم على أنه دلالات ضعف، وسيكون تكراراً لأخطاء الماضي التي أدت إلى هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

عفواً .. قتلناكم خطئاً

كانت زهرة أحلامه أن يكبر يوماً ما ليـــصبح جنـــدياً في المارينز، يتلقى تدريباً قتالياً بطولياً أسطورياً، يجوب بحار العـــالم ينشر قيماً إنسانية تحت العلم الأمريكي بألوانه ونجومه الخفاقـــة المحلقة في السماء؛ كان مجتمعه وإعلامه يصف له أروع تفاصيل البطولة والفداء والتضحية دفاعاً عن صنم الحرية .. لا بل عـــن قيم الحرية والديمقراطية ،فالأصنام لا تـــزرع قيمـــاً إنـــسانية والحضارة لا تختزل في حجر أصم، لكنها ترمز أحياناً كعلامات على الطريق نحو دروب المجد.. ولم يستغرق به الحلم طويلاً إذ استيقظ صباح اليوم التالي فوق مدرج الطائرت محلقاً إلى فيتنام حاملاً فوق ظهره أصناف الموت لشعب فيتنامي شاءت أقداره أن يقف صارخاً في وجه الظلم لاعناً مجلس الأمـــن وقـــوادي الجحيم بالأمم المتحدة.. وفي نفس اللحظة التي وطـــأت فيهـــا أقدامه غابات فيتنام استيقظ ليجد نفسه واقفاً أمام جدار يقـــرأ اسمه مدوناً عليه بين مئات الآلاف من الأسماء .. ظن المـــارينز بداية أنها لوحة الشرف، لكن نحيب الأطفال ودموع النساء أثار دهشته ،وعندما سأل قالوا له: إن الشعب تبرع ليسجل فـــوق الجدران أسماء القتلى في فيتنام، لم يسقط مغشياً عليه من هـــول الصدمة فالموتى قد أتموا دهشتهم الأولى من قبل .

لكن مفاجأته الحقيقية كانت في استدعائه مرة أخرى ليُقتل مرة ثانية، فاللعبة قد أعجبت سادة الحرب، ولا مانع من إرساله

إلى العراق لينشر الديمقراطية بالتعذيب .. لا بل ليخلص العالم من شرور الديكتاتور .. لا بل ليترع أنياب ومخالب نووية وكيماوية، فهي كلها أسباب ودوافع إنسانية .

وحطت طائرته وسط نيران وجحيم ولمح رأسه وهي تحط مجدداً بين رؤوس عشرات المذبوحين ،فسأل الميجور قائد كتيبته أن يمنحه هذه المرة وسام الشرف ،فهو قتل في فيتنام وذبح في العراق، فوعده بمحاكمة عسكرية عندما يعود لاشتراكه في تعذيب العراقيين وتفوقه على الجلاد الذي أزاحوه للتو واللحظة من عرش السلطة.. وسأل القاضى :لماذا يحاكمه ويترك من ضللوه ؟من قالوا له أن قتل العربى واغتصابه مجد وشرف للعسكرية الأمريكية؟ من وعدوه بآبار النفط وجوارى بغداد؟ قال له: القاضى أين دليلك ؟ الصور لا تظهر سواك وأعوانك وأعضاء ضحايك الداخلية ،ولا أجد وزير دفاعك أو رئيس أركانك !! صمت الماريتر لحظة ثم قال والتقارير الرسمية؟! فسأله القاضى أية تقارير؟ أتعنى تقرير الأمم المتحدة عن قرار قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة في العراق بحرمان العراقيين من الغذاء والمياه، وباستعمال هذا الأمر كسلاح حرب؟!

أم تعني تقرير اللجنة الرئاسية الصادر الخميس الماضي, والذي تعترف فيه بالخطأ التام لتقديرات ومعلومات استخباراتها في شأن أسلحة العراق؟ أجاب: نعم هذا ما أقصده.. واستطرد القاضى قائلاً : إن المعلومات التي تسلمتها الإدارة من أجهزة

الاستخبارات استندت إلى "افتراضات" وبنيت على معلومات قديمة منذ عام ١٩٩١، وارتكبت أخطـــاء قاتلـــة في معظـــم معلوماتها وتقديراتها في شأن أسلحة الدمار الشامل العراقية قبل الغزو؟

الماريتر: نعم سيدى القاضى هذا بالضبط ما أردت فضحه .

القاضى: إن تقرير اللجنة الذي تسلمه بوش بالأمس يبرىء ساحة إدارته من الاتهام بممارســـتها ضـــغوطاً علـــى أجهـــزة الاستخبارات للحصول على أدلة ملفقة تبرر غـــزو العـــراق، وكان يكفي لهذه الأجهزة أن تقول أنها "لا تعلم"، بدلاً مـــن استخدام الافتراضات؛ ياعزيزى كل هذه التقارير تريد أن تقول للعراقيين فقط وليس لغيرهم " عفواً.. قتلناكم خطئاً"..

الخراف العرب

فلما كان صباح يوم العيد انطلق الرعاع والدهماء والأنطاع تحت رعاية محتلٍ أمريكي / بريطاني إلى حيث الخليفة مسجون واصطحبوه مقيداً بالأغلال ،ثم نادى أنطعهم أن اذهب إلى جهنم ياصدام.. وصاح أخير: سقط الطاغية.. وأقيمت سرادقات التهنئة قبل العزاء.. وتسلم العرب ثلاث رسائل دموية كُتبت فوق جدران سلخانة الإعدام. . الرسالة الأولي أمريكية وجاءت من الصفاقة والوقاحة بحيث لا يخطئ أحد تفسيرها أو قراءتها ،سواء من اليمين إلى اليسار أو بالعكس، فهي إنذار شديد اللهجة لقطعان الخراف العرب من المحيط إلى الخليج ،بأن من يجرؤ على الهمس اعتراضاً فسوف يلقى نفس مصير صدام أو ياسر عرفات وله حرية الاختيار بين الموت شنقاً أو فطيس .. أما اختيار يوم العيد لذبح خليفة بغداد فهو مجرد تذكير بالبعد الأيديولوجي للحملة الأمريكية بأنها حرب صليبية وليست حرب تحرير من طاغية .. لكن التوقيت أيضاً استفزاز متعمد يتعدى شنق طاغية ويدخل في حسابات تأجيج النزاع بين الشيعة والسنّة لغايات توسيع رقعة الحرب الطائفية إلى خارج العراق لأهداف تقسيمية؛ وأصبح من الخطورة تصديق حكاية الأخطاء الأمريكية في العراق بينما يُجرى رسم خرائط جديدة لمنطقة الشرق الأوسط، بدأت بالغزو والتدمير وانتقلت إلى التقسيم عبر إستراتيجية «أخطاء» مدروسة ومتسلسلة تعود

فوائدها على إسرائيل وإيران، وتترك العرب في حروب بائسة مجردين من النفط والتحالفات. . أما السطر الأخير من الرسالة فهو للداخل الأمريكي بأن بوش صدق وعده بذبح خليفة بغداد قبل نهاية العام، ولا مانع من إمداده بعشرين أو ثلاثين ألفاً من الخراف الأمريكية لتذبح هي الأخرى تحت أسوار بغداد كبداية لدورة جديدة من الأضاحي.

الرسالة الثانية إيرانية، وجاءت بين ثنايا هتافات اللحظات الأخيرة بنداء ارتفع باسم مقتدى الصدر ومحمد باقر الصدر مقترنة بدعوات وتمنيات "إلى جهنم ياصدام"، وبالتالي فقد اتضح جلياً أن كتيبة الإعدام شيعية مطعمة بخبرات إيرانية، وأن أصابع إيران قد انتقمت من حائط الصد العربي الأخير في مواجهتها ،بل إنها أمعنت في انتهازيتها وأبدت تناغماً وتناسقاً مع ردة الفعل الإسرائيلي تجاه عملية الاغتيال ،وهو ما يُفقد إيران تعاطف الخراف العربية والإسلامية في حال تعرضها إلى عدوان أمريكي قد يكون وشيكاً، ولن تجد صوت رشيد بين نداءات الانتقام والثأر من الفرس التي بدأت تعلو.

الرسالة الأخيرة من صدام نفسه لحظة رفضه غطاء الإعدام وترديده الشهادة المنقوصة ونظرة إلى الموت في عينيه بصلابة ، أفقدت جلاديه صوابهم، فلم يجدوا سوى اللعنات والتشفي الحقير، وأعجزت أعداءه عن الانتصار حتى الآن ؛ وبالتالي فقد وجه رسالة مباشرة للدائرة العربية السنية أن الموت نفسه ليس بسبب يمنع رؤية المؤامرة الأمريكية الفارسية . . وأن طقوس

الموت التي أدارها الاحتلال وأعوانه وعملاؤه لم تكشف سوى عن حالة من اليأس والذل بلغت أقصى مدى!! و مهما حاولوا تصوير الأمر على أنه انتصارات فإن أعداد القتلى الحقيقية هي أصدق مؤشر لمعالم الهزيمة العسكرية وقمة النصر لمشروعها الخفي بتدمير العراق.. لكن المأزق العربي يسير في اتجاهين .. فإما أن يُترك العرب لنيران الفرس تلتهمهم وفق مخططات المحافظين الجدد ثم يتم التفرغ لإيران،أو أن يتآمر العرب مع واشنطن في مواجهة الفرس ثم يتم التخلص منهم لاحقاً.. لا مفر من السقوط طالما أن هناك من يدفع بالتاريخ والبشرية في اتجاه النبوءة الكاذبة.

عودة العلوج

تبادل عجيب للمواقع تشهده أنحاء العراق منذ الاحتلال الآنجلو أمريكي .. فالطاغية جرى استبداله بعصابات من الطغاة، والضحايا والقتلى بعد أن كانوا بالمئات أصبحوا بالآلاف والملايين.. وهذا تطور طبيعي لأي نظام حكم يأتي فوق فوهة مدفع، ليس من المستغرب أن تغرق العراق وتتلاشى بالتقسيم .. لكن ما لا يمكن تصديقه أن الولايات المتحدة طلبت من مصر ودياً من خلال ريتشاردوني سفيرها السابق في مصر إغلاق قناة "الزوراء" لسان حال المقاومة العراقية في بلاد الرافدين، ورغم أن مصر لم تتلق طلباً رسمياً من الولايات المتحدة أو من الحكومة العراقية الحالية، إلا أن هذا لا يخفي أن الولايات المتحدة الأمريكية صاحبة لواء وراية الحرية الإعلامية أصابتها عدوى "الصحاف" الخبير الإعلامي في شئون العلوج، وتمكن منها فيروس تكميم الأفواه المنتشر في أزقة العالم الثالث.. لأن الحرية في زمن الغزو والاحتلال ثمنها باهظ لا تقدر على تحمله دولة ولو بحجم الولايات المتحدة.

قناة «الزوراء» حين بدأت بثها ركزت علي تناول قضايا السنة في العراق، وعرض مشاهد لعمليات التعذيب التي يتعرضون لها، سواء على أيدي قوات الاحتلال أو ميليشيات الشيعة، ونقلت الضربات الناجحة للمقاومة العراقية على الهواء مباشرة، مما دفع بالحكومة العراقية إلى إغلاق مكتبها ببغداد في

٥ نوفمبر ٢٠٠٧، وهذا مقبول من حكومة طائفية تقود مذابح شعبها وترى في الاحتلال حماية لبقائها واستمرارها، لكن من المذهل أن تصبح قوى الاحتلال ذاتها أسيرة تصورات وأوهام عصابات الحكم ،ويصبح تحليل عقدة التاريخ هو المدخل الوحيد لفهم التغير في المسلك الأمريكي.

في نوفمبر ٢٠٠٥ تنبأت دراسة نشرتها مجلة "فورين أفارز" لأستاذ علوم سياسية بجامعة ولاية أوهايو الأمريكية يدعى جون "مولر" بأن تصيب حرب العراق السياسة الخارجية الأمريكية بعقدة أشبه بعقدة فيتنام، وقد استند "مولر" في توقعه هذا على مقارنة موقف الرأي العام الأمريكي تجاه حرب العراق مع موقف الرأي العام الأمريكي تجاه حربي فيتنام وكوريا، وتوصل من هذه المقارنة إلى أن عقدة العراق تسير على نفس مسار عقدة فيتنام بشكل يصعب تفاديه. معنى ذلك أن "الزوراء" كشفت للرأي العام الأمريكي والعربي عن ملامح كئيبة للرقم الحقيقي للقتلى والمصابين بين صفوف القوات الأمريكية، وأن هذا الرقم الذي يقدر بثلاثين ألف جندي -وفي تزايد وفق تقديرات المعارضة العراقية وعمليات القنص النوعية للأفراد والمعدات وناقلات الجنود-قد أصاب في مقتل مصداقية الإدارة الأمريكية أمام ناخبيها وأمام الكونجرس ،بحيث لم يصبح أمامها مفر سوى باحتلال مقعد "الصحاف" وبث بيانات العلوج الكاذبة من فوقه.. لقد مارس الإعلام الأمريكي دوره لعشرات السنين كسلطة رابعة تراقب أداء السلطة التنفيذية، وتوفر نافذة

للحوار بين الشعب والمسئولين والمشرعين الأمريكيين، لكــن دوره في كشف أخطاء وتجاوزات صُنّـــاع القرار قد تراجع كثيراً منذ شن الحرب الأمريكية على العراق.. ومع ذلك فـــلا يمكن تحميل الإعلام نتائج الاحتلال والغزو سواء كتـــب لـــه الفشل أو النجاح، فالإعلام يبقى مجرد رسول أمين ينقل للرأي العام الحقائق بكل قسوتها في أجواء من التضليل السياسي تطغى على معالم الحقيقة ومحاولات الاستئثار بالكذب أمام الرأي العام الأمريكي والعربي والعالمي . . خطورة "الـــزوراء" ليـــست في حرفيتها ومهنيتها الإعلامية المتميزة وقدرتها على الوصـــول إلى كل بيت أمريكي، ولكن لتزامنها مع خطـــة الـــرئيس بـــوش لإرسال مزيد من القوات إلى العراق، فالرقم المعلن وهـــو ٢٠ ألفاً لايتناسب وعدد القتلى الرسمي وهو ثلاثة آلاف، ومشاهد القنص بكاميرات المحمول ذات الجودة الرديئة بمثابة ثقـــب في أستار الخديعة التي تخفي وراءها نهـــراً مـــن الـــدماء العراقيـــة والأمريكية ثمناً للنفط وقرباناً لحكام إسرائيل وتواطؤاً مع ملالي إيران.. لكن أكثر ما أخشاه أن تكون "الزوراء" نفسها جـــزءاً من برنامج الشحن النفسي الأمريكي للسنة العـــرب لإطـــلاق يدهم تقتل وتذبح في إيران، وأتباعها داخل العـــراق وداخـــل طهران عن قريب عاجل بعد أن اختفى شبح عودة صـــدام إلى الحكم في حال سيطرة السنة والبعث من جديد.

الديمقراطية بالتعذيب

إذا كان هذا هو نمط التعذيب السائد في العراق فما هو النمط السائد في جونتانامو؟ ولماذا الكشف عن التعذيب في العراق بينما لم تخرج صورة واحدة من جونتانامو رغم أن الفاعل في الحالتين واحد؟ ! جنسيته أمريكية! وحربه أمريكية! والفارق الوحيد أن التعذيب يجري في العراق المحتل الذي يبحث الأمريكيون عن مخرج منه، أما جونتانامو فهي أرض محررة ليس بها ما يدعو إلى الهرب من جحيم المقاومة العراقية- عفواً - الإرهاب العراقي.. وبالتالي فإن السؤال: إلى أين المفر؟ وكيف الهروب هو الشغل الشاغل للإدارة الأمريكية ؟الخطة تبدأ بإيقاظ كامل للمشاعر الدينية للعالم الإسلامي، ولن يكون ذلك سوى بالإساءة إلى الرسول الكريم ثم طرح صور التعذيب الجديدة في سجون العراق لتهيئة الرأي العام الإسلامي والعربي لمطالب إله الحرب والقتل والدمار الذي بدأ جولته في المنطقة العربية الوزير رامسفيلد ،وهو مطلب وحيد بإرسال مظلة قوات عربية وإسلامية لتأمين الوجود الأمريكي تحت شعار كاذب هو الانسحاب، وبالتالي توريطنا في فيتنام العراقية التي سخر كثيرون من وصفها بذلك المسمى.

أما التوقيت فقد تم اختياره بعناية، وهو موعد انعقاد القمة العربية في مارس ، وهو نفس سيناريو الأعوام الماضية قبل انعقاد القمة العربية .

إذاً ما يجري هو عملية تسخين وتهيئة للرأي العـــام العـــربي ومحاولة تحريك للشارع الإسلامي، ثم يبــدأ الـــرأي العـــام في الضغط على قياداته لقبول إرسال قوات فصل لتأمين انسحاب القوات الأمريكية، ثم تستشعر القـــوات الأمريكيـــة بالراحـــة والأمان ،فلا تنسحب لأنه لم يكن بالأساس هناك جدول زمني متفق عليه للانسحاب، أو حتى مجرد إعلان نوايـــا بـــذلك ،أو حتى حكومة عميلة قوية ترتكن إليها عندما ترغب في العودة.

إذاً ما الحل والدائرة الخبيثة تعمل بكل قوة وتحكم قبـــضتها حول عنق الجميع وفي مقدمتهم الولايات المتحدة. أخـــشى أن يكون الحل بنفس مرارة الاحتلال ولن يقبله صقور رومـــا ـــ واشنطن سابقاً ـــ لأنه يبدأ أولاً بإعلان قوات التحالف هزيمـــة مشروعها في العراق وقبولها مبدأ التعويضات للشعب العراقي، والتعهد بعدم التدخل في شئونه الخاصة أو اختياره لحكامـــه ثم جدول زمني للخروج.. لكن من يضمن أن الحـــرب الأهليـــة سوف تسمح بتلك الأمنية الأخيرة للولايات المتحدة وقـــوات التحالف؟ إن هذا الإعلان أو مجرد التلويح به ســـوف يحـــول العراق إلى أنهار من الدماء، ولن يخرج جندي أمريكي واحـــد على قدميه وستعرف أمريكا معنى الإبادة الجماعية الحقيقي بعد هذا الإعلان المجنون، بل لن تفلح أية قوات عربيـــة في تـــأمين نفسها أو غيرها.

أخشى أن أسوء ما في الحرب العراقية لم يبدأ بعد وأن كـــل ما شاهدناه كان لهو أطفال ،مقارنة بمـــا ســـيحدث إذا مـــا

انسحبت أمريكا كما انسحبت مصر عام ٦٧ ..وأخشى أيضاً أن يكون استمرار الوضع على ما هو عليه مجرد وهم يجرى وراؤه كل الأطراف ،فالصمود الأمريكي المزعوم قد تآكل سياسياً واقتصاديا قبل أن يتآكل عسكرياً، وتحولت الكوارث الطبيعية الداخلية مثل الأعاصير والفيضانات ،وما تخلفه من كوارث وأعباء اقتصادية إلى تلك القشة التي قسمت ظهر البعير؛ وأيقن الأمريكيون أن حديث نشر الديمقراطية في خطب وكلمات الرئيس بوش كان المقصود به نشر ثقافة التعذيب، لكي يدرك المواطن العراقي أن نظام صدام الفاشستي كان عصفورة تغرد في أكاديمية واشنطن للديمقراطية.

مرثية واشنطن

أخطر ما في الكاتب أن يقرأ من رحم المستقبل ثم يكتب بحروف ومفردات مستوحاة من الغيب، ثم ينسحب في هدوء مخلفاً وراءه عطر الحقيقة العارية كأنها قد ولدت للتو واللحظة خالية من زخرف القول..هذا أبسط ما يوصف به كتاب الملياردير الأمريكي اليهودي ذي الأصول الأوروبية الشرقية والذي يصدم قراءه في كل مرة يكتب فيها، وفي كتابه "فقاعة التفوق الأمريكي" الصادرعام ٢٠٠٤ يرسم صورة قاتمة تفوق في سوادها تقرير "لجنة بيكر ـ هاميلتون" لكنها أكثر صدقاً من اللغة المهذبة التي صيغ بها تقرير الهزيمة في العراق ،ولم تخرج عن لغة الإستربتيز السياسي التي أجادتها واعتادت على ممارستها السياسة الخارجية الأمريكية منذ سطو المحافظين الجدد على الحكم.. بمعنى أن الحقائق العارية البادية للعيان يُجرى إلباسها بما لا يسمن أو يغني من جوع .. "سورس" كشف أوجه الخراب التي ألحقتها إدارة بوش الجمهورية بالولايات المتحدة داخلياً وخارجياً منذ السطر الأول من الكتاب، فيقول: "إن حكومة أقوى دولة على وجه الأرض وقعت في يد من يراهم مجموعة من المتطرفين الذين تقودهم الصيغة الفجة من الداروينية الاجتماعية"، في إشارة إلى اليمين الأمريكي الحاكم، عوضاً عن وصف "المحافظين الجدد"، فالداروينية تعني "البقاء للأصلح"، وتعبر عن توحشها في الاقتصاد عن طريق حصر التنافس بين

الشركات الكبرى وقتل الصغرى، وفي السياسة تحصر التنافس بين الدول فتطيح الكبرى بالصغرى أيضاً، هذا الفكر الإمبريالي قيمياً والمطبق عسكرياً في أفغانستان والعراق هو الإطار العـام "لفقاعة التفوق الأمريكي" كما يراها سورس، وهو يـرى أن نهاية تفوق أمريكا وفقدانها لموقعها القيادي في العالم سـيكون النتيجة الحتمية لمثل هذا الفكر.

ثم يصدمك بقوله: "لقد دخلنا العراق كمحـررين نحمـل مشاعل الحرية والديمقراطية، ونجح الجزء العسكرى من الحملـة على العراق ولكن الاحتلال تحول إلى كارثة لا تعرف الولايات المتحدة كيف تخرج منها" .. ولذلك فإن ممارسة الـسيناتور الديمقراطي "توم لانتوس" فضيلة الصدق مع النفس وتأكيـده قبل إعلان تقرير اللجنة "أنه من غير العدل المبالغة في الرهـان على نتائج تلك اللجنة، أو أن تأتي بتوصيات وبـدائل مختلفـة جذرياً عن البدائل المطروحة، وأن هناك مبالغة كبيرة غير مبررة حول دور تلك اللجنة والنتائج التي يمكن أن تنتهي إليها".. جاء في موضعه الصحيح، فالتقرير تخطى الاعتراف صراحةً بالهزيمـة وانتقل إلى ترتيبات الانسحاب داعياً إلى تغيير المهمة الأساسية للقوات الأمريكية في العراق للسماح بسحب مبكر لهـا ،وإلى قيام الحكومة العراقية بعمل عاجل لتحقيق المـصالحة الوطنيـة والقيام بجهود دبلوماسية جديدة في العراق والمنطقة، مؤكداً أن "المقاربة الأمريكية الحالية للأوضاع في العراق لا تعمـل.. في وقت تتقلص فيه قدرة الولايـات المتحـدة علـى التـأثير في

الأحداث، وتكبدت نحو ٢٩٠٠ قتيـــل و٢١ ألــف جـــريح وأنفقت ٤٠٠ مليار دولار قد ترتفع إلى أكثر مـــن تريليـــون دولار ".. واختتم التقرير مرثية إعلان الهزيمة بـــالإقرار إبّـــأن "الأحداث في العراق قد تحتاج إلى اتخاذ قرارات عاجلة فحالياً يموت الناس يومياً ســـواء عـــراقيين أو أمـــريكيين يحـــاولون مساعدهم في عالم من الخوف لم يكن العراقيون يتـــصورونه .. لقد تم تحريرهم من الطغيان ليواجهوا بعدها كابوساً من العنف الوحشي "..والسؤال : ما هو الفارق بين الطغيـــان والعنـــف الوحشي في عرف واشنطن؟ !! بل ما هو الفارق بين مصطلح الهزيمة ولغة الأرقام التي ترصد الخسائر والقتلى وتخفي أكثر مما تبدي من حقائق مخيفة ؟!! ثم ما هو الجزء المفقود من التقريـــر ،أو بمعنى أدق لم يذكره التقرير؟!! التقرير لم يُعلن صراحة هزيمة المشروع الإمبراطوري الأمريكي في العراق ومنطقـــة الـــشرق الأدنى.. لم يُعلن عن نهاية العصر الأمريكي تماماً مثلما كانـــت حرب ٥٦ نهاية الإمبراطورية البريطانية ودورها الاســـتعمارى في المنطقة.. لم يُعلن القصاص ممن ورطوا الشعب الأمريكي في سفك الدماء العربية!!.. لم يدعُ لمحاكمـــة القتلـــة ومطـــاردة لصوص الأعراض والثروات العراقية!! .... ولم يـــذكر كـــم "زرقاوى" ولد في العراق منذ احتلاله؟ .. وما هو مصير أيتـــام واشنطن في حكومة المالكي؟ .. ولم يفصح عن مصير الرصـــيد الهائل من الكراهية الذي خلفته الحرب في العالم تجاه الولايات المتحدة الأمريكية!!

كشف المستور

قراءة المارثون السياسي في "مؤتمر شرم الشيخ" تبدأ من قراءة نوايا الاحتلال الأمريكي في بغداد من خلف "جدار الأعظمية العنصري"، فالمخطط الأمريكي الذي قد يبدو مصغراً في حصار المجتمع السنى داخل ووراء سور بغداد الجديد هو تعبير عن مخطط أكبر يجري بإصرار شديد لحصار السنة داخل الهلال الشيعي وتكريس الطائفية والتعصب المذهبي وإشعال الفتن والحروب داخل البيت العربي والإسلامي.. لذا لا يمكن تصديق أكذوبة قوات الاحتلال بأن "السور لحماية السنة" ،ويكفي أن نقرأ التقييم الإعلامي الأمريكي لمؤتمر شرم الشيخ لتتضح تلك الرؤية بوضوح ،فصحيفة نيويورك تايمز الأمريكية ترى أن "مؤتمر شرم الشيخ بشأن العراق يتيح اتصالاً نادراً رفيع المستوي بين الولايات المتحدة الأمريكية وحكومتي بلدين حاولت عزلهما، هما إيران وسوريا " وتفسير ذلك أن التواصل الأمريكي مع الهلال الشيعي هو المسيطر على ذهنية القرار السياسي الأمريكي وليس الحرب الأهلية الدائرة في العراق ،وأن سياسة الاحتواء للخطر الإيراني الذي يهدد بقاءها بالعراق هو الاستفادة الحقيقية من وراء مشاركتها في مؤتمر شرم الشيخ.. وأن حديث التواصل يأتى بحثاً عن الأمن والاستقرار لقوى الاحتلال وليس للشعب العراقي.. وتكشف تصريحات كونداليزا رايس وهي تتوجه إلى شرم الشرم الشيخ

عن انقسام عميق في نوايا السياسة الأمريكية بشأن العراق ،ففي الوقت الذي يعكف فيه العسكريون على تكريس سياسة الأسوار العازلة تتحدث رايس عن المغزى السياسي لمشاركة ستين دولة في المؤتمر، وأن هذا المؤتمر سيكون أول اتفاق دولي بين العراق والمجتمع الدولي منذ الخمسينيات بصرف النظر عن النتائج الاقتصادية والمالية التي قد يسفر عنها ؛ رايس تتحدث عن تواصل العراق مع المجتمع الدولى لتخفي برامج التقسيم الخفية لدول المنطقة والتي تبدأ من "الأعظمية"؛ معنى ذلك أنه لم يعد ممكناً الرهان على محاولات واشنطن لمراجعة الاستراتيجية الخاطئة التي طبقتها في العراق عقب الغزو والاحتلال، ونجم عنها التردي الأمني والاقتصادي الخطير الذي تعاني منه البلاد, و لم يعد يفيد إدراك الجميع أن بول بريمير الحاكم العسكري الأمريكي السابق في العراق كان هو من نفذ هذه الإستراتيجية الخاطئة التي استهدفت اجتثاث البعث، وإقصاء السنة من المعادلة السياسية ،مما هوى بالعراق في دوامات العنف والدم في شوارعه، لأن "وثيقة العهد الدولي" هي آخر فرصة لإنقاذ العراق من التقسيم ووأد الحرب المذهبية في المنطقة .. وتصبح الخطة المصرية حول ضرورة عدم تهميش تيار بعينه، أو الانحياز لفريق دون آخر، واعتبار المصالحة الوطنية الركيزة الأساسية لتحقيق الاستقرار في العراق، بالإضافة إلي الترحيب بمبادرات وخطوات الحكومة العراقية الساعية لانجاز هدف استقرار البلاد، ووقف نزيف الدم فيه مسألة بقاء أو فناء العراق من

خريطة المنطقة، ويصبح الربط المصري بين الأمن والبناء الاقتصادي هو المدخل الوحيد لاستعادة العراق ويستلزم لنجاحه توفير موارد لإعادة إعداد الأجهزة الأمنية والجيش، أما محاولات اختزال لقاء شرم الشيخ إلى حوار إستراتيجي وتنقية للأجوء السياسية بين الولايات المتحدة وإيران فهو قصور في الرؤية السياسية وإصرار منحرف على أن إيران هي اللاعب الوحيد في المسألة العراقية وإقصاء لأطراف عربية فاعلة في المنطقة.. كما أنه لن يضمن بقاء أو استقرار الاحتلال الأمريكي ،لأن الكراهية للاحتلال ليست حكراً على العرب أو الفرس أو السنة أو الشيعة وليست محل مقايضة.

حرب المساجد

يتحدث كثيرون عن ميثاق الشرف بين اللصوص والقتلة أحياناً ولكن أنقل هنا صورة لميثاق الشرف الذي رأيته عن قرب عام ١٩٩٤ في زيارة لولاية كولونيا الألمانية ،وهناك شاهدت أجمل ما قدمت عمارة الكنائس الأوروبية للتراث الإنساني تقف شامخة منذ وضع حجر الأساس لكاتدرائية كولونيا في عام ١٢٤٨ من قِبَل رئيس الأساقفة في كولونيا كونراد فون هوخشتادن، إلاَ أن أعمال البناء في هذا المبنى الغوطي العملاق استمرت ٣٠٠ عام تقريباً.. كانت فكرة إرساء هذا الكنيسة المهيبة ولدت في عام ١١٦٤ بعد أن قام رئيس الأساقفة في مدينة كولونيا الكاردينال راينالد فون داسيلل بإحضار رفات المجوس الثلاثة من ميلانو إلى كولونيا كهدية من القيصر بارباروسا الذي احتل ميلانو في نفس العام، هذه الهدية القيمة دفعت المسئولين في الكنيسة إلى الاقتناع بضرورة تدشين كاتدرائية فريدة من نوعها تليق برفات المجوس الثلاثة ،ووفقاً للرواية التاريخية فالمجوس الثلاثة هم من تنبأوا بميلاد السيد المسيح، ويبدو أن رفاقهم قد نقلت من منطقة أورشليم أثناء الحملات الصليبية.. وفي الحرب العالمية الثانية تعرضت مدينة كولونيا إلى قصف جوي عنيف من طائرات الحلفاء، وبما يشبه المعجزة لم تتضرر الكاتدرائية كثيراً على الرغم من الآثار التي تركتها ١٤ قنبلة أصابت أجزاء جانبية

منها. إلا أن الحقيقة التي يعلمها الجميع أن ميثاق شرف ساد أوساط الطيارين يقضي بعدم قصف الكنيسة مهما كانت الأسباب والدوافع وأن الحالة المعمارية الفريدة التي احتفظت بها كاتدرائية كولونيا لم تقتصر عليها وحدها بل امتدت تقريباً إلى كل التراث الكنسي والمعماري في ألمانيا.

إذاً ما يجرى الآن من حرب المساجد والأضرحة في العراق يتجاوز مسميات القتلة واللصوص ومجريات الأحداث في الحروب العالمية ،ويطيح جانباً بكل قيم الإنسانية التي رأينا العالم يدافع عنها عندما أقدمت طالبان على نسف وتحطيم تماثيل بوذا.

والمقارنة بين الموقفين تدفعني إلى التساؤل عن المحرك الحقيقي لبوادر الحرب الأهلية التي تدق بعنف أبواب العراق وتذهب معها أصوات العقلاء في مهب الريح! هل هناك من يتربح بإشعال الحرب الأهلية وفق نسق ديني بين السنة والشيعة؟ الإجابة بنعم، والمتهم الأول هو الاحتلال وعملاؤه حتى لو كان هذا غير صحيح لأن النتائج النهائية تصب في خانة المحتل، واستمرار بقائه ينهب ثروات وأعراض العراق مرهون بإنشغال أبنائه في حرب أهلية لا تذر أخضر أو يابس وليس هناك أفضل من حرب دينية وقودها المساجد والبشر.لكن القاعدة الأساسية أن النار دائماً ما تمسك أولاً بمن أشعلها ثم بمن يلعب بها وأخيراً تلتهم مقاعد المتفرجين؛ وإذا تصور النازيون الجدد أن سياسة الأرض المحروقة يمكنها أن تأكل العراق فقط فهم واهمون، وإذا

تصوروا أن قرع طبول الحرب تجاه إيران يمكن أن يطيل من عمر بقائهم في سدة الحكم داخل بلادهم باعتبار أنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة فذلك لأنهم اعتبروا شعوبهم من الرعاع الذين يجب أن يُساقوا إلى المذبحة دون أدنى اعتراض، ومن عايش الشعب الأمريكي مثلي يدرك تماماً أن هذا غير صحيح وأنها مسألة وقت رغم كل ما أُنفق من أموال الدعاية الكاذبة لتضليله وجره إلى حرب الأكاذيب، ولم تمنعه من التساؤل عن قدرة الولايات المتحدة على الدخول في حرب جديدة مع إيران!!

الانتحار في تل آبيب

أتصور أن السؤال الذي يجب أن يُسأل في ضوء الدراسة التي صدرت مؤخراً عن جامعة هارفارد الأمريكية، بعنوان «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأمريكية»،وأعدها أستاذ العلوم السياسية في جامعة شيكاغو "جون ميرشايمر"، بالاشتراك مع أستاذ الإدارة في جامعة هارفرد "ستيفان والت"، لا يجب أن يدور حول صحة ما جاء بها، لأنها في واقع الأمر دراسة تقريرية تقرأ من الواقع ولا تحتاج إلى جدل لإثباتها ولكن التساؤل الذي يجب أن يطرح ــ إذا ما صدقنا هذا ــ هو عن جدوى تعامل المجتمع الدولي مع دولة بكل هذا الضعف الذي أمكن فيه لجماعة سياسية ما أن تحتل هرم السلطة ــ في أقوى إمبراطورية في تاريخ البشرية ــ وتسير بها عكس طموحاتها ومصالحها القومية طوال العقود الماضية، وتوجهها نحو هدف واحد فقط هو حماية أمن إسرائيل ؟!!!.وإن صح ذلك فماهي حقيقة قدرة النظام السياسي الأمريكي على الأداء الوطني لصالح شعبه في ظل تلاعب قوى الضغط الصهيوني بـه؟ ولماذا الآن حشد الكراهية تجاه اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ، والتضخيم المتعمد من دوره التآمري على العرب والمسلمين والشرق الأوسط؟ لماذا يجب أن نصدق أن وراء كل مصائبنا وكوارثنا اليهود والصهيونية فقط رغم أنهم مجرد ترس في آلة قوى استعمارية ؟ هل تريد منا أمريكا أن نصدق حقاً أنها

صنيعة اليهود وليس العكس؟ أم أنها تزرع اليأس في نفوس الانتحاريين العرب من أية بارقة أمل في سياسة عادلة منصفة وتدفعهم إلى تفجير قلب إسرائيل نيابة عنها؟

لقد داعبت القوى الاستعمارية أحلام اليهود في وطن مستقل وزودهم بالسلاح والخرائط والعتاد لتحقيق حلمهم فوق أجساد العرب بفلسطين، ثم صنعت منهم قوة نووية لتبث الرعب وتزيد من الكره لهم، تماماً مثلما تفعل الآن من مداعبة أحلام الأكراد بوطن مستقل وحكم ذاتي حتى جعلت منهم وقوداً لتفتيت العراق واستنساخاً لإسرائيل.

اللعبة الكبرى تدار بواسطة القوى الاستعمارية فهي المستفيد الأول من كل هذا القتل والدمار ،وعندما تستنفذ أغراضها من اليهود سوف تمارس ضدهم الإبادة مجدداً ،وعندما تستنفذ أغراضها من الأكراد سوف تلقي بهم لقمة سائغة مثلما فعلت من قبل عندما زودت النظام العراقي البعثي بالأسلحة الكيماوية لإبادتهم.

هل حقيقة أن اللوبي الإسرائيلي في واشنطن أقوى من لوبي صناعة السلاح الذي يمثله ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي؟ أو لوبي صناعة النفط الذي يمثله الرئيس الأمريكي نفسه ؟ لا أصدق أن اللوبي الإسرائيلي هو الذي يحكم أمريكا وحده ،وأن الإدارة الأمريكية لا حول لها ولاقوة! ولا أصدق التفسيرات الدينية التي تصفهم بعصابة المتصهينين داخل البيت الأبيض –

وليس هذا دفاعاً عن إسرائيل- ولكن محاولة لإعـــادة قـــراءة التفسير التآمري الذي تقدمه لنا جامعات أمريكـــا، ليقـــيني أن الحقيقة لا تقدم أبداً فوق طبق من ذهب أو فضة ولكنها تنتزع من بين أنياب الخصم، فالدراسة تؤكـــد أن إســـرائيل عـــبء استراتيجي على أمريكا ــــ على عكس ما يـــصوره أصـــدقاء إسرائيل ــــ كما اتضح في حرب الخليج الأولى ١٩٩٠، وكما يتضح من الحرب ضد الإرهاب والمواجهة مع الدول المارقـــة، والدراسة تقدم لنا تفسيراً مرضياً لأحداث ١١ سبتمبر مـــن أن "بن لادن" استهدف بوضوح معاقبة أمريكا بسبب سياساتها في الشرق الأوسط بما في ذلك مساندة إسرائيل غير المشروطة ، إلا أنها لا تقول لنا ما هي الاستفادة الحقيقة لأمريكـــا مـــن زرع إسرائيل في قلب العالم العربي وبذل كل هذه الدماء والأمـــوال من أجل استقرار إسرائيل؟ ولو صـــدقت تقـــديرات حـــارث الضاري حول القتلى الأمريكيين في الحرب العراقية ،وهو ١٤ ألف جندي وتحضير أضعافهم للسلخ في إيران، فإن إســـرائيل واللوبي الإسرائيلي سوف يذبحان قرباناً للرأي العام الأمريكي، وخطورة بن لادن الحقيقية أنه نظر إلى ما وراء القصص الخرافية عن اللوبي الصهيوني، ورأى أن الفاعل الأصلي هو أمريكا ذاتها وليس وكلاءها في المنطقة لأنه كان يوماً ما صنيعة لهـــم مثـــل اللوبي الصهيوني!.

فوبيا التطبيع

من يجب أن يسكنه الخوف ولا يغادره من قــدر التطبيــع المحتوم في ملف الصراع العربي الإسرائيلي؟! ولمــاذا يجــب أن يتملكنا الخوف وترتعش الأيدي كلما امتدت بالسلام لإسرائيل أو بالعكس؟! قد تصلح فوبيا الخوف في دائرة العامة لكنــها لا يمكن أن تنطلي على دوائر صناعة السياسة والرأي العام.. بمعنى أن العالمين ببواطن الأمور يدركون جيداً أن تطبيع العلاقــات العربية الإسرائيلية مرفوض ومكروه كراهية التحريم من جانب إسرائيل أكثر من العرب ،لأن ذوبان خمس ملايين إسرائيلي في طوفان العرب الذي يحاصــرها بكــل أمراضــه الاجتماعيــة والصحية هو أيسر من ذوبان ذلك الطوفان داخل إسرائيل بل هو أشد خطورة عليها من كل الحــروب والجيــوش العربيــة مجتمعة.. إسرائيل قد تنجح من خلف جدار المقاطعة في تصدير كل أمراضها الاجتماعية إلى العالم العربي لكنها لحظــة انهيــار ذلك الجدار لن تستطيع احتجاز الزحف السلمي نحو حدودها المصطنعة.. ولن يمكنها التصدي للجهل والفقر والبطالة والمرض والأوبئة والفساد الذي يترقب لحظة الانقضاض علــى مجتمــع الرفاهية المدعوم أمريكياً.. لقد بدأ الشك يتسرب لــديّ في أن الكارهين للتطبيع إنما يقدمون خدمات جليلة للكيان الصهيوني بالحفاظ على نقائه الحضاري بعيداً عــن التلــوث الحــضاري العربي..أو أن بعض الشرائح المجتمعية أصــبحت تــستعذب

الاستئثار والاحتكار للتطبيع مع إسرائيل لما تدره عليه من تدفقات نقدية ومكانة سياسية داخل أروقة السياسة الأمريكية.. كيف يمكن الحديث عن السلام مع إسرائيل والمبادرة العربية من وراء حجاب أو تفويض أسطوات التطبيع - مصر والأردن- للتفاوض نيابة عن العرب ؟ ولماذا ينبغي على إسرائيل أن تستجيب ليد السلام الممدودة من خلف حجاب أو من رجل البنطلون حسب رواية السوقة و العامة؟. نحن في احتياج شديد لإغلاق ملف الهبل العربي والنظر إلى إسرائيل في عينيها عبر طاولات التفاوض مثلما فعل أنور السادات رحمه الله.. والمؤلم أن البعض يحلو له تصوير المبادرة العربية أنها عرض مهين ومذل للعرب رغم إقرار إسرائيل أن حربها مع حزب الله كانت فضيحة عسكرية.. لماذا التهوين الدائم من الموقف العربي والتهويل الكاذب للقدرات العسكرية والسياسية الإسرائيلية؟ أو تصوير المبادرة على أنها طوق نجاة لأولمرت والحكومة الإسرائيلية من أزمتها السياسية المتصاعدة منذ حرب حزب الله وإضاعة الفرصة على طهران للعب بالورقة الفلسطينية لاجتذاب التعاطف العربي في أزمتها النووية؟ من نصدق من العرافين والدجالين ومحترفي الاتجار بالدماء العربية والفلسطينية؟! فكلما لاحت في الأفق بادرة اختراق لمعضلة الصراع العربي الإسرائيلي إذا باللعنات والسباب ينهمر! والمؤامرات لا تنقطع! والخطابة تشتعل! لتأتي الخطوة منقوصة خالية من شجاعة اختراق جدار الشك الذي عبر منه بمصر مرة

واحدة أنور السادات. فبعد أن كان السلام مقابل الأرض هـو شعار الستينيات تحور ليصبح السلام مقابل الأمن في التسعينيات ليصبح السلام مقابل التطبيع في الألفية الثالثة، وقد يصبح خلال بضع سنوات مهدرة أخرى هو السلام على يد محضر أمريكي في بيت الطاعة الإسرائيلي!! أو يحـدث العكـس و تـضطر إسرائيل إلى قبول وزير من حزب الله أو حماس في حكومتـها الائتلافية! فالمعادلات السياسية بالمنطقة أصبحت في حالة سيولة وتغير بفعل المغامرات العسكرية الأمريكية الفاشلة في العـراق والتورط المرتقب في طهران، وانتقال عدوى الفوضى الخلاقـة إلى داخل إسرائيل وارد أيضاً.. نعم السلام لم يعد عزفاً عربيـاً منفرداً في مقام الإذلال كما يصوره تجار الدم الفلسطيني ،لكنه مسألة بقاء أو فناء لإسرائيل مع اختلال توازن الردع النـووي بالمنطقة.

كوز السلام اتخرم!!!

اجتهدت وغيري كثيراً بحثاً عن تفسير سياسي لمقولة الأمين العام لجامعة الدول العربية السيد عمرو موسى "العرب انضحك عليهم" رغم أن العبارة أنتجت تحركاً سياسياً عالي المستوى في الجمعية العامة للأمم المتحدة في دور انعقادها الحالي ،وأثمرت عن توجه المجموعة العربية لمجلس الأمن لإدارة ملف الصراع العربي الإسرائيلي بمعرفته بعد سنوات من الإستربتيز السياسي الأمريكي الفاضح في أحضان إسرائيل.. وتوصلت في النهاية إلى تعريف علمي هو "المربع صفر" وآخر أكثر إيلاماً وتعبيراً عن مجمل الواقع العربي وهو "الكوز اتخرم" .. وقد يكون ذلك مقبولاً ومتعارفاً عليه في علم السياسة.. لكنه لا يفسر مستقبل الصراع بدءاً من "المربع صفر" مجدداً متسلحين بالكوز المخروم!! ولا يخبرنا هذا التفسير بالنتائج المتوقعة من تحركنا في نفس مسارات الفشل وكأن شئ لم ينكسر أو – عفواً – يتخرم؟؟ لذا سأجتهد في قراءة الحصاد السياسي لأدوات الصراع ،وهما تحديداً السلام والحرب.. والسلام هنا يمر من بوابة قرارات المنظمات الدولية ممثلة في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة، وهي مؤسسات كان لها دور حيوي إبان حقبة التوازن الدولي والقطبية الثنائية في إنتاج مفاهيم وتعريفات لأبجديات الصراع.. فهذا احتلال .. وتلك مقاومة مشروعة .. وذاك جيش احتلال .. وهذه أرض محتلة .. وهؤلاء لاجئون... إلى آخر قائمة المصطلحات المعروفة التي حفرت في الوجدان

وفي العقل العربي يقظة غير مسبوقة .. وعلى مدى عشرات السنين أصدر مجلس الأمن عشرات القرارات التي تدعم مشكورة الحقوق العربية في قضية فلسطين .. ومع كل قرار مشكور إذا بالمزيد من الحقوق العربية تأخذ طريقها إلى الضياع.. وإذا بالأراضي المحتلة تصبح مستوطنات .. والمستوطنات تأخذ صفة شرعية وفق منطق القوة تخلق الحق وتحميه.. ونحن نمارس بكل فخر توجيه الشكر لمجلس الأمن على قراراته الشجاعة بأرقامها الجذابة المميزة (٢٤٢) ونمارس قتل الوقت واستهلاك الفرص التاريخية في الشجب والإدانة والتنديد.. إلى أن فاجاءتنا أحداث سبتمبر، فإذا بتآكل غير مسبوق في التعريفات والمصطلحات والمفاهيم التي أنفقنا أجيال في سبيل التوصل إليها .. فتصبح المقاومة المتعارف عليها في القانون الدولي شكل من أشكال الإرهاب ،والاحتلال دولة شرعية ،والمستوطنات مدن آمنة، واللاجئون مجرد لصوص تاريخيون بُعثوا من القبور للسطو على أرض إسرائيل الكبرى.

وفي أجواء خلخلة التنظيم الدولي المستمرة منذ انهيار القطبية إذا بالسيد عمرو موسى يدفع بنا مجدداً إلى مجلس الأمن .. إلى المربع صفر .. إلى مرحلة إنتاج المزيد من المصطلحات والمفاهيم والتعريفات ولكن مع فارق بسيط، هو غياب التوازن الدولي وحضور متميز للانحياز الأمريكي للخصم الإسرائيلي.. المعنى أن المربع صفر الذي انطلقنا منه قبل ٦٠ عاماً لم يعد له وجود

بالأساس ،وما سنعود إليه هو الوهم المتبدد أو ـــ عفواً "الكوز المخروم".. القراءة الثانية تنظر إلى الملف كصراع مسلح تـــدور فيه الحرب سجال و لم يحسم فيه النصر المطلق لأي طـــرف.. وترى أن بعض ما أنجزته قوى عربية ـــ مصر في حرب أكتوبر والمقاومة اللبنانية إبان رئاسة رفيق الحريري ـــ يعود الفضل فيه إلى صوت السلاح، تلك اللغة التي لا يفهم ســـواها الخـــصم الإسرائيلي.. ولكن تلك القراءة تآكلت أيضاً بعد أن أصبحت أحذية الاحتلال الأمريكي ترقد فوق جثمان بلد عربي يجـــري تقسيمه بمبضع جراح ،ونظرية الاستدراج تسيطر علـــى فكـــر أطراف الملف وتروج لها قناة الجعيرة؛ إذاً كل الخيارات فشلت سواء في التسوية أو في فرض الأمر الواقع .. القراءة الثالثة أكثر كارثية لأنها تهدد بضياع "الكوز المخروم ذاته" بتعميم النموذج الإسرائيلي في المنطقة ، ومؤشراته تتجه نحو الأكراد ودولتـــهم الجديدة في إقليم كردستان ،وهـــو الـــسيناريو الـــذي يحقـــق للولايات المتحدة حليفاً وثيقاً بالشرق الأوسط الجديد، مثلمـــا حدث عام١٩٤٨ عندما غرست بريطانيا إسرائيل في المنطقـــة العربية وقائمة التفتيت لاحصر لها؛ إذاً نحن لم نعد في احتيـــاج إلى العودة إلى مجلس الأمن.. نحن في احتياج أشد لإعلان توبة من مجلس الأمن والأمم المتحدة والولايات المتحـــدة والجامعـــة العربية ثم الدعاء!!؟

وعد بلفور الأمريكي

ذلك هو ما حصدناه من قمة الخرطوم العربية، بعد أن حرصنا ألا نبتسم "عشان الصورة تطلع حلوة" وبدلاً من ذلك نشرنا غسيلنا القذر على الملأ، فأيقن العالم أنه لا خطورة حقيقية من النظام الإقليمي المصاب بـ" داء الصلع". ولا يمكن قياس التحول اللافت في موقف الولايات المتحدة تجاه التسوية النهائية للنزاع الفلسطيني ــ الإسرائيلي دون قراءة تلميحات وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس إلي أن واشنطن يمكن أن تقبل قيام إسرائيل بترسيم حدودها النهائية في الضفة الغربية بحلول عام ٢٠١٠ بشكل أحادي الجانب. ودون الرجوع إلى احتفالية مراسم إكرام الميت في الخرطوم.

فغياب ثمانية قادة، ثم وصلة الردح اللبناني المستمرة لما بعد انتهاء أعمال القمة دفعت كونداليزا رايس إلى عدم استبعاد احتمال دعم بلادها خطة حزب كاديما بزعامة رئيس الوزراء بالوكالة إيهود أولمرت، بترسيم الحدود النهائية لإسرائيل دون التشاور مع الفلسطينيين، في حال التأكد من عدم إمكان استئناف عملية السلام.

وساقت الوزيرة الأمريكية مبرراتها في هذا التصور، وهي أن نجاح الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة العام الماضي، وفوز حركة حماس في الانتخابات الفلسطينية وتشكيلها الحكومة الجديدة، غيّر من معادلة عملية السلام في الشرق الأوسط.

وأجدني عاجزاً عن معارضة الدكتورة كونداليزا في رؤيتـــها باعتبار أن السياسة هي فن الممكن وليس المستحيل ،خاصة وأن نظاماً إقليمياً عربياً أصلعاً سيكون عاجزاً عن تحقيق أي تـــوازن في الصراع العربي الإسرائيلي أو ردع وعـــد بلفـــور جديـــد, وبالتالي فهو مأمون الجانب خالي من الكوليسترول.. ويبدو أن السياسة الأمريكية لا زالت هي الأخرى عاجزة عن فهم وقراءة المزاج العربي رغم أحداث سبتمبر التي من المفترض أنها أحدثت نسبة إيقاظ طفيفة للعقلية السياسية الأمريكية لكـــن هـــذا لم يحدث أيضاً، وأغفلت عن قراءة مستوى النظام الإقليمي العربي غير الرسمي ،أو بمعنى آخر الشارع العـــربي الـــرافض لفكـــرة التفاوض مع إسرائيل أو التطبيع أو سياســـة الأمـــر الواقـــع, واكتفت بالتلذذ من مشاهدة التفاعلات السلبية على المـــستوى الرسمي. وخلال فرط إغراقها في تأمل المشهد السياسي العـــربي الرسمي تسللت حماس إلى سدة الحكم في السلطة الفلـــسطينية بقرار من الشارع الفلسطيني ،ومرة أخرى لم تقـــرأ الرســـالة فأمرت دبلوماسييها ومسئوليها بعدم إجراء أية اتصالات مـــع الوزارات الفلسطينية بعد أداء حكومة حماس اليمين الدستورية وأرسلت بالبريد الإلكتـــروني إلى الدبلوماســـيين الأمـــريكيين والمسئولين الآخرين في المنطقة، تحظر عليهم بأثر فوري إجـــراء اتصالات مع الوزراء الذين عينتهم حماس سواء كانوا أعضاء في الحركة أم لا.. فالولايات المتحدة تقبل رئاسة متطرف وإرهابي إسرائيلي لكنها ترفض مقاوم فلسطيني يناضل من أجل تحريـــر

أرضه المسلوبة وتعتبره إرهابياً جاء للحكم بانتخابات حرة ديمقراطية, كما عبر عن ذلك الرئيس الأمريكي جورج بوش من أن دعم حكومة تترأسها حماس أمر لا معنى له، وأن واشنطن تدعم الديمقراطية وإجراء الانتخابات، لكن هذا لا يعني أنه يتعين عليها دعم الحكومات المنتخبة نتيجة الديمقراطية.

ليس بالجديد أن تدير الولايات المتحدة الأمريكية ظهرها للفلسطينيين ،فهو أمر اعتدناه منذ زمن بعيد، لكن ليس من الذكاء أن تترلق لبرامج العزلة الإسرائيلية الاختيارية، فترسيم الحدود الإسرائيلية من جانب واحد يعني حصاراً سياسياً لإسرائيل ،ومن يساندها ويحول كل معاهدات السلام إلى حبر على ورق ويحول المنطقة إلى برميل بارود ينتظر من يشعله وفتيله سياسة الأمر الواقع.

إختراق إسرائيلي

كم من سنوات أعمار شعوبنا أضعنا في حصار إسرائيل؟.. وكم من الطاقات والجهود والمعارك السياسية استنفذتنا لإحكام هذا الحصار؟.. وماهي المحصلة النهائية والحصاد المر لكل تلك الألاعيب؟.. الإجابة بكل أسى :صفر..لاشئ.. لم نحقق أدنى خطوة إلى الأمام بل كلها خطوات إلى الخلف..ماذا يعنى ذلك؟ وكيف نفسر نجاح إسرائيل الأخير بتأميم ما كنا نطلق عليه القنبلة الإسلامية الباكستانية..أو فتح بعثة دبلوماسية سرية في دبي؟ .. هل تداعيات ١١ سبتمبر وحدها كافية لتفسير أسباب التراجع العربي ؟ أم أن كامب ديفيد كانت هي ذاتها لحظة التراجع ؟أم أن البحث عن شماعة للأخطاء باتت عقيدة لا غنى عنها لكى يستمر النظام الإقليمي العربي حتى وإن سقطت كل العواصم العربية في قبضة الاحتلال أياً كان هذا الاحتلال عسكرياً أو ثقافياً أو اقتصادياً أو حتى استهلاكياً كرقائق البطاطس؟.

الحقيقة أننا أضعنا كماً هائلاً من الفرص للانتصار لقضايانا لا مثيل له.. فكامب ديفيد كانت الاختراق العربي الحقيقي لإسرائيل وللعقلية الاستعمارية لأنها أسقطت كل الحواجز والموانع النفسية التي عكف على تشييدها كل صقور إسرائيل.. أما غزوة مانهاتن كما يطلق عليها معسكر بن لادن فقد أذابت في جحيمها كل جسور التفاهم والتواصل بالولايات المتحدة

،ثم بالمجتمع الدولى وحولت الإسلام إلى إرهاب والعـرب إلى قتلة لايمكن التعاطف مع قضاياهم بأية حال من الأحوال، وإذا كان هذا التعاطف مفقود بالفعل قبل ١١ سبتمبر فبعدها لـن تقوم له قائمة..وهو ما دفع الـبعض إلى تـصوير التقـارب الإسرائيلى الباكستانى كأحد معطيات مسرحية الانسحاب من غزة رغم أن حقائق السياسة غير ذلك، فالمعروف أن باكستان على مدى أكثر من نصف قرن نظرت إلى علاقاتهـا بالعـالم بأسره من ثقب صراعها التاريخي والإستراتيجي مـع جارتهـا الكبرى الهند، ولذلك فإنه لابد من النظـر إلى الخطـوة الـتي أقدمت عليها حكومة برويز مشرف مـن زاويـة الـصراع الباكستاني / الهندي،ومن زاوية التطور الأخير [1] الدراماتيكي [1] والهائل، بين نيودلهي وتل آبيب الذي سبقته علاقات أمريكية / هندية غير مسبوقة ، وبالطبع فإن إسرائيل - القلقة جداً مـن إيران والتي تراودها مخاوف كثيرة تجاه الإمكانيـات النوويـة الباكستانية والتي واصلت مدَّ يدها إلى تلـك المنطقـة- قـد استغلت الفرصة وأقامت علاقات متقدمة مـع الهنـد وعلـى الأصعدة كافة، كذلك فإن الدول العربية أخذت تنسج عـرى علاقات متينة مع الهند حتى في ذروة المواجهات العسكرية بينها وبين باكستان.. وكل الدول العربية أجرت اتصالات بإسرائيل إن سراً وإن علناً ولا يجوز أن يطالبها العرب بمـا لا يطـالبوا أنفسهم به!! وهذا هو الذي ألجأ برويز مشرف إلى المـسارعة إلى إعادة النظر بحساباته واتخاذ الخطوة الأخيرة التي اتخذها.

إذاً إسرائيل ما كان لها أن تنجح سوى بأخطائنا وبضعفنا السياسي ونظرتنا الأحادية إلى مصالحنا دون مصالح حلفائنا أيضاً ،ثم بخناجرنا الموجهة إلى نحورنا كما حدث في اغتيال الحريري وقبله غزو الكويت في التسعينيات ،واستنفاذنا طاقاتنا لنحو ١٤ عاماً في ترويض النظام العراقي حتى سقط وجر المنطقة وراءه إلى جحيم التدخل الأمريكي الذي بدوره أيضاً وجد نفسه مدعواً إلى حفل شواء عراقي يذبح كل يوم منه ما لذ وطاب ، والأمريكيون لا يريدون أن يصدقوا أنهم باتوا يشاركون العرب في المستنقع العراقي ؛ ورغم التآكل في تحالفات النظام الإقليمي العربي فإن القمم العربية تنعقد دون أدنى إشارة أو أية دمعة حزن أو طرح رؤية لمستقبل العلاقات بدول الجوار العربي ،وكأن الأمر يعني غيرنا ولا يقدم أو يؤخر في مسار الانحدار، وعندما يقوم تحالف في خاصرة باكستان يضم الهند، عدوها التاريخي الإستراتيجي، والولايات المتحدة المُسيْطرة على العالم كله وإسرائيل بدهائها وقوتها وتأثيرها على صنّاع القرار في واشنطن، نقف متفرجين في سينما السيارات!!!.

رصاصة الرحمة

كتب شارون بمهارة فائقة سيناريو نهاية خريطة الطريق بأسلوب دموي درامي يصارع أبرع كتّاب الخيال في هوليوود وربما في تاريخ الرواية العالمية، ربما لأنه كان صادقاً مع نفسه منذ اللحظة الأولى التي قبلها، ثم غير معالمها لتصبح خريطة للموت ويتوجها باغتيال إسماعيل أبو شنب.

ليس من قبيل الصدفة أن يقوم شارون بالشيء ونقيضه في الوقت ذاته، وذلك بعد ثلاثة أشهر من إعلان خطة "خريطة الطريق"، وبعد شهر واحد على إعلان الهدنة والتهدئة من جانب الفلسطينيين. فالأمر بالنسبة إليه ليس أكثر من مجرد لعبة علاقات عامة وتقطيع للوقت واستجابة صورية، لبعض متطلبات السياسة الأمريكية في المنطقة.

وفي سياق حديث شارون عن "تسهيل" الوضع أمام حكومة محمود عباس، سرّبت الحكومة الإسرائيلية الخطط المتعلقة باعتزامها تعزيز الاستيطان في القدس وغور الأردن وقطاع غزة (دفعة واحدة)! إلى جانب الاستمرار في بناء "الجدار الفاصل"، والإصرار على التلاعب بقضية الانسحاب من المدن الفلسطينية وإبقاء عشرات الحواجز العسكرية على مفارق الطرق، لتنكيد عيش الفلسطينيين.

أيضاً في غمرة انشغال العالم بمشاهد مسرحية الإفراج عن بعض المعتقلين الفلسطينيين (٥ بالمئة منهم!)، وتفكيك بعض

النقاط الاستيطانية (العشوائية)، ورفع عدد من الحواجز عن بعض الطرقات، أعلن شارون جهاراً نهاراً أنه لم يقدم شيئاً للفلسطينيين، وأنه لا يوجد جدول زمني ملزم لإسرائيل بالنسبة للاستحقاقات المطلوبة منها في "خريطة الطريق"، وأن كل شيء منوط بقيام الفلسطينيين بمحاربة "الإرهاب"! ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ شنّ الجيش الاسرائيلي حملة اعتقالات واغتيالات في عدد من المدن الفلسطينية، مما أدى فيما أدى إليه، إلى مصرع اثنين من كوادر حركة حماس في مدينة نابلس.

ويبدو من كل ما تقدم أن حكومة شارون كعادتها كانت تتوخّى من وراء هذه الحملات السياسية والعسكرية هذه تعزيز ضغوطها على الفلسطينيين وإثارة المشكلات في صفوفهم واستفزازهم، لدفعهم بالتالي تجاه التخلي عن الهدنة التي التزموا بها من طرفهم ، استجابة منهم لمساعي التهدئة الدولية والإقليمية.

والأرجح في هذه المرحلة أن إسرائيل باتت تشعر بخطورة المأزق الذي تمر به إزاء استحقاقات عملية التسوية وبضرورة التخلص منه، فبغض النظر عن ملابسات الهدنة وكل الاجحافات المتضمنة في خطة "خريطة الطريق" بالنسبة إلى الفلسطينيين، فإن التوافق الفلسطيني على الهدنة والتهدئة وضع شارون وحكومته في موقف حرج على الصعيد الدولي، ولا سيما إزاء الإدارة الأمريكية وإزاء التعامل مع الواقع الفلسطيني الجديد المتمثل بحكومة محمود عباس.

كان هاجس شارون من هذا الموقف المزدوج يتمحور حول غايات عدّة، لعل أهمها، أولاً: التملّص من الضغوط الدولية بشأن التهدئة والتسوية مع الفلسطينيين، والظهور بمظهر المساير لتوجهات الإدارة الأمريكية في الشرق الأوسط، لا سيما بعد احتلال العراق.

ثانياً: الحفاظ على استقرار الوضع الحكومي في إسرائيل، فبقبوله الخطة الأمريكية أرضى أنصار التسوية من جهة، واستطاع أن يحظى بثقة المعارضة وعدم تقيّده به، من الجهة الأخرى.

ثالثا: محاولة إثارة التناقضات في الساحة الفلسطينية، لإرباكها وإثارة الاحتراب الداخلي بين أطرافها.

رابعا: الاستفادة من عامل الوقت، على مختلف الأصعدة، للتهرّب من استحقاقات عملية التسوية مع الفلسطينيين، ولفرض الوقائع على الأرض التي تلائم المصالح الإسرائيلية.

فمثلاً وقتها وبعد أشهر قليلة ستدخل إدارة الرئيس بوش في أجواء الانتخابات الأمريكية مما يشغلها -ربما- عن ملف الشرق الأوسط، كما أن الأوضاع في العراق قد تفتح الباب على احتمالات غير متوقعة ربما تتيح لإسرائيل التهرب من استحقاقات عملية التسوية مع الفلسطينيين.

وعامل الوقت من جانب إسرائيل- كما هو معروف- ليس وقفة للتأمل، بل إنه وقت لفرض الوقائع الجديدة، أي لبناء

المستوطنات والجدار الفاصل وتهويد القدس وتنكيد عيش الفلسطينيين، مما يجعل إسرائيل أكثر قدرة على فرض إملاءاتها في المرحلة الأخيرة من المفاوضات، التي ستحدد مصير قضية اللاجئين والقدس والمستوطنات والحدود، فكل ذلك سيؤدي ـ بحسب إسرائيل ـ إلى تعقيد قضايا التسوية، وربما تبديدها، مما يخلق ضغوطاً جديدة وكبيرة على القيادة الفلسطينية.

وبالطبع فإن شارون لم ينتهج هذه السياسة من فراغ، إذ أنه يستغل جملة من العوامل والتطورات لإنجاحها، لعل أهمها:

١- ضعف إدارة العمل الفلسطيني بسبب استمرار التجاذبات السياسية في الساحة الفلسطينية، بين السلطة والمعارضة، أو بين التيارات المختلفة العاملة في إطار السلطة، ٢ـ حال الاستطراف التي يعيشها الشعب الفلسطيني منذ بداية الانتفاضة، منذ ما يقارب الثلاثة أعوام، ٣ـ انحسار المعسكر الإسرائيلي المؤيد لعملية التسوية مع الفلسطينيين، لصالح القوى اليمينية المتطرفة، ٤ ـ واقع وجود إدارة أمريكية تتبنى وجهة نظر "ليكودية"، في التعاطي مع عملية التسوية وبشأن تشكيل النظام الإقليمي في المنطقة. ٥ـ تفكك الوضع العربي وضعف احتضانه لقضية الفلسطينيين، لا سيما إثر الاحتلال الأمريكي للعراق والتداعيات الكبيرة والخطيرة الناجمة عنه.

الدائرة الخبيثة

يدرك كثيرون أن المواجهة الفلسطينية / الإسرائيلية دخلت منذ زيارة شارون للمسجد الأقصى إلى رحاب الدائرة الخبيثة التي تحكمها قاعدة وحيدة ،وهي أن العنف يؤدي إلى مزيد من العنف وهي حسبة لم يدركها شارون لفترة من الزمن، ورأى مع حليفته الرئيسية (الولايات المتحدة) أن خلط الأوراق والمسميات بتسمية مقاومة الاحتلال إرهاباً كفيل وحده بكسر تلك الدائرة، وذهبا معاً إلى أبعد من ذلك بأن إطلاق يد شارون لقتل المدنيين والأطفال ثم المزيد من القتل بتصفية قيادات الانتفاضة ما سيجعل حسم القضية أسهل، وأن بناء الجدار العنصري سيزيد من تكريس الاحتلال .. لكن أنهار الدماء التي تفجرت على الجانبين والأبرياء الذين سقطوا ضحية تخاريف السياسة دفعت بكل الأطراف مجدداً إلى المربع صفر.والقراءة المتأنية لنتائج اجتماعات شرم الشيخ وقتها تؤكد ذلك ،وهو أن الملف الأمني كان الوحيد المطروح على مائدة البحث دون أي حديث عن تسوية شاملة، فقط وقف إطلاق نار متبادل، وقد يثير ذلك الضحك عند سماعه لأول وهلة ! فأين هي قوة النيران الفلسطينية المخيفة التي تهدد أمن إسرائيل وترسانتها من الأسلحة الأمريكية بل ومصانع السلاح التي تنتظر إشارة إصبع من أي رئيس أمريكي لإغراق إسرائيل بالسلاح؟،لكن حقيقة الأمر لا تتضمن أي إضحاك بل إدراك

لانهيار نظرية أمن جدار الفصل العنصرى بسيل من صـــواريخ القسام التي لا تعدو في مراحلها البدائية كونها مواسير صـــرف صحى، لكن من يدرى مع مرور الوقت فقد تتحول صـــواريخ الصرف الصحى لحمل أنواع مدمرة من الـــسلاح يعلـــم الله وحده إلى أي مدى يمكن أن يصل الأمر في نهايته؛ إذاً استمرار إطلاق الصواريخ يفضح إستراتيجية الأمن الإسرائيلى ويكشف عن إهدار ملايين الدولارات في كتل أسمنتية لا تحقـــق الأمـــن للمواطن الإسرائيلى دون حل سياسي حقيقي ويهدد المستقبل السياسي لكل من ساند وأيد بناء الجـــدار داخـــل إســـرائيل وخارجها.

الأمر الثانى : يكشف أن إسرائيل قد تجر معهـــا إلى المربـــع صفر الولايات المتحدة أيضاً والتي تواجه وضعاً أكثر تأزمـــاً في العراق تلهث فيه لتعبئة الفراغات السياسية التي خلفتها الحرب وهو ما بدا واضحاً من ضعف التمثيل الأمريكي في اجتماعات شرم الشيخ واقتصارها على تمثيل دبلوماسى محدود يرقـــى إلى مستوى مراقب، وهو أمر ليس معهوداً من الولايات المتحـــدة، دفعها إليه الحرص على عدم التـــورط في إخفاقـــات شـــارون بشكل تهتز معه صورتها في المنطقة أكثر مما هو عليه الأمر الآن، والإكتفاء بدور قوى إقليمية ـــ مصر والأردن ـــ لكسر الدائرة الخبيثة.

نعم إن إنهاء العنف المتبادل سيكون مدخلاً لأية مفاوضات ترمي إلى تسوية سياسية، لكن من الخطورة اختزال القـــضية في

انهاء عسكرة الانتفاضة من جهة ،وإرهاب الدولة الذي تمارسه قوات الاحتلال الإسرائيلي من جهة أخرى وإدارة الظهر لباقى الملفات، أو التسويف والإطالة في حسم سياسى لكل الملفـــات المفتوحة رهاناً على ضعف الطرف الفلسطينى في فـــرض أيـــة حقائق بالقوة أو بالتفاوض، لأن ذلك الرهان سقط بالفعل مع بدء الانتفاضة الثانية وسقط معه عشرات المدنيين الإســـرائلبين الذين خدعهم شارون عندما وعدهم بالقضاء على الانتفاضـــة في غضون عام من توليه رئاسة الوزراء، ليزداد الوضـــع أكثـــر دموية.

"أولمرت" ودبلوماسية البروستاتا

يُشكل الإعلان الطبي لرئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت عن إصابته بسرطان البروستاتا سابقة أولى من نوعها في مسيرة التفاوض العربي /الإسرائيلي، وإضافة نوعية للجهود السلمية الأمريكية في المنطقة ،فليس هناك أفضل من البروستاتا سبباً لرفع الحرج عن الإدارة الأمريكية والتراجع عن عقد المؤتمر بعد التخاذل العربي عن الاستجابة كرهاً أو طواعية لمخططات السلام الأمريكية.. ولا أقول تلفيقات السلام على اعتبار أن مرض أولمرت يحول دون ممارسة أية ضغوط عليه — هذا إن كان هناك نية من الأصل لمثل تلك الضغوط — كما أن الوضع العربي الراهن ذاته كافي وبشكل مؤكد لاستشراء هذا المرض والإصابة به لكل من يطلع على ملفات المنطقة ويكفي الرجل ما أصابه من التعايش في المحيط العربي واحتلال الأراضي الفلسطينية!! وأخشى أن تتحول النظرة إليه من مستعمر إلى ضحية للظروف، بعد أن بدأت شعبيته في ازدياد فور الإعلان الطبي عن إصابته بهذا الداء كما أبدت ذلك استطلاعات الرأي، وتأكيده أنه سيتمسك بمنصبه وفق ما نقلته وكالة الأنباء الفرنسية من أن ٦١ بالمئة من الاسرائيليين - حسب الاستطلاعات - يرون أن إعلانه كان شجاعا، بينما خالفهم الرأي ٣٦ بالمئة، وأنا أتفق معهم في شجاعته، لأن الرجل رفض في البداية حضور المؤتمر بشكل دبلوماسي مهذب، ثم عندما

لاحت في الأفق بوادر الضغوط الأمريكية لم يجد بدأً من الكشف عن داء البروستاتا ليدرك الصديق الأمريكي أن أولمرت لن يكون مؤثراً أو مثيراً للرهبة والخوف في مواجهة الأطراف العربية المشاركة ،وبالتالي لن يكون هناك فائدة سياسية أو غير سياسية مرجوة من حضوره أو تمثيله وفق منظور الرجولة المتخيلة للروائية "مي غصوب وإيما سنكلير ويب" في كتابهما الصادر عن دار الساقي قبل ٥ أعوام بعنوان (الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط) وكأنهما كانتا تقرآن من رحم المستقبل وهما تسردان أدق تفاصيل التحليل النفسي لهذا المشهد السياسي. وبهذا يكون أولمرت صاحب السبق في تشكيل معالم هذا الفرع المعرفي الجديد المسمي بدبلوماسية البروستاتا... وأجدني مضطراً إلى نصيحة الرئيس أحمدى نجاد بأن يفتش نفسه بحثاً عن هذا الصنف من المرض لعل وعسى يحدث انفراجة مماثلة في ملف أزمته النووية مع الولايات المتحدة, ويطلب المساواة والمعاملة بالمثل بين جميع أصناف البروستاتا دون تفرقة وفق الإعلان العالمي الحقوقي الجارى تحضيره لإقراره في هذا الشأن ويحمل نفس المسمى..هذا مع الأسى والأسف ما وصلنا إليه من موقف سياسي تفاوضي في مواجهة إسرائيل، لكنه قد لا ينبئ بدقة عن النتائج المتوقعة للمشاركة في مؤتمر "آنابوليس" ، فالصحافة الإسرائيلية بدأت حملة شرسة تجاه الإدارة الأمريكية وتحديداً "كونداليزا رايس" دشنها الكاتب الإسرائيلي اليميني "اليكيم هعتسني" بصحيفة "يديعوت

أحرونوت" بكشف حساب من اللون الأسود عندما وصف زيارتها قائلاً : "السيدة الشابة" ستزورنا قريباً وهي آتية لأخذ وطننا منا. ففي زياراتها السابقة أمرتنا بإشراك حماس في الانتخابات الفلسطينية التي تمخضت عن حكومة حماس ودولة إرهاب في القطاع.. أجبرتنا "رايس"علي اتفاق معبر رفح الذي أعطى الرقابة للأوروبيين الذين فروا تاركين محور فيلادلفيا مثل الشارع السريع لنقليات السلاح. "رايس" ارهتنتنا "للمبادرة السعودية" التي تعني إغراق بلادنا بلاجئي العشرينيات. "رايس" أرسلت الجنرال دايتون لتدريب إرهابيين متنكرين في زي الشرطة، وأجبرتنا علي السماح بتسليحهم رغم أن كل السلاح والمدرعات سقطت في يد حماس في غزة ومعهم كل القناصة الذين تدربوا بعد أوسلو على قنص اليهود، وخبراء المتفجرات الذين تدربوا في أمريكا على كيفية تركيب العبوات وقتلوا المئات، كما ألزمت اسرائيل بخريطة الطريق وإملاءات الرباعية الدولية وأجبرتها على الموافقة على أن تقرر واشنطن ـــ وليس نحن ـــ اذا كان الفلسطينيون قد حلوا التنظيمات الإرهابية كشرط لإعلان دولتهم. وانتزعت من أيدينا تقرير ما هو ضروري لأمننا.. الرجل من فرط غبائه السياسي كان يكتب ليعدد جرائم دولته دون أن يدري، والواضح من الطرح الإعلامي الإسرائيلي أن شعار المؤتمر سيكون " إذا اختلف اللصان ظهر المسروق".

الفصل الثالث..

العقم الفكري والدوائر الإقليمية المغلقة ! !

السلام الانتقائي

الانتقائية آفة الفكر السياسي العربي التي يرفض التخلي عنها ولو كلفته ضياع الأندلس من جديد ،فالأولوية القصوى للسلام مع إسرائيل تتصدر أجندة العمل العربي تحت مظلته الشرعية وبيته الدائم (جامعة الدول العربية) في حين أن الحرب الأهلية العراقية الدائرة تحت سمع وبصر الاحتلال الآنجلوأمريكي، والاحتلال الأثيوبي للصومال ومأساة دارفور تستحوذ جميعها على قدر هائل من التجاهل ومساحة محترمة من النسيان، وتُرك الأمر فيها والنهي للمجتمع الدولي يقرر ما يشاء وكيف يشاء.. قمة الرياض لم تترك ملفاً عربياً شائكاً إلا وتناولته ووضعت له التوصية المناسبة ورسمت مسار الحسم فيه.. ومع ذلك فإن الملف الوحيد الذي استحوذ على الجهد العربي والزخم السياسي في أعقاب القمة هو ملف السلام مع إسرائيل وتشكيل لجنة مبادرة السلام العربية.. رغم أنه لا فرق بين احتلال إسرائيلي واحتلال إثيوبي وأنجلو أمريكي لأرض عربية.. لكنها أجندة الأولويات الغامضة التي لا نجد تفسيراً لها سوى أن التجربة سوف يجري تعميمها في القريب العاجل لتصبح جميع الأراضي العربية محتلة وبيزنس المفاوضات دائر مع المحتل لا ينقطع دون أي اختراق حقيقي للأزمات.

والسؤال هو: كيف نحدد درجة الإلحاح في ملف عربي عن غيره من الملفات الأخرى ؟ هل بالتقادم والعمر الزمني تماماً مثل

الترقي في السلم الوظيفي ؟ أم بالمحسوبية والوساطة وكـــروت التعارف الشخصي؟ أم بحجم الدماء المهدرة والضحايا والقتلى من النساء والأطفال؟ أم بالإملاءات والـــشروط والتعليمـــات الأمريكية؟ أسئلة ينبغي أن نجد لها إجابات، لـــيس طمعـــاً في التمرد –والعياذ بالله– على حالة الهوان العربي ،ولكن طمعاً في استكشاف المسار والمشي على الـــصراط المـــستقيم دون أيـــة انحناءات أو هفوات!! .. فالوضع في الصومال لم يهـــدأ منـــذ انهيار نظام حكم "سياد بري" ويخطئ من يعتقـــد أن الغـــزو الإثيوبي للصومال قد جاء تحت غطاء مبدأ حق الـــدفاع عـــن النفس الذي ادعته إثيوبيا واتخذت منه مبرراً ..واقع الأمـــر أن الغزو الإثيوبي للصومال لم يكن منزهاً عن أغـــراض وأطمـــاع ذاتية للدولة الغازية أو لدول إقليمية تواطأت معها كما لم يكن في غير اتفاق مع مصالح وأهداف لقوى دولية، وإنما كـــان في تلاقٍ معاً، وتحددت ملامح الخطط والتحركات وتوزيع الأدوار علىٍ مدى الشهور القليلة التي سبقت الاحتلال فيما بينهم. بل إن هذا التوافق امتد ليشمل رؤية أكثر أهمية وأكبر خطراً تنطلق من أن الولاء للإسلام سيحتل أولوية على الولاء للعشيرة الـــتي تشغل حالياً في الصومال مرتبة أعلى من الولاء للوطن ،وبالتالي فإن إقامة نظام إسلامي في الصومال سوف يهدد المؤســـسات السياسية الانتقالية خاصة الميثاق الانتقالي الذي يحـــدد المعـــالم الأساسية لمستقبل الصومال ويحد من تعاظم دور الدين في الحياة السياسية. . وعكس اتجاه التيار جاء البيان الصادر عن مجلـــس

جامعة الدول العربية على مستوى القمة في دورتها التاسعة عشرة التي عقدت في الرياض ليقذف بالكرة في ملاعب الاتحاد الإفريقي ومجلس الأمن والمجتمع الدولي ثم أخيراً الصوماليين أنفسهم، وهي قرارات تعكس إدراكنا وتصورنا لقدراتنا العربية دون أية مبالغة أو تهوين لكنها تكشف بقسوة عن حالة الفراغ السياسي والعسكري الغارقة فيه الأقطار العربية.

نحن في احتياج لفريق عمل دائم للأزمات العربية، أو صندوق لدعم الكوارث العربية، لغرفة عمليات دائمة تكون مهمتها الأساسية سرعة الفصل والحسم وليس انتظار انعقاد القمة وممارسة البكاء والنحيب والاتهامات على أعتابها، ولن يتحقق ذلك سوى بمبادرة سلام عربية/ عربية؛ دعونا نتصالح مع أنفسنا أولاً قبل أن نتصالح مع إسرائيل، ولنغلق ملفات الخلاف العربية قبل تمام الغرق في تفاصيلها المشئومة.

فاصل .. ونواصل

هل يكفي الصراع على السلطة سبباً لتبرير جرائم إســـرائيل فى غزة وإراحة ضمائرنا من مشاهد القتل والاغتيال بحق النساء والأطفال والرجال؟!.. هل الصمت الرسمي العربي حلقة مـــن مسلسل التشفي فى انفلات حماس أو تواطؤ فتح؟! هل تحتـــاج إسرائيل إلى مبرراتنا لإعمال آلة القتل فى الشعب الفسطيني؟! أم أنها مجرد مُنفّذ لرغبات عربية تخجل من أن تُعلن عـــن نفـــسها فآثرت أن تُمارس فضيلة الصمت والمشاهدة؟!.. هى تساؤلات مشروعة ونحن نشاهد شاشات الفضائيات الملعونة ـــ بوثيقـــة البث الفضائي ـــ تنقل لنا كل صرخة ألم وكل قطـــرة دمـــاء وكل لطمة أم على صدرها كلمى بفقد طفلها.. نعـــم كنـــا نشاهد تلك التفاصيل المفزعة الدقيقة ثم نغلق الصندوق الأسود ذا الشاشة الفضية ونذهب فى نعاس هادئ مطمـــئن، فـــأخيراً سوف تُحل القضية بالهولوكوست والمحرقة والإبادة الجماعيـــة كما بشرنا "باراك" و"إسحاق" و"أولمرت" و"رايس" و"بوش"، تماماً مثلما ارتحنا باختفاء "صدام" والعراق الذى أصبح المحميـــة الطبيعية لإيران، وغداً يأتى الدور على لبنان وغـــزة والـــضفة وغيرهم.. وما الذى يمنع؟ أو من يملك مجرد التفكير فى المنع؟ لا أحدا!.. فقط كثير من الأسى والأسف والـــشجب والإدانـــة وكأننا جالسون على حافة نهر تنساب منه تلك الأفعال الصوتية نغترف منها كيفما نشاء لنضمد به جراحنا ونكفن به قتلانا..

كم من مذبحة ارتكبتها إسرائيل فى الشعب الفلسطينى الأعزل؟! وكم وثيقة مرافعة ودفاع قدمتها الولايات المتحدة فداء لإسرائيل؟! وكم قرار إدانة أصدره مجلس الأمن الموقر؟ وكم بيان تحذير أطلقه البرلمان الأوروبي المعهود بشجاعته وصولاته وضجيجه ؟ وكم من الأموال دفعت لبناء ما هدمت إسرائيل، وتعويض من ذبحت وقتلت ودفنت ؟.. بل إن التوقف والهدنة جاءت على نمط "فاصل .. ونواصل" بعد انتهاء زيارة رايس التى لم تأت لإنقاذ الشعب الفلسطينى أو وقف العدوان ، وإنما جاءت لتقدم واجب العزاء وتبرر الإجرام الإسرائيلي وتلقي بالتهمة على حماس، ومن جانبها أعلنت حماس انتصارها ودحر العدوان، انتصاراً من نوعية تلك الانتصارات التى عهدناها فى حقبة ماضية أسقطنا فيها ١٥٠ طائرة ودمرنا ثلاثمائة مدرعة وأسرنا عشرات الجنود بينما حصاد الاجتياح الإسرائيلي يُنبئنا بسقوط ١١٦ شهيداً فلسطينياً مقابل مصرع إسرائيلى واحد فقط ضحية لصواريخ الصرف الصحي.

أتصور أن الحكمة تقتضي مراجعة حماس لقدراتها ولأهدافها وعليها أن تقرر الاختيار بين أداء دور المقاومة أو دور الحكومة والمفاوض السياسي، لأنه يستحيل من الناحية العملية أن تعلب الدورين فى آن واحد، ولن يقبل بذلك الأطراف المشاركة فى اللعبة وهى إسرائيل والولايات المتحدة، وعندما تقرر حماس اختيار موقعها من العمل الوطنى الفلسطيني يمكن مخاطبة العالم بلهجة يفهمها، فالمقاومة ليست إرهاباً بل هى حق مشروع فى

مواجهة قوى احتلال، لكنها تأتي مكملة للعمل السياسي ولا يجب أن تكون على النقيض منه أو تغرد خارج السرب، أو تترك لمشاعرها الانزلاق فى صراع على سلطة مأزومة ليس لها وجود فعلي سوى فى مخيلة قادها أو دولة مفقودة مثل قارة أطلانتس.. ما نراه اليوم من تنكيل إسرائيلي يباركه المجتمع الدولى تتحمل مسؤليته حماس لحظة إعلان انقلابها على شركائها فى السلطة وإهدارها الفرصة التاريخية فى اتفاق مكة, وهى من أخلّ بقواعد اللعبة لكنها ليس من يدفع الثمن منفرداً.

حماس تحتاج إلى إعادة صياغة مفاهيمها عن علم السياسة، فهى ليست علم الخنوع أو التواطؤ ولكنها الحرب بوسائل أخرى، وعليها أن تترك الساحة لمن يجيد فنون العمل السياسي وأن تكتفي إلى حين بأجندة العمل السرى المسلح، وإلا فلتقبل منطق التفاوض وتحدد عدوها بدقة من خارج الصف الفلسطينى وأن تتخلى عن الأجندة الإقليمية لإيران، أو بمعنى أدق تنفصل عن الطموحات الإيرانية المعقدة.. وتلك ليست توصياتي الشخصية ،بل هو ما يفرضه الوضع الراهن.

أشتاتاً أشتوت

في عالم السحرة والمردة السينمائي دائماً ما تجري تلك العبارة فوق الألسنة لصرف المارد أو الجان أو فك السحر، وهذا من الطبيعي في العمل الدرامي، لكن أن ينسحب ذلك إلي عالم السياسة فتلك هي المفاجأة!!.. وإن لم تكن مفاجأة لمصر وللرئيس مبارك الذي وقف محذراً إبان أزمة احتلال الكويت من العناد العراقي الذي يفتح أبواب المنطقة على مصراعيها لتدخل القوات الأجنبية في نزاعات المنطقة.. وانهمر على مصر وقتها سيل من الشتائم واتهامات الخيانة والعمالة.. كان ذلك في صيف عام ١٩٩٠ المشئوم، ومن وقتها لم تتوقف مياه الخليج عن الغليان ،وما كادت القوات الأجنبية تنهي العراق وتنجز تقسيمه وتفتيته وإشعال الفتن الطائفية والعرقية والحرب الأهلية حتى بدأت في نشر خرائط التقسيم الجديدة لكل القوى الإقليمية في المنطقة ولحساب إسرائيل . ولعل أبرزها تلك التي نشرتها مجلة القوة العسكرية الأمريكية في صيف عام ٢٠٠٦ وحددت ملامح جديدة لخارطة شرق أوسطية جديدة، وافترضت أن الحدود بين الدول غير مكتملة وغير نهائية، وبالطبع لم تخلُ الخرائط من مصر والسعودية وسوريا وتركيا وإيران وباكستان ولبنان والأردن، فالكل مستهدف لحساب دولة إسرائيل الكبرى وأصبح العرب بين فكي الرحى.. أطماع إيرانية عنصرية وقودها أضغاث أحلام لتصدير

مبادئها الثورية الشيعية من ناحية ، ومن الناحية الأخرى مخطط أمريكي إسرائيلي للهيمنة والسيطرة يُجرى تنفيذه بدقة شديدة ويستخدم كل ما يجده في طريقه لهدم الأنظمة القائمة وبالتبعية, فهو يستخدم إيران "كمخلب قط " لتفتيت العراق ومن بعـــده منظومة الدول العربية؛ إذاً فالمارد الذي استدعاه البعض لصرف "صدام" توهم في لحظة أنه تحول إلى "سكين زبدة" يخترط مـــن المنطقة ما يشاء وكيفما يشاء .. ثم فجأة .. إذا بصراخه وعويله كالنساء بدأ يعلو مطالباً بالفكاك والهروب من فيتنام الجديدة!! وأصبح صرف المارد وانتزاع السكين من يده وإطفاء الحرائـــق التي أشعلها هو أجندة العمل العربي المشترك لدول المنطقة؛ لكن السؤال :كيف يتم ذلك ؟ إن التباين في الرؤى يكشف عـــن ثلاث مدارس في التعامل مع المـــارد، الأولى: تـــرى ضـــرورة الاستئذان قبل الرحيل لترتيب الداخل العراقي تفادياً لمزيد مـــن الدماء العراقية،والثانية: ترى ضرورة حرق المـــارد وإحـــراق العراق معه على اعتبار أنها الطريقة الوحيدة المأمونة لإغـــلاق الملف نهائياً بالتخلص من المرض والمريض حـــتى لا ينتـــشر في أرجاء المعمورة.. أما المدرسة الثالثة وهي الأكثر واقعية: تـــرى أن المارد لم يعد أمامه سوى أن يركع على ركبتيه ثم يبـــدأ في لعق حذاء صدام راجياً أن يعفو عنه ويرتل عليه تعويذة الصرف مودعاً إياه بكلمات رقيقة "أشتاتاً أشتوت"!!

التغفيل الجنسي

هو مدرسة شهيرة في التحليل السياسي للتـــاريخ أُنـــشئت خصيصاً للمغفلين العرب الذين تستهويهم روايـــات الجـــنس والنساء كتفسير جنسي مقبول لكـــوارث التـــاريخ، ولـــيس بمقدورهم تصديق التفسير التآمرى لأنهم يرون أنفسهم أذكـــى مخلوقات الله بل وأكملهم بناءً للعقل والمكر والدهاء، والغـــرب يدرك تلك الصفات العربية الرديئة ،لذلك دائمـــاً مـــا يقـــرن مؤامراته بروايات تحليلية عميقة عن الدواعى الجنسية — وليس التآمرية — لسياساته الوقحة.

فالحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون كانت بـــسبب خيانة زوجته "جوزفين" التي كانت من قبل عشيقته.. وإيفـــا براون كانت رفيقة هتلر وعشيقته بل كانت (السيدة الأولى) أو المستشارة الحقيقية النافذة الكلمة (للرايخ الثالث) والتي استمد منها جبروته ودمويته.. والكاتب سامح سعيد عبود يعترف بأنه التفسير الأكثر قوة في الثقافة الشعبية والأعلى صـــوتاً لـــدى النخب، عشرات الأفلام السينمائية الـــتي فـــسرت وتناولـــت التاريخ من خلال ســـير الراقـــصات والعـــوالم والعـــاهرات وعشيقات الحكام.. لكن ما لا أصدقه حقيقـــة أن الـــصحافة البريطانيـــة لازالـــت تمـــارس حرفـــة اســـتغفال العـــرب، فالإيكونوميست البريطانية تطرح تحليلاً عميقـــاً لتحركـــات الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزى وحشده عدداً هائلاً مـــن

الزعماء والقادة من أوروبا وحوض المتوسط لتدشين مشروعه الجديد المعنون "الاتحاد من أجل المتوسط" بأنه نتاج تعرض الرئيس ساركوزى لانخفاض هائل في شعبيته بعد زواجه من المغنية الإيطالية "كارلا بروني"، وبعد جولاته السياحية معها في شهر العسل في الأقصر وشرم الشيخ؛ جاءت القمة لكي يعيد تقديم نفسه إلى الشعب الفرنسي باعتباره رجل دولة وقور قادر على حشد زعماء العالم في باريس.. والسطحية البريطانية في التناول والتأويل والتقييم لمبادرة ساركوزى تعكس بدورها أزمة عميقة في السياسة البريطانية التي ترى في أي اقتراب فرنسي أوروبي من الشرق الأوسط حلقة صراع جديدة قديمة حول النفوذ والسيطرة في الشرق الأوسط، بل وفضح سياستها العسكرية الاستعمارية التي انتهجتها مع الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان وقريباً في إيران، فهو صراع بين مدرستين استعماريتين، أحداهما تحاول الاقتراب والنفاذ والتغلغل والسيطرة من مدخل سياسي والأخرى تعتمد الحسم العسكرى،

والفرضية الأخرى ترى أنه تكامل أدوار بين مشروع الشرق أوسطية القائم على التقسيم والتجزئة بالعمل العسكرى المسلح لإدماج إسرائيل بين دول المنطقة، ثم بلورة المتبقي منه في إطار سياسي تحت مسمى الاتحاد من أجل المتوسط.

وأياً كانت الرؤى فإنه يبقى من الأهمية التجاوب المصري مع المبادرة الفرنسية لأنه يعيد إلى مصر دوراً إقليمياً مفقوداً

كان ولازال حجر الزاوية في الاستقرار والسلم الدوليين، كما أنه يُشكل طاقة من الفرص للاقتصاد المصري واسترداداً لأواصر وروابط من التفاعل المصري الأوروبي الحضاري لاتزال شواهده ماثلة حتى اليوم، فسياسة البعثات التعليمية إلى أوروبا التي اعتمدها "محمد علي" هي التي أسست النهضة المصرية المعاصرة، ولن يكون من المستغرب استعادة مواكب ورحلات التنوير من وإلى أوروبا من جديد، فعلى مدى أكثر من خمسين عاماً استهلكت مصر قدراها في الصراع العربي / الإسرائيلي، وإذا بحرائق الحرب الباردة تستدرجها في صراعات المعسكر الاشتراكي والرأسمالى، وتحمل مصر عبء المواجهة مع إسرائيل تارة، ومع الولايات المتحدة تارة أخرى، ثم إذا بالجميع يلتزم مقاعد المتفرجين والأزمات تطحن بالمجتمع المصري وتفتك بأبنائه في صورة سلبية لم تكن معتادة من الدائرة العربية التي جاء منها المدد الأول لمواجهة الحملة الفرنسية على مصر والتصدي لنابليون المخدوع في عشيقته الفرنسية.. ومع ذلك لا يجب تفسير أي تقارب مصري أوروبي بأنه كفر بالقومية العربية وتحالف مع الاستعمار .. بل مجرد مبادرة لإعادة التوازن لعلاقات مصر الخارجية وإعلان خروج من مدرسة التاريخ الجنسية.

أجندة النحيب العربي

دخل العرب في مرحلة إدمان النحيب والبكاء على اللبن المسكوب منذ عقود طويلة قد ترجع في أصولها التاريخية إلى سقوط الأندلس وتمتد عبر التاريخ إلى نشأة التنظيم الإقليمي العربي نفسه، وأعنى به جامعة الدول العربية.. بمعنى أن الخلل بالأساس "بنيوي" يرجع إلى النشأة الأولى وليس حدثاً عارضاً كما يحلو للبعض اعتناق الكذبة وتصديقها، لذا لا يجد العربي حرجاً بعد مضي أكثر من نصف قرن على بدء الصراع العربي الإسرائيلي أن يمارس حرفته الأولى والأخيرة بالبكاء على اتفاق مكة ولطم الخدود على انهياره، فقد أضعنا الوقت في الحديث عن سرقات الأدوار وصراع الزعامات بين القاهرة والرياض وتركنا القضية الأساسية عرضة للانفجار في أية لحظة ..بحثنا بكل الجدية عن الأب الشرعي للقضية الفلسطينية والأم المُرضعة لاتفاقيات السلام و لم نبحث جدياً حقن الدماء الفلسطينية. لذا ليس من المستغرب أن تغرق شوارع غزة وبيروت في بحور من الدماء الفلسطينية فهي المحصلة الطبيعية للاستغراق التام في السفسطة السياسية.

كنا نراهن على أن قسوة تجربة الاحتلال قد صنعت من الفلسطينيين نموذجاً للنقاء والطهارة الثورية صهرت مشاعرهم القومية في بوتقة جديدة من الصلابة والصمود، فإذا بنا أمام حرب شوارع بين أبناء الفصيل الفلسطيني تكشف عن أدق

تفاصيل العهر السياسي العربي الذي رآه مبكراً الرئيس الراحل أنور السادات ودفعه إلى القفز من القطار العربي قبل أن يصل بنا إلى قرار الجحيم كما يحدث الآن، أو نصبح بنداً دائماً على أجندة النحيب العربي. وتصوروا معي لو أن السادات قد انتظر الأشقاء في فلسطين حتى يفرغوا من اقتتالهم، أو الإخوة السوريين حتى ينجزوا قائمة اغتيالاتهم في لبنان، أو الإخوة الصداميين في بغداد حتى ينتهوا من غزو الكويت واسترداد محافظتهم التاسعة عشرة،لكانت سيناء اليوم هي عاصمة دولة إسرائيل وكنا أصبحنا اليوم من عرب إسرائيل!!. ففي تزامن "مريب وغامض" مع تحرك مارثون السلام من جديد .. وزيارة "تسيبي ليفنى" وزيرة الخارجية الإسرائيلية للقاهرة، ثم الإعلان عن اجتماعات وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي مع مجموعة العمل العربية برئاسة الأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى في بروكسل.. إذا بالاقتتال الفلسطيني بين فتح وحماس يعود إلى سطح الأحداث من جديد، وإذا بالدماء الفلسطينية تغطي مجدداً شوارع غزة والضفة بما يهدد فعلياً صلابة الموقف التفاوضي العربي.. فقاعدة التفاوض الأولى: أنك "لا تأخذ من خصمك سوى ما يعادل وزنك السياسي الحقيقي" وأن ما تحيط به نفسك من هالات القوة الزائفة يسقط ويتهاوى مع كل جلسة تفاوض.. القاعدة الثانية: أن تحسن تقدير خصمك وتقدير نفسك حتى تأتي التوقعات والتقديرات خالية من المفاجآت ولصيقة بالواقع قدر المستطاع.

وقياساً على تلك الفرضيات فإن الموقف العربي في وضـــع غاية في السوء وأجندة النحيب آخذة في الاتساع. ويتوقـــع أن تبتلع بالكامل خطط العمل العربي المشترك لعقود قادمـــة، ولا مفر منها سوى بوضع أجندة لتكامل الأدوار العربيـــة في أدق قضايا الأمة.

يجب أن نتفق على مساحة الدور وأجنـــدة مـــصالح دول الإقليم في مختلف قضايا المنطقة بكل شفافية ووضـــوح ودون مواربة أو التفاف وألا يفسر ذلك بأنه تبعيـــة لأدوار سياســـية أخرى في المنطقة.

إن المشهد الحالي في الساحة الفلسطينية كان من أشد مخاوفي وأكثرها قسوة أن يتحقق ؟ وكل ما هدفت إليه هو التحـــذير الشديد من الاقتراب من الدم الفلسطيني ،بينما العـــدو ينتظـــر ويترقب تلك اللحظة ويحشد كل جهوده وطاقاته في الإعداد لها ولم أتصور أن يمتد الحريق داخل البيت الفلسطيني إلى المخيمات في لبنان لتكتمل المحنة في الداخل والخارج. إن الأطراف الثلاثة الفلسطينية والإسرائيلية والأمريكية أضعف من بعـــضها ولـــن يستطيع أحدهم أن يأخذ موقفاً حاسماً بـــسبب مـــا لديـــه في الداخل من انقسامات.

خطة إصلاح أمريكا

جنون الكاتب يكمن أحياناً في عبوره إلى المستقبل متخلصاً من جمود اللحظة الآنية وتجرده من خزي الأمر الواقع مدفوعاً بفطرة طفولية تبحث عن عالم أفضل وهو بذلك يتطهر من فساد السياسة وعجزها عن تحقيق أحلام البشر.

وأزعم أنني كثيراً ما أصابتني تلك الحالة الجنونية وأنا أترقب كغيري من الحالمين نسمات عطرة تهب من قاعات اجتماعات القمة العربية، بل إن ترقبي هذا قد امتد بي منذ نحو ٣٨ عاماً هي كل سنوات عمرى حتى الآن، وفي القمة العربية بالجزائر عام ٢٠٠٥ كنت أخشى أن تتحول إلى اجتماع جمعية عمومية تبحث رفع كشف الحساب الختامى عن الإصلاح للولايات المتحدة الأمريكية بدلاً من أن تبحث خطة إصلاح العلاقات العربية الأمريكية أو في أقصى الطموحات أن تبحث خطة لإصلاح أمريكا نفسها .

وكدت أعترف بسذاجتى في فهم وإدراك طبيعة العلاقات الأمريكية العربية إلى أن صادفت وقتها مقالين يثيران قدراً من العصف الذهنى، الأول لأستاذنا الراحل صلاح الدين حافظ بعنوان " واشنطن تغضب.. عواصمنا ترتجف" والثانى للمفكر السياسى جميل مطر بعنوان " دبلوماسية الحرير"، الأول يصف الوضع الراهن ويلخصه في أننا نعيش فترة عصيبة، يزداد فيها الضغط الأمريكي المتصاعد على المنطقة، طلباً بعد طلب،

وابتزازاً بعد ابتزاز، وكلما أطعنا طلبوا المزيد، فالمهم لديهم ليس مجرد الاستجابة العاجلة، ولكن الانـصياع التـام، ولم تكـن واشنطن لتفعل ذلك وتتمادى في غضبها لولا أنها تلقى آذانـا صاغية، بل وتجد أوصالاً مرتعشة وقلوباً مرتجفة وعقولاً واجنة تقبل أوامرها ونواهيها، فتنفذ بلا تردد وترضى بلا تململ رغم أن وزارة الخارجية الأمريكية أصدرت تقريرها السنوي منذ أيام عن حالة حقوق الإنسان في دول العـالم دون إشـارة عـن الانتهاكات الأمريكية (الفضيحة) في أبو غريب وباقي سجون العراق وجوانتانامو.

والمقال الثاني يكشف الحقائق الإسـتراتيجية في العلاقـات الأمريكية الصينية وسمات السياسة الخارجية الصينية التي تعرف بدبلوماسية "حريرية"، أي دبلوماسية دقيقة التخطيط، بديعـة التنفيذ، ناعمة الملمس ،قوية النسيج والاحتمـال؛ فالـصين لا تفتعل مواجهات مع دول أخرى لا تتجـاوز ولا تـشتط ولا تنفعل. لم تتنازل عن حق لها في التجارة أو الأرض أو الكرامة. تنتهز كل فرصة لتقول لمن أساءوا إليها ذات يوم إنها لن تغفـر إلى أن يعتذروا. وبالفعل اعتذر اليابانيون وإن بتردد، ولم يعتذر الأوروبيون والأمريكيون ولم تغفر الصين لهم وحشيتهم والذل الذي فرضوه عليها لقرن أو يزيد. وتقول للغرب: ديمقراطيتكم عاجزة عن تحقيق طموحات الإنسانية خاصة طموحات شعب الصين، وديمقراطيتكم تؤكد كل يوم نقص طهارتها وكفاءتـها .بممارسات مزدوجة المعايير ومتدنية الأخلاقيات. لم تستـسلم

الصين لإرادة القوة الأمريكية الطاغية. وما زالت ترفض جهود منعها من تسليح نفسها وتواصل تهديداتها لحكومة تايوان. مرة أخرى تقدم الصين لكل شعوب العالم النامي نموذجاً للتحديث يعتمد أساساً على قوة الإرادة وصلابة العزيمة ووضوح الهدف وكفاءة النخبة الحاكمة. كانت منذ قرنين أو أكثر تمتلك ثلث الدخل العالمي، وأجبرها الاستعمار الغربي على الهزيمة حتى وصلت حصتها إلى ما لا يزيد على ٥% ولم تستسلم، بل عادت تستعيد ما تستحقه من حصة من الدخل العالمي والثروة الإنسانية، وها هي على مسافة عقد أو عقدين من تحقيق الهدف. يبقى إذاً أن تقرر القمم العربية اعتماد النموذج الصيني في علاقاتها مع أمريكا، فتبدأ بطرح خطة إصلاح للداخل الأمريكي من تعليم ومشردين وشواذ وإجهاض وأمراض اجتماعية تسعى إلى تصديرها باسم الحرية.

تحالفات الغدر

" تريتا بارسي" أستاذ في العلاقات الدولية في جامعة "جون هوبكيتر"، ولد في إيران ونشأ في السويد وحصل على شـــهادة الماجستير في العلاقات الدولية، ثم على شهادة ماجستير ثانية في الاقتصاد من جامعة "ستكوهولم" لينال فيمـــا بعـــد شـــهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة "جون هـــوبكيتر" في رسالة عن العلاقات الإيرانية-الإسرائيلية.. لكنه فجأة قـــرر أن يلقي قنبلة الموسم مغلفة داخل كتاب اكتظت فيه المعلومـــات والأسرار التي يكشف بعضها للمرة الأولى في توقيت وســـياق الأحداث المتسارعة في الشرق الأوسط وسط الأزمة النوويـــة الإيرانية مع الولايات المتّحدة.. يعالج "تريتا بارسي" في هـــذا الكتاب العلاقة الثلاثية بين كل من إسرائيل وإيران وأمريكـــا ،لينفذ من خلالها إلى شرح الآلية التي تتواصـــل مـــن خلالهـــا حكومات الدول الثلاث و تصل من خلال الصفقات الـــسريّة والتعاملات غير العلنية إلى تحقيق مصالحها على الـــرغم مـــن الخطاب الإعلامي الاستهلاكي للعداء الظاهر فيمـــا بينـــها.. باعتبار أن إدراك طبيعة العلاقة بين هذه المحاور الثلاثة يـــستلزم فهماً صحيحاً لما يحمله النزاع الكلامي الـــشفوي الإعلامـــي، ونجح بالفعل في تفسير هذا النزاع الكلامي ضمن إطار اللعبـــة السياسية التي تتّبعها هذه الأطراف الثلاثة، بتقديم تفسير للعلاقة الثلاثية من خلال وجهتي نظر متداخلتين أولا: الاختلاف بـــين

الخطاب الاستهلاكي العام و الشعبوي (أي ما يسمى الأيديولوجيا)، و بين المحادثات والاتفاقيات السرّية التي يجريها الأطراف الثلاثة غالباً مع بعضهم البعض (أي ما يمكن تسميته الجيو-استراتيجيا).

ثانيا: الاختلافات في التصورات والتوجهات استناداً إلى المعطيات الجيوستراتيجية التي تعود إلى زمن معين . . ليكون الناتج محصلة في النهاية لوجهات النظر المتعارضة بين "الأيديولوجية" و "الجيوستراتيجية"، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ المحرّك الأساسي للأحداث يكمن في العامل "الجيوستراتيجي" وليس "الأيديولوجي" الذي يعتبر مجرّد وسيلة أو رافعة.

بمعنى أبسط، يعتقد بارسي أنّ العلاقة بين المثلث الإسرائيلي- الإيراني – الأمريكي تقوم على المصالح والتنافس الإقليمي والجيواستراتيجي، وليس على الأيديولوجيا والخطابات والشعارات التعبوية الحماسية...الخ، وانتهى إلى أنه -على عكس التفكير السائد- فإن إيران وإسرائيل ليستا في صراع أيديولوجي بقدر ما هو نزاع استراتيجي قابل للحل، تكشف عنه كثير من التعاملات الإيرانية – الإسرائيلية السرّية التي تجري خلف الكواليس والتي لم يتم كشفها من قبل. . وبالتالي لا يمكن قراءة توصيات تقرير معهد كارينجي للسلام والذي يحمل عنوان "الشرق الأوسط الجديد" دون أن يكون "بارسي" كامناً في ذهنية العقل العربي، فالتقرير يتخذ من مفهوم الورطة وشماعة الأخطاء السياسية مبرراً لتكريس الوضع العربي المأزوم

لصالح القوة الإقليمية الصاعدة من طهران بعد أن هيأت لهم أوراق القوة، فيطالب في حركة انعطافة كوميدية سوداء بتخلي واشنطن عن «أوهام» الشرق الأوسط الجديد، من أجل استعادة مصداقيتها، والسعي نحو تحول إيجابي في المنطقة.." أن تتخلى عن الأوهام بأنها قادرة على تشكيل المنطقة بما يلائم مصالحها"، وتبعاً للالتزامات العسكرية (الأمريكية) الراهنة في العراق وأفغانستان، فإن الولايات المتحدة لا تستطيع فرض الأمر الواقع على الشرق الأوسط عبر المواجهة، بل يجب عليها العمل مع اللاعبين الإقليميين الذين يسعون إلى استعادة توازن القوة في المنطقة، وفي النهاية يعترف التقرير بأنه لا يمكن إجبار طهران عن التخلي عن برنامجها النووي لسبب بسيط ،وهو أن السياسة الأمريكية عززت مواقع المتشددين في النظام وتحتاج الولايات المتحدة إلى الحوار مع إيران، بدءاً من الموضوع العراقي، حيث يمكن إيجاد أرضية مشتركة.. وعلى العرب أن يدفعوا ثمن تحالفات الغدر في المنطقة بالكامل.

حائط الكراهية

بالأمس فقط كنت بين طوفان من البشر يهتفون في ميـــدان عابدين تحية للسادات ياركون عودته من تل آبيب في رحلـــة اختراق لحائط الكراهية بين العرب وإسرائيل.. هـــذا الأمـــس أصبح اليوم عمره ثلاثين عاماً بالتمام والكمال منذ ولادته عام ١٩٧٧ ولازالت الفجوة التي مر منها السادات بمصر من ذلك الحائط على نفس القدر من اتساعها.. لم يسقط الحائط بل زاد ارتفاعاً وسمكاً وإذا بالثورة الجينية والاستنساخ تلحق به فيخرج منه الجدار العازل و حائط الصواريخ الباتريوتى وهكذا بـــدأ يتحول إلى سلالة مخيفة من أصناف الكراهية.. قبل ثلاثين عاماً اندفعت خلف السادات في ميدان عابدين من مـــترلي الـــذي تفصله بضعة أمتار من القصر المهيب وكأني أســـير يومهـــا في الموكب الأخير لمراسم دفن الكراهيـــة ـــ لـــيس في الـــشرق الأوسط فقط ولكن في العالم بأكمله ـــ انتظرت منـــذ ذلـــك اليوم ثلاثين عاماً أخرى ليمر موكب السلام من جديد بجـــوار مترلي أو بالشارع المجاور فأرسل أحد أطفالي يبايع السلام مـــن جديد لكن الانتظار قد طال ،ولا أظن أن بوش ســـوف يلـــبي أماني أطفال فلسطين أو العراق أو الصومال فهو أبعد ما يكون عن روح السلام التي صعدت إلى بارئها مع السادات.. لا أظن أن في إسرائيل من امتلك شجاعة السادات أو مهارته في القفز من فوق حائط الكراهية حاملاً أغصان الزيتون، ولا أظـــن أن

مائة عام أخرى من الانتظار قد تحمل معها اختراقاً بمثـــل مـــا حققه السادات ،الذي لو أراد لمـــشي في مواكـــب الـــصمود والتحدي التي قدمت لنا اليوم فاصـــلاً شـــيقاً مـــن الاقتتـــال الفلسطيني والمهانة التفاوضية في مواجهة خصم عنيد ،ولـــو أن السادات يومها استجاب لنبوءات وزير الخارجية المستقيل محمد إبراهيم كامل لكان اليوم وسط الحريق الفلسطيني ومصر مـــن ورائه.. أجدني مضطراً إلى حديث الذكريات وأنا أطالع قائمة المدعويين إلي اجتماع آنابوليس وهم أكثر من ٤٠ دولة، لكن الفارق بين رحلة السادات ورحلة الأربعين مخيف، والسبب أنه عندما ذهب المرحوم أنور السادات في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ إلى القدس ليلتقي مناحم بيجن كانت له أسبابه الـــتي تـــدعوه إلى ذلك، حينما أدرك أن الحل العسكري حتى بعد حرب أكتـــوبر ١٩٧٣ لن يحقق إعادة سيناء المحتلة منذ عام ١٩٦٧ للـــسيادة المصرية، كانت له دوافعه وكان هناك ما يأمل تحقيقه، وهـــو استعادة شبه جزيرة سيناء، حرباً أو سلماً.. أما اليـــوم عنـــدما يذهب هؤلاء الأربعون فما هي دوافعهم ؟ ثم ما هي الفتـــات التي ستمنحها إسرائيل لهم وفق أوزانهم النسبية الـــتي ليـــست بخافية على أحد؟ والمشهد العربي كالتالي، أولاً : إسرائيل تحقق لها من منتصف يونيو حتى الآن ما كانت تبغيه منـــذ إنـــشائها وهو أن تتفكك القضية الفلسطينية وأن يتصارع الفلـــسطينيون وأن تلقي بالضفة الغربية في أحضان الأردن في ظل فيدراليـــة, وتطالب مصر بإدارة غزة مرة ثانية وتصفي القضية الفلسطينية

بهذه الصورة، هذا السيناريو ليس غريباً على العقلية الإسرائيلية التي تسعى إلى أن تحصل على كل شئ وألا تعطي في الغالب أي شئ . ثانياً : نتذكر في منتصف يونيو عندما حدث ما حدث في غزة أسقطت حركة حماس العلم الفلسطيني ورفعت علم حماس وخرج السيد محمود الزهار بتصريح قال فيه ليس يعنيني تحرير فلسطين ولكن يعنيني وحدة الأمة الإسلامية .ثالثاً: لم نتعود إمكانية الوصول إلى حل في السنة الأخيرة للإدارة الأمريكية دائماً، إنما قد تكون عملية تجميل من جانب إدارة بوش حتى ينتهي بشكل فيه قدر من العمل والجهد مثلما فعل كلينتون وهو لم يكن عنده محافظون جدد ولا كان تحت ضغوط مثل تلك التي يقع تحتها الرئيس الأمريكي حالياً، وأخيراً: أن ما يحدث في العراق هو مواجهة حقيقة بين الوجود الأمريكي في المنطقة وبين عناصر تنظيم القاعدة وغيرها من القوى الرافضة الأمريكية والغربية عموماً، يعني أنها ليست قضية تحرير العراق وحده وإنما هي قضية المواجهة ،فأصبحت نقطة استقطاب أو جاذبية لكل من يريد ضرب المصالح الأمريكية، ومعنى ذلك أننا في ضيافة أسد جريح فماذا ننتظر؟!!

الشيزفرونيا السياسية

في كثير من الأحيان يجرى استدعاء مفاهيم التحليل النفسي لفك شفرة حالة الانفصام العقلـــي المتقلبـــة بـــشدة في الأداء السياسي العربي والأمريكي الذي طالته العـــدوى بحكـــم أن الولايات المتحدة أصبحت من دول الجوار الجغرافي..المـــشهد الأول أزاح عنه الستار بيان مجلس الوزراء السعودي والـــذي جسد نفس الحالة النفسية التي وصل إليها الرئيس الراحل أنور السادات وهو يتعاطى مع الملف الفلسطيني واتفاقيات الـــسلام مع إسرائيل حين اصطدم بالمزايدين من جبهة الرفض والصمود والتحدي وبدا واضحاً لحظتها أن القفز من القطار العربي أقـــل خطورة من تجاوز محطات التفاوض الرئيسية مع عدو منـــهزم منكسر قد لا يجود الزمن بمثلها أبداً.. وبنفس السيناريو جرى التعاطي مع الجهود السعودية لتحريك عملية السلام الشامل في المنطقة ،لتصل إلى نفس القناعات بأن هناك قوى تتحدث بأكثر من صوت وتبحث عن مكامن الفرقة، وتبني مواقفها بعيداً عن الحقائق، وتعمل من أجل منفعتها الضيقة المباشرة، وأن طريـــق التعامل مع أزمات المنطقة وتحقيق تقدم شعوبها ينبني على تجاوز هذه القوى وشعاراتها وأيديولوجياتها"..المشهد الثـــاني جـــاء تونسياً فقد سحبت تونس جنسيتها من سهى عرفات أرملـــة الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات بعد ١١ شـــهراً مـــن حصولها عليها، وحملت الجريدة الرسمية التي صدرت قبل أيـــام

مرسوماً رئاسياً "بسحب الجنسية التونسية من سهى داوود الطويل دون شرح الأسباب..فلم نعرف لماذا منحت الجنسية ولماذا سحبت؟ ولماذا أخبرونا بالأساس عن مسائل عائلية ليس لنا فيها ناقة أو جمل ،خاصة وأن التسريبات المطلعة تتحدث عن خلاف نشب بين سهى عرفات وليلى بن علي زوجة الرئيس التونسي حول مشروع إنشاء مدرسة، والمعروف أن صداقة متينة ربطت السيدتين منذ أيام إقامة الرئيس الفلسطيني الراحل في تونس ودفعت بالشائعات لاحقاً إلى تزويجها من بلحسن الطرابلسي شقيق السيدة ليلي بن علي.. والمشهد الثالث جاء أمريكياً لكنه من نوع الكوميديا النفسية السوداء، فأنت قد تبكي وتضحك في آن واحد إذا علمت أن الرئيس الأمريكي جورج بوش أقدم على إنشاء لجنة لدراسة ظاهرة "الإمام المنتظر" وذلك خلال لقاء جمعه مع عدد من رجال الدين والنخب المسلمة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ الإعلان جاء من خلال وسائل الاعلام الإيراني، وقالت إن اللجنة التي يشرف عليها جورج بوش بنفسه تتألف من خبراء في الإسلام وشئون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية وعدد من عناصرالاستخبارات الأمريكية " السي آي إيه" ونخب من الجالية المسلمة في الولايات المتحدة. و تعرف الرئيس الأمريكي خلال لقائه برجال الدين و النخب المسلمة على فلسفة الإمام المنتظر، وطلب الرئيس الأمريكي من أعضاء اللجنة أن يزودوه بمعلومات حول الإمام المنتظر و معتقدات المسلمين في هذا

الصدد، لكنه لم ينسَ أن يلوح في الأفق بطلبيـــات خاصـــة في سياق فلسفي، أهمها أن هذا الإمام يجب أن يتمتع بميزة خاصة كي يَفدي المسلمون أنفسهم من أجله". لكن نائب الـــرئيس الأمريكي ديك تشيني أفصح عن معارضته لهـــذه اللجنـــة.. والتسريبات تتحدث الآن عن محـــاولات أمريكيـــة لاعتقـــال المهدي المنتظر قبل ظهوره طمعاً في أن يعلن عن مجيئـــه مـــن واشنطن ليشرف بنفسه على ضرب مفاعلات إيران النووية بعد أن بدأ فئران السفينة بالإدارة الأمريكية في الهرب واحداً تلـــو الآخر.

الحرنكش السياسي

أعترف أنني وغيري كثيرين قد أصابتني الحيرة في تحديد هوية نبات الحرانكش ،هل هو خضروات أم فاكهة ؟ وأتصور أن الحرانكش قد أصبح سمة للسياسة في الشرق الأوسط، بمعنى أن الحيرة باتت تضرب في أركان المنطقة وأصبح التعاطي معها تماماً مثل التعاطي مع الحرانكش .. فالوساطة المصرية بين سوريا والأردن وفلسطين ومحاولة تنقية الأجواء العربية من خلافاتها ومؤامراتها اللانهائية تحولت -بقدرة قادر- في الدوائر الصحافية السورية إلى عمالة ودور مشبوه وسبب في تأجيل القمة الثلاثية التي كان مقرراً عقدها آنذاك في منتجع شرم الشيخ بين الرئيس مبارك والعاهل الأردني الملك عبد الله الثاني والرئيس السوري بشار الأسد . والرواية الحقيقية تؤكد أن الأردن أصر على موقفه من اتهام سوريا في قضية ضبط شحنة من الأسلحة كانت متجهة إلى حركة "حماس" التي كانت تخطط لإدخالها إلى الأراضي الفلسطينية عبر الأراضي الأردنية، وتأكيدها بأن دمشق كانت ضالعة في هذه العملية بالتعاون مع قيادات الحركة بسوريا، وفتح دمشق أبوابها أمام "حماس" وعدد من المنظمات والقيادات الفلسطينية أثار قلقًا متزايدًا لدى الأردن، الذي يخشى من حدوث قلاقل في يشارك فيها الفلسطينيون المقيمون على أراضيها والذين يشكلون أغلبية بين سكانها؛ خاصة أن حركة "حماس" و"الإخوان المسلمين" في

الأردن يمتلكان قدرة كبيرة على تحريك الشارع الأردني، وهو الأمر الذي يثير مخاوف السلطات الأردنية التي كانت تخطط لإجراء انتخابات برلمانية؛ إلى هنا والحسابات الخاصة للأطراف المعنية هي الغالبة على المصلحة القومية العربية ،فما ذنب مصر في سيل الشتائم المنهمر؟ أعترف أنه قد أصابني الحرانكش وأنا أتابع هذا الملف و لم أجد له تفسيراً حتى الآن.

سلطات احتلال تقرر محاكمة رئيس دولة واغتياله سياسياً بدلاً من اغتياله جسدياً على أعواد المشانق كيلا يصبح بطلاً قومياً، وتُنّصب له هيئة دفاع وتخرج له ٣٥ حلقة تلفزيونية ثم تقرر فجأة اغتيال طاقم الدفاع الخاص به بدلاً من اغتياله هو شخصياً، وتنتهي بالفعل من اغتيال ثلاثة من محاميه في إطار المخطط الطائفي لتقسيم العراق الذي يجري ترسيمه بدلاً من استنساخ الجدار العازل الإسرائيلي.

منسق لحركة سياسية تزعمت المظاهرات ليلاً ونهاراً ورفعت شعارات الوطنية لدرجة تصورت معها أننا نواجه الاحتلال الإنجليزي مجدداً، وكدت أرتدي ملابسي وأتوجه إلى السفير البريطاني لأوجه إليه اللوم الشديد، وإذا بمنسق الحركة ومبعوث العناية الإلهية يغادر لحضور مؤتمرين في تركيا وتونس نظمتهما جهات وثيقة الصلة بالإدارة الأمريكية وحضرهما إسرائيليون، ويعترف بأن مشاركته في المؤتمرين كانت بمبادرة شخصية منه، مشيراً إلى أنه لم يكن يعلم بمشاركة أمريكيين أو إسرائيليين فيهما، والسؤال الحرانكشي الساذج الذي لم يفارقني هو: لماذا

قررت ممارسة السياسة وأنت بهذه السذاجة؟ وهل وثيقة الفساد في مصر كتبت بحبر أحمر من دماء العراقيين وختمت بنجمة داوود؟!

صحيفة إلكترونية دأبت على تبني المواقف السياسية لجماعة محظورة اعتبرت أن سرقة هاتف السفير الأمريكي تسببت في ارباك أطراف عديدة في القاهرة ، وأثار حالة من الترقب والتوتر الشديد داخل بعض الأوساط الحزبية ومنظمات المجتمع المدني والكنيسة الأرثوذكسية ودوائر رجال الأعمال، بعدما ترددت أنباء عن أن الهاتف المسروق يحمل عشرات الأسماء لشخصيات تحتل مناصب قيادية داخل هذه الأحزاب والمنظمات، بالإضافة إلى أسماء بعض الشخصيات الدينية النافذة داخل الكنيستين الأرثوذكسية والآنجيلية . لكن داخل الجماعة, بالطبع لا. وفسرت الصحيفة حالة القلق والتوتر هذه بخوف تلك الأسماء من إحراجهم أمام الرأي العام المصري إذا ما تكشفت علاقاقم بالسفارة الأمريكية، خاصة أولئك الذين كانوا يتلقون دعماً مالياً من السفارة ،ويحرصون في الوقت ذاته على إظهار معارضتهم اللفظية للسياسات الأمريكية في المؤتمرات وعلى صفحات الجرائد . وإمكانية تسريب "قوائم" الأرقام والأسماء المسجلة عليه لأحد المصادر الصحافية، بهدف إحراج أطراف عديدة مطلوب إحراجها أمام الرأي العام، في محاولة لتخفيف وطأة الضغوط الحادة التي تواجه السلطة في الفترة الحالية ،بمعنى أن المسألة كلها حرانكش ،وبعض المعارضة

دمي تتلاعب بها دوائر أمريكية .. وأجدني أسجد لله شكراً أن تم حذف اسمي من دعوات حفل الرابع من يوليو ،وأن موبايلي كارت وليس خطأ ودائم الانقطاع ولن يكــون لي حــظ أو نصيب في اتصال هاتفي من سعادة السفير.

أقفية العصافير

الرواية التاريخية تلخص في أحيان ومواقف كثيرة حالة الضعف أو القوة التي تمر بها الأمم، لكنها تسقطنا في تناقضات محرجة مع مشاهدات العصر ؛ الرواية هنا تتحدث عن الخليفة المعتصم حينما رفع الكأس إلى فمه يريد أن يشرب، فإذا بصيحة امرأة تقول " وامعتصماه " تصل إلى مسامعه، فوضعه ونادى بالاستعداد للحرب... ذلك هو الخليفة العباسي المعتصم بالله الذي أصبح اسمه نموذجاً دائماً للمروءة والدفاع عن الدين والوطن على صفحات التاريخ؛ كان ذلك عام ٢٢٣هـ — ٨٣٨م عندما استغل الروم انشغال الخليفة المعتصم في القضاء على فتنة بابك الخرمي، وجهزوا جيشاً ضخماً قاده ملك الروم، بلغ أكثر من مائة ألف جندي، هاجم شمال الشام والجزيرة ودخل مدينة "زِبَطْرة" التي تقع على الثغور، وكانت تخرج منها الغزوات ضد الروم، وقتل الجيش الرومي مَن بداخل حصون المدينة من الرجال، وانتقل إلى "ملطية" المجاورة فأغار عليها وعلى كثير من الحصون، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين، وسَمَلَ أعينهم وقطع آذانهم وأنوفهم وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة.

وصلت هذه الأنباء المروعة إلى أسماع الخليفة، وحكى الهاربون الفظائع التي ارتكبها الروم مع السكان العزل، فتحرك على الفور، وأمر بعمامة الغزاة فاعتّم بها ونادى لساعته بالنفير

والاستعداد للحرب. وجاءت قصيدة أبو تمام بمطلعها الشهير "السيف أصدق أنباء من الكتب" لتروي لنا لحظات المجد والشرف في فتح عمورية باستغاثة من امرأة اغتصبت.

وأخشى أن تكون المقارنة والتذكير بين اغتصاب امرأة عربية عام ٨٣٨ وقتل أخرى بعد اغتصابها عام ٢٠٠٦ فيه ظلم كبير للحكومة العراقية، لكن الحقيقة أن السفير الأمريكي في بغداد المحتلة زلماي خليل زاد والجنرال جورج كيسي قائد القوات المتعددة الجنسيات قد أثلجا صدري ببيان مشترك أكدا فيه أن هذا الحدث سلوك لا يغتفر وغير مقبول ولن يترك أي شيء قد يفيد في التحقيق وستستخدم كل الوسائل بحثاً عن الحقيقة وسيحمل الجنود المسئولية إذا ثبت عليهم ذنب أو تصرف مشين ،وقالا إنه سيتم العمل مع الحكومة العراقية لضمان شفافية واستكمال التحقيقات، وزاد من فخري واعتزازي أن البيان الصادر عن البعثة الدبلوماسية الأمريكية والقوات المتعددة الجنسيات في العراق حمل أحر التعازي الصادقة لأفراد الأسرة الذين فقدوا أعزاء لهم في هذا الحادث.

وبذلك السلوك الإنساني المهذب من الخليفة العباسي الجديد ــ عفواً ــ السفير الأمريكي وقائد القوات متعددة الجنسيات ،يكون قد كُفي العرب شر القتال دفاعاً عن شرف أو عرض أو أرض سواء في بغداد أو فلسطين أو أفغانستان ،باعتبار أن ما يجري في كل بقعة من تلك الأراضي هو أعمال إرهابية تستهدف الغزاة الأبرياء؛ لكن أستأذنكم جميعاً في أن ننظر إلى

أنفسنا من مِرآة التاريخ وقد حل محل الشعر في الرأس قــرون الخرفان ومؤخراهما السمينة ونتسائل متي حدث ذلك هجريـــاً وميلادياً؟!!!.. وحتى لا أكون من رواد مدرسة الوهم النبيــل التي كتب عنها محمد صادق دياب ووصفهم بــأنهم مرضـــى "بأوهام العصافير التي تستلقي على قفاها رافعة قدميها إلى أعلى لعلها تمنع الشمس من أن ترتطم بالأرض" ســأطرح ســؤالاً مهزوماً في داخلي ،وهو متى يفيق العراقيون شيعة قبل سنة من وهم الصديق الأمريكي للحرية والعدل والمساواة؟ ومتى يرفض العرب من منابرهم التي تآكلت في ميدان التحرير تمجيد هتــك عرضهم في أغنية تشبها بقصيدة أبو تمام التي تروي أمجادهم.

أعلم أنني أُنكئ جرحاً صديدياً متعفناً قد دفنت فيه معـــاني الكرامة والعزة، لكن أدرك عن يقين أن العصافير لا تعرف معنى الحلم تحت سماء تمطر بدماء ضحايا الغزو الأمريكي للعــراق، وأدرك أيضاً أن كثيرين ممن عاشوا تحت ظلال الحلم الأمريكي وأنفقوا حياتهم في الترويج لنموذجها الــديمقراطي ومــازالوا يجوبون شوارع القاهرة في حملاتهم التبشيرية ،فإنهم يمارســـون القوادة عن طيب خاطر ..

لماذا قوات حفظ السلام؟!

لنقرأ سوياً دلالات الهجوم على قوات حفظ السلام الدولية في سيناء لعلنا ندرك أن البُعد الخارجي للإرهاب أعمق بكثير من المراهقة السياسية الداخلية التي قد تمارسها جماعات التطرف بشكل إجرامي غير مسئول.

إقليمياً جاء الهجوم في توقيت موازٍ تماماً لعملية الانسحاب الإسرائيلي من غزة وما تواجهه من خلافات فلسطينية إسرائيلية حول السيطرة على منفذ رفح الحدودي وممر صلاح الدين أو فيلادلفيا كما تسميه إسرائيل، فدائماً ما كان هناك ادعاء إسرائيلي بوجود ثغرات أمنية في تلك الحدود تسمح بتهريب السلاح عبرها إلى داخل قطاع غزة، وكان الخلاف يدور حول طبيعة إدارة هذا المنفذ بشكل ثلاثي إسرائيلي ـ مصري ـ فلسطيني، وانتهى الجدل السياسي والقانوني في اللحظات الأخيرة بموافقة إسرائيل على الطلب المصري بعدم التواجد في معبر رفح واقتصاره فقط على السلطة الفلسطينية ومصر، لأن وجود إسرائيل وبقاء قواتها مسيطرة على معبر صلاح الدين سوف يفرغ الانسحاب الإسرائيلي من مضمونه ويحول القطاع إلى سجن كبير مغلق بواسطة القوات الإسرائيلية ،الأمر الذي ينذر بانتفاضة ثالثة تهدد إسرائيل ذاتها.. إذاً فالمستفيد من ضرب القوات الدولية وفق القراءة السابقة ربما يكون إسرائيل !! لكن القفز السريع لتلك الاستنتاجات دون قراءة المشهد الفلسطيني

يحمل الكثير من الظلم وسوء التقـــدير للموقـــف الإســـرائيلي ويحمله وحده وزر المؤامرة !! لذلك كـــان مـــن الـــضرورى الاقتراب وقراءة الموقف الفلسطيني بدقة أكثر، فمنذ تفجـــيرات طابا وهناك حديث متقطع يجرى عن تورط شخص فلـــسطيني في الأعمال الإرهابية، ولن أحاول تتبـــع صـــلاته التنظيميـــة وانتماثاته السياسية، لكنني سأطرح تساؤلاً وحيداً وهـــو: ألا يعني ذلك أن هناك أطرافاً فلسطينية تبعث برسائل رفـــض لمـــا يجري برعاية مصرية من تسويات وانسحابات وترى أنها غـــير عادلة أو كافية؟، وأن مصر باتت تتفاوض بلـــسان إســـرائيل ويجب عقابها؟ بل ونسف السلام بينها وبين إسرائيل إن أمكن ذلك؟ وإظهارها بمظهر الضعيف العاجز عن حماية حـــدوده أو بسط نفوذه وسيادته على أرضه؟! فما بالـــك بـــأرض الغـــير وتحديداً قطاع غزة؟! وبالتالي لابد من عقاب مصر على ذلـــك الفتات الإسرائيلي، رغم أن مصر لم تصنع ذلـــك الفتـــات أو تباركه، وإنما قدمت في مباحثات مينا هاوس الفرصة التاريخيـــة كاملة، والتي يخجل البعض من الاعتراف بها ويتـــرحم عليهـــا الكثيرمن العقلاء.

ولتكتمل صورة المشهد الفلسطيني فلابد من أن نعيد قـــراءة ما قاله فاروق قدومي أمين حركة فتح حين اجتمع مع أعضاء المجلس الوطني في عمان وتحدث عن بعـــض مراكـــز القـــوى المشبوهة في غزة والتي تساعد شارون على انفجار حرب أهلية

بين الفلسطينيين ،وتهدد وحدة العمل الفلسطيني انسياقاً وراء رؤى إسرائيلية أمريكية.

أما المشهد الثالث وهو الأكثر خطورة فيرتبط باستهداف العلاقات المصرية الأمريكية بأي عمل دعائى وإثارة الجدل مجدداً حول وضع تلك القوات ،خاصة إذا علمنا أنه منذ عامين عقدت في واشنطن مباحثات مصرية أمريكية، لبحث رغبة البنتاجون في تقليص قواتها المشاركة في قوات حفظ السلام في سيناء، ورغم أن دعوة البنتاجون إلى خفض القوات ليست جديدة، حيث كان اقترحها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد في أبريل عام ٢٠٠١، إلا أن الخبراء فسروها بأنها حركة سياسية ليست نابعة من الإدارة الأمريكية، بل صادرة عن مجموعة من أعضاء الكونجرس الموالين الإسرائيليين، والهدف منها الضغط على مصر لكسب مواقف معينة". لكن الدفع لإثارتها الآن وفي ظل ترتيبات الانسحاب الإسرائيلي من غزة يزيد من التأزم الحالي بشأن معبر رفح ويرتب لمرحلة أخرى من التراجع الأمريكي عن الانغماس في ملف السلام للتخلص من الأعباء المالية الناجمة عن وجود تلك القوات في سيناء،وربما مزيداً من الخطوات إلى الخلف.

مشهد منغولي

من أبجديات السياسة الخارجية لأية دولة أن تسعى إلى تعظيم أدوارها الخارجية ومركزها في الساحة السياسية الدولية.. لذا من المقبول، بل من الضرورى أن نرى دوراً قطرياً صاعداً على المسرح الدولي في عدد من ملفات المنطقة الساخنة وبديناميكية وتفاعل غير مسبوق في دهاليز السياسة العربية، لكن مشهد الوساطة القطرية في الأزمة الليبية - البلغارية أصابني وغيري كثيرين بمرض عقلي متعارف عليه بالعته المنغولي، بدأت أعراضه بالتساؤل وانتهت بالصمت.. فما هي علاقة قطر بمجموعة من الممرضات البلغاريات الذين تورطوا في جريمة بحق ٤٠٠ طفل ليبي بحقنهم بفيروس الإيدز؟ وهل هناك جريمة أكثر خسة ودناءة من إيذاء الأطفال الأبرياء بأيدي ملائكة الرحمة؟ .. لكن "عسى أن تكرهوا شيئاً وهوخير لكم" فوساطة قطر أكدت لا محالة صحة الواقعة بتلك المحاولات المجنونة للتستر على الفاعل الأصلي والإكتفاء فقط بمبدأ التعويض دون العقاب البدني على المخطط والمنفذ الحقيقي.. وهنا مربط الفرس!.. فمن عساه يلجأ إلى قطر لتكون ستاراً لأفعاله الدنيئة ؟ ثم كيف تقبل قطر أن تكون واجهة يتستر خلفها الجناة الحقيقيون قتلة الأطفال الأبرياء ؟ بل كيف تسمح لنفسها بالتوسط لينجو الفاعل الحقيقي وأدواته من البلغاريات بفعلته دون أي عقاب حقيقي؟ أم أن الفاعل من

تلك النوعية التي يستحيل عقابها أو مجرد التفكير في المساس بها ،فهو فوق القانون بكل أشكاله ودرجاته وتلك المواصفات لا تنطبق سوى على تل آبيب وواشنطن؟! والأغرب أن أياً من أطراف الأزمة لا يدرى تحديداً طبيعة الوساطة القطرية أو مجرد تفاصيل بسيطة عنها، فالرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي وجّه شكره إلى "الوساطة والتدخل الإنساني" لإمارة قطر من دون أن يوضح طبيعة هذا الدعم. واكتفى بالقول إنه "في لحظة معينة من التفاوض" مع ليبيا، توافق مع رئيس المفوضية الأوروبية على "وجوب تدخل بلد صديق".وقال إن "المحادثات التي حصلت بعدها بين قطر وليبيا- وهما بلدان عربيان- هي محادثات تعنيهما، ويعود إليهما فقط كشف تفاصيلها".وفي بروكسل، سألتُ المفوضة الأوروبية بينيتا فيريرو فالدنر عن احتمال مساهمة قطر في صندوق بني غازي الدولي لمساعدة الأطفال المصابين بفيروس الايدز، فردت إنها لا تستطيع "أن تقول شيئاً" في المرحلة الراهنة. وإذا كان أصحاب الشأن لا يملكون الإجابة فمن يملكها؟! هل هو دكتور مونتانيه الخبير العالمي ومكتشف فيروس الإيدز الذي أعلن أن المرض كان متفشي قبل وصول الممرضات ولم تلتفت المحكمة لشهادته، لأنها تبرئ البلغاريات وتتهم الأجهزة الليبية بتلفيق الإتهام؟! أتصور أن قطر مطالبة أمام الرأي العام العربي المتابع للقضية بأن تبرئ ساحتها من مسئوليتها عن إفلات قتلة الأطفال من الإعدام، ويمكنها أن تستند في ذلك إلى ما أعلنته مؤسسة

القذافي الخيرية في ليبيا التي يرأسها سيف الإسلام القذافي بحل الرئيس الليبي تحفظها على أحكام سابقة للقضاء الليبي بشأن هذه القضية. وما ذكره متحدث باسم المؤسسة إن على الرغم من احترامها للنظام القضائي إلا أنها تعتقد بأن أفراد الطاقم الطبي البلغاري جرى تعذيبهم، وأن إصابة الأطفال بفيروس الإيدز نجم عن إهمال في مستشفى بني غازي، أو إلى ما أعلنه وزير الخارجية الليبي عبد الرحمن شلقم من أن الاتفاق لم يخلُ من أبعاد سياسية وإن كان قد تضمن أيضاً جوانب إنسانية وقضائية وأن ليبيا أرادت أن تضع حداً للقضية وأن تقيم علاقات أفضل مع الاتحاد الأوروبي على حد قوله.. لكن يظل التساؤل عن الدية قائماً ،ومن سدد الفاتورة بالكامل التي أفادت أنباء بأنها مليون دولار عن الطفل الواحد مضروبة في ٤٣٨ طفلاً توفى منهم ٥٢!! فلغة الأرقام أكثر دقة من عته السياسة.

رأس الشيطان

أتصور أن قراءة طلاسم اغتيال رفيق الحريرى تستدعي الانتقال إلى عالم الأبالسة واستعارة رأس شيطان للدخول إلى عالمه وفهم دوافع اغتيال زعيم سياسى بوزن الحريرى ،فالشياطين وحدها هي القادرة في ذلك الموقف على فك شفرة هذا العمل الإجرامى الذي أتصور للمرة الأولى أنه يتجاوز حجم إسرائيل — وإن كان يصب في صالحها — ويتجاوز بالطبع سوريا!! فالانقسام الذي حدث ودفع بالاتهامات نحو الطرفين ونحو أطراف لبنانية أيضاً يؤكد أنه انقسام مخطط له ومدروس من طرف ثالث. ثم بإلقاء نظرة على الصور المعروضة من خلال الفضائيات، يتبين أن الحادث ليس عادياً، ويظهر لنا كمراقبين لشاشات التليفزيون وللحدث أن منْ خطط لمثل هذا الفعل يملك قوة مالية وتصنيعية هائلة، واستخباراتية لمعرفة زمن ومكان مرور الموكب، وكذلك قدرة فائقة على التعتيم ودقة في التنفيذ، وهذا لا يكون إلا لأجهزة دول لها طاقاتها وقدراتها غير العادية، وأنها جزء من عملية أكبر يراد منها إشعال الحروب الأهلية في لبنان ،ربما لصرف الأنظار عما يجري من ترتيبات في العراق، أو لإسقاط الرهانات في الملف الفلسطيني على أي سقف أعلى من الترتيبات الأمنية الأخيرة، فلم تمض ساعات قلائل على العملية الإرهابية حتى بدأت أصابع الاتهام تشير

بشكل مباشر أو ضمني إلى سوريا وبدأ العد التنازلي ،لا لخروج القوات السورية من لبنان فقط و إنما للمزيد من العمل السياسي الدولي المنظم بخصوص تحجيم و تحديد و توجيه الحكم السوري ، وهكذا تصبح عملية الاغتيال مبرراً قوياً لايعوض يمنح الأمريكيين تفويضاً بدفع السوريين نحو الزاوية الضيقة، ولذلك اتفق كثيرون في البداية مع الرأي القائل بأن سوريا لا يمكن أن تتورط في اغتيال الحريرى لأنها بتورطها تفقد سنداً مهماً لها وهي السعودية التي كانت تربطها علاقات وثيقة جداً بالحريري ،وفقدان السعودية تعني في الحسابات السياسية حجب النافذة العربية التي كانت تطل منها دمشق على أمريكا، ثم معاداة السياسة الفرنسية في المنطقة، كما أن توظيف الاتهام أمريكياً قد يعجل في دفع السوريين باتجاه تسليم الرؤوس البعثية الكبيرة المتواجدة في سوريا،فالشبهة التي تحوم حول احتمال التورط السوري في اغتيال الحريري قد تكون في بعض الأحيان أقوى و أشد وطأة من الاتهام المباشر نفسه، وتوظيفه يخدم على أكثر من قضية وصعيد، وهي النغمة التي عزفها في وقتها "رامسفيلد" وزير الدفاع الأمريكي على إيقاع الأجندة الأمريكية ،فاعتبر موقف سوريا "يسيء" إلى المنطقة ، خصوصاً إلى الجهود التي تبذلها الولايات المتحدة من أجل استقرار العراق وإقامة دولة ديمقراطية فيه، وأن السوريين "يسيئون إلى ما تحاول أمريكا القيام به في العراق".فلديهم أموال عراقية ويرفضون إعادتها، يقدمون المأوى لبعثيين يحتلون

لبنان ويدعمون مع إيران حزب الله في لبنـــان ودخولـــه إلى اسرائيل".

نعم! جريمة اغتيال الحريرى تدفع بسوريا ثم إيـــران الـــتي أعلنت تحالفها معها إلى المصيدة الأمريكية، فواشنطن تـــدرس حالياً فرض حصار على سوريا كونها لم تذعن بعد لقرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩ الذي يدعوها إلى سحب قواتها من لبنـــان، وتدفع بمجمل الأوضاع في المنطقة وليس في لبنـــان وحـــده، للانهيار وفق مخطط مدروس لتقويض النظام الإقليمـــي العـــربي الحالي واستبداله بآخر مستنسخ من الحالة العراقيـــة، وســـواء تورطت سوريا أو ألصقت بها الجريمة فالنتيجة واحـــدة وفـــق نظرية الدومينو ٠٠بدأت بانهيار العراق ولن تنتهي إلا بانهيـــار دول المنطقة واحدة تلو الأخرى.

حد السيف

استيقظ ذات صباح ليجد نفسه سائراً في جنازة أبيه، أنصت وهو يسير في ركب المعزين إلى عبارات المواساة والمؤازرة ،كان الجميع ينعته "بذاك الشبل من ظهر الأسد" لكنه كان يدرك في أعماق نفسه أن زئير الأسد لن يدوي مجدداً، وأن ميراثه كان فقط الاسم أما الكفاح لتحرير الأرض فهو قدره الذي تُرك وحيداً ليواجهه ،أقاموا له المكائد وكادوا يدفعونه إلى الصدام مع تركيا لكن يقظة رفيق أبيه في السلاح أنقذته من بحور الدم؛ بالأمس كان الأسد الصغير على أرض مصر في شرم الشيخ يحمل فوق عنقه حد السيف الذي نصبه له مغول العصر الجديد ، الصيحات تأتي من مكان بعيد تنفي التهمة عن المغول وتقول أن الأسد هو من وضع عنقه تحت السيف باغتيال الحريري، يصيح حواريه "لكن التهمة لم تثبت بعدا!" ويجيب المغول :وماذا في ذلك ؟غداً أو بعد غد ستثبت ،فكل شئ بأوان! سوريا تجاوزت الخطوط الحمراء كثيراً وحان الوقت لاصطيادها. الكونجرس الأمريكي بدوره لم يضع الوقت، إذ بدأ يحشد جنوده بإضافة بند جديد إلى قانون محاسبة سوريا وتحرير لبنان ،يطالب بمحاكمة المسئولين عن جرائم وصفت بأنها ضد الإنسانية وحقوق الإنسان في سوريا، وكلهم مسئولين سوريين كبار، فهل تكون القمة المصرية السورية هي طوق النجاة لسوريا؟ المؤشرات تحدثت وقتها عن ثلاثة ملفات

أساسية دارت حولها المحادثات، الأول :هو التعامل مع الضغوط الغربية (خاصة الأمريكية والفرنسية) على سوريا بشأن المسألة السورية / اللبنانية، وتطورات الأوضاع الداخلية في لبنان قبيل الانتخابات البرلمانية، ونتائج الاتصالات التي تجريها مصر والسعودية مع كل من فرنسا والولايات المتحدة في هذا المضمار، فضلاً عن التنسيق في الشأن الفلسطيني.

لكن التهدئة الحقيقية لن تتم كما رأى المراقبون إلا بشروط أمريكية / إسرائيلية، فمع إزالة نظام صدام حسين من السلطة في العراق، بدأت الولايات المتحدة بزيادة الضغط على سوريا وإيران، أقوى راعيين لتنظيم "حزب الله." وأوضحت إسرائيل تكراراً أنها لن تتحمل إلى الأبد الوجود المسلح للمنظمة على حدودها الشمالية.

إذاً فإن وضع الضغوط على حزب الله وسوريا وإيران والاستمرار بها سيلعب بدون شك دوراً مهماً في تحديد مستقبل المنطقة وفق الرؤية الأمريكية، ونجاحها يرتكز على نجاح مهمتها في العراق والتحرك بثقة لحل التراع الفلسطيني / الإسرائيلي ،والتعامل مع سوريا وإيران بشكل جدي ،وكذلك تشجيع حزب الله على تحوله إلى تنظيم سياسي مدني ، وتكشف كل تلك الضغوط عن خوف أمريكى حقيقى من أن تفشل في بناء سلطة سياسية شرعية مقبولة من العراقيين، بفعل التأثيرين الإيراني و السوري ليتحول البلد إلى مستنقع مميت للقوات المحتلة وينتقل حد السيف إلى عنقها بدلاً من سوريا أو

إيران..من كان يصدق أن يرتبط استمرار أو انهيار النظام الإقليمى العربى بجحيم المقاومة العراقية الذي دفع بالولايات المتحدة إلى تقليص أحلامها وتطلعاتها الاستعمارية إلى مجرد الحديث عن انسحاب سوري من لبنان وقطع علاقات إقتصادية — لم تكن موجودة من قبل — مع دمشق وأخيراً تدنيس القرآن الكريم في مراحيض جوانتانامو.نعم أمريكا تنهار حضارياً ولن يستغرق الأمر كثيراً حتى تنهار اقتصادياً وسياسياً، وإذا كان الحديث فيما مضى عن مقاطعة أمريكا اقتصادياً يرقى إلى الخرف السياسى، فإن الأمر سيختلف اليوم بدخول الدين إلى دائرة الصراع ،وتاريخ المغول يروي كيف سقطوا يوم دنسوا مصاحف ومساجد بغداد وجعلوا من دجلة والفرات مجزراً للشعوب العربية .. التاريخ يعيد نفسه فهل من منصت؟!

الصفقة السورية

لا تصدق كل ما تسمع وصدق فقط نصف ما ترى .. تلك هي القاعدة الذهبية التي ينبغي أن نستقرأ من خلالها مسارات السياسة والتاريخ ،فما كشفته مؤخراً الصحافة الأمريكية عن وجود اتصالات أمريكية /سورية مباشرة تتم بشكل سري منذ فترة قريبة، يؤكد أن أمريكا سقطت في المستنقع العراقي وأنها تبحث عن مفتاح الخروج في أيدى أطراف إقليمية فاعلة . ولكن بشكل سري بعيداً عن المذلة والمهانة وعلى طريقة "سيب وأنا أسيب" ودون التخلي عن لهجة التشنج السياسي التي تعتمدها للاستهلاك في مواجهة الرأي العام الأمريكي الداخلي.

إذ تصر أمريكا على أن تسهم دمشق بشكل فعال في التدخل لدى الفصائل المقاتلة في العراق لوقف العمليات ضد قواتها، لأن واشنطن تعتقد بقوة اتصالات ونفوذ (دمشق) لدى هذه الجماعات، و تصر أيضاً على أن تساعد سوريا على تحقيق الاستقرار في العراق، وأن تعلن إرسال سفيرها إلى بغداد، وأن تسهم في إنجاح إتمام الاستفتاء على الدستور العراقي بتعاونها مع الأمريكيين والعراقيين.

تصر واشنطن أخيراً على أن تسيطر دمشق وتحل مسألة الفصائل الفلسطينية الموجودة على أراضيها، وأن تسرع بإحداث تغيير واضح وملموس وجذري بالنسبة إلى واقعها

السياسي، بحيث يفتح المجال أمام الديمقراطية والتعددية الحزبية، وفي حالة إعلان تقرير ديتليف ميليس في شأن اغتيال الحريري تورط مسئولون سوريون أن يتم ضمان تسليمهم للمحاكمة، ويصر الجانب الأمريكي على استبعاد كل من المملكة السعودية ومصر من الوساطة، أو التدخل خشية احتساب أي التزام أمريكي بمقابل سياسي يقدم إفلى الرياض والقاهرة نظير وساطتهما.

إلا أن سوريا تدرك أن السرية لن تقدم التزاماً أمريكياً قوياً، لذا فإنها تطلب من واشنطن العلانية "في حال الاتفاق"، وأن تعامل دمشق من الجانب الرسمي الأمريكي باحترام وكرامة، لأن سياسات الضغط والإذلال لن تجدي، كما ترغب في وجود مصري أو سعودي أو كليهما "باعتبارهما شهوداً على الاتفاق مع واشنطن".

ولا تخفي دمشق استعدادها للتعاون مع واشنطن في الشأن العراقي حسب ما ذكرت المصادر الأمريكية ولكن وفق أجندة سوريا تحوي كثيراً من نقاط الإتفاق والإختلاف مع الأجندة الأمريكية، إذ تصر على أن يظل العراق دولة علمانية، غير قابلة للتحول إلى دولة دينية. واستعدادها لمحاكمة أي شخص يثبت تورطه في جريمة اغتيال الحريري، أمام محاكم سوريا وأن سوريا لن تسلم أي سوري لأية دولة خارجية، وتصر أن الرئيس السوري بشار الأسد غير متورط إطلاقاً في مسألة اغتيال الحريري، وهناك أدلة مادية ومنطقية تثبت ذلك.

الواضح أن أمريكا بدأت تدرك أنها ليست اللاعب الرئيسي الوحيد في الملف العراقي، وأن إيران وسوريا يملكان من أوراق اللعب ما يحيل العراق إلى جحيم متصل لا هــوادة فيــه، وأن محاولات الرئيس الأمريكي الإدعاء بأنه مبعوث العناية الإلهيــة وأن "السماء أمرته" بغزو أفغانستان والعراق وإنــشاء دولــة فلسطينية وتوفير الأمن لــ"اسرائيل" لم تعد كافية لإخراجــه من ورطة الحروب المتصلة التي انزلق إليها ،فأخذ يبحث عــن مصطلحات سياسية جديدة تشعل الحرب والــدمار في العــالم بأكمله ،ويريد حشد العالم بأسره حول عــدو جديــد اسمــه التطرف الاسلامي، الذي حل محل العقيدة الشيوعية كمــصدر خطر علي الإنسانية جمعاء..لكنه في قرارة نفسه يبحــث عــن أنفاق الهروب التي تمر عبر سوريا.

التساؤل البري!!

إذاً فالانسحاب السوري من لبنان هو الثمن لمقتل الحريري كل الشواهد تؤكد ذلك، سيكون هناك فقط تحقيق دولي أو محلي سمه ما شئت لكن دون اتهامات أو متهمين، ففي عالم الجرائم السياسية نادراً ما تكون هناك أدلة أو شهود أو حتى صحيفة سوابق، رغم أن الجاني قد يكون واقفاً أمامك بشحمه ولحمه وقسمات وجهه تقسم لك أنه القاتل ،وتنطق قائلة أمسك بي إن جرؤت !!!

لكن ذلك لا يمنع من تساؤل بريء: ماذا لو أن إسرائيل متورطة؟ هل سيجرؤ المجتمع الدولى على إدانتها؟! وهل لو الولايات المتحدة تورطت بنفس القدر، هل كانت فرنسا ستقف وتطالب بتحقيق دولى؟ الإجابه أن ذلك لن يحدث مطلقاً لأن المجرم في زمن ١١ سبتمبر لابد وأن يكون عربياً مسلماً أو مسلماً فقط فهو مجرم المرحلة أو إرهابى المرحلة فكلها مسميات لوجهي عملة واحدة.

لكن لماذا تنسحب سوريا وحدها من لبنان وتبقى إسرائيل محتلة لأجزاء من الجنوب اللبناني ولمرتفعات الجولان السوري؟! الإجابة صمت مطبق.

ولماذا لا ولن تنسحب الولايات المتحدة من العراق؟! الإجابة صمت القبور.. وأين مجلس الأمن من الحقوق العربية

على مدى أكثر من نصف قرن من الـزمن ؟!الإجابـة إن لم تستحِ فافعل ما شئت.

وأكثر ما أخشاه أن نظل أسرى تساؤلاتنا، يُفعل بنا كـل الأشياء ولا نفعل سوى التساؤل البريء!! والصورة المريـضة الآن توحي بأن التحقيقات في استشهاد الحريرى سوف تـسير فقط في القنوات التي توجهها الاعتبارات السياسية من خـارج المنطقة وتوظيفها لمزيد من الإذلال لدول المنطقة، ففي نفـس التوقيت الأسود بكل درجاته والمحسوب بكل دقة يخرج علينـا الأشوس قبل الأخير أيمن الظواهرى أو يتم إخراجه لنا ليكرس من الصورة الإجرامية الملتصقة بنا ويزيدها التـصاقاً بتـصريح تبتكر مناسبته قناته الفضائية المفضلة، وهي "الذكرى الثالثة لبدء إرسال أسرى حرب أفغانستان إلى القاعدة الأمريكية" يعلن فيه أن معتقل جوانتانامو الأمريكي في كوبـا يكـشف حقيقـة الإصلاح والديمقراطية التي تسعى الولايات المتحدة إلى إقامتـها في المنطقة، وأن الولايات المتحدة تعمل على تنصيب شخصيات في المنطقة مثل الرئيس الأفغاني حامد كرزاي ورئيس الحكومة العراقية المؤقتة إياد علاوي، وهو هنا يقدم الإطـار الفكـرى اللازم لخلط الأوراق جيداً وتقديم مبررات إلصاق الإتهام ،لكن بمن؟ ربما ربط سوريا بحزب الله الذي يقاوم الاحـتلال لكنـه يصنف إسرائيلياً وأمريكياً بأنه منظمة إرهابية ! وذلـك علـى خلفية دعوات الحريري المتكررة لانسحاب سوريا من لبنـان وتصنيفه من وجهة نظر تنظيم القاعدة أنه رجـل الغـرب في

لبنان! وبالتالي توفير غطاء سياسى أكبر للتـدخل الأمريكـي عسكرياً وسياسياً في المنطقة والانتقال من أجندة الانـسحاب السوري إلى أجندة تفكيك النظام الـسوري الـذي يـرفض احتلال العراق، بل ويدعم جماعاتـه الإرهابيـة (المقاومـة) المسلحة. وعلى من يرفض التفسير التـآمرى أن يقـرأ مقـال الكاتب الأمريكـي مايـك وتـني- Mike Whitney: "اغتيال الحريري يتطابق وخطّة واشنطن"، يقول: "لكي نفهـم مَن اغتال رفيق الحريري علينا ألاّ ننظر أبعد من مشروع بنـاء السفارة الأمريكيَّة الحالي في بغداد بكلفة مليار ونصف المليـار دولار التي تعدُّ الأكبر من نوعها في العـالم، وستـضم ١٨٠٠ موظَّف، وستكون بمثابة مركز الجهاز العصبي في المنطقة للنشاط الأمريكي السياسي والاقتصادي.

البعض يفضلها مؤامرة!!

تكشف جريمة اغتيال الكاتب الصحافي جبران تويني أن الكلمات والأفكار لازالتا تشكلان أحياناً في رأي البعض خطراً أقوى من الرصاص أو الدبابات أو أحذية الاحتلال الجاثمة فوق أراض عربية .. فالموت ثم الموت لكل من يطلب الاستقلال والحرية لوطنه، لأن مجرد الطلب يذكر شعوباً أخرى بأن أراضيها وتراها رهن الأسر، ثم لماذا ينال لبنان حريته واستقلاله ويبقى الجولان وفلسطين وبغداد تئن تحت أحذية الاحتلال الإسرائيلي والأمريكي؟! فبخروج سوريا يجري إظهار الساحة اللبنانية بمظهر الفراغ الأمني وتتصاعد مطالب المحاكمة الدولية للقوى السياسية في سوريا ولبنان ،لتنتهي بمطلب قوات دولية أجنبية للحفاظ على الأمن الداخلي وحماية السياسيين وذويهم والأتباع والرعايا بعد أن ينهار اتفاق الطوائف بالطبع إلى غير رجعة، ليعود لبنان إلى المربع صفر وتبدأ جولة أخرى من الدماء والحرب الأهلية ،لكنها لن تنتهي سوى باختفاء لبنان من فوق الخريطة كما اختفى العراق أو أوشك، إذاً فهي مؤامرة, وللوصول إلى العقل المدبر ينبغي أن نبحث عن المستفيد.

والشواهد تؤكد أن القفز للدعوة لاجراء تحقيق دولي بات موضة الموسم في لبنان اليوم، وهي دعوة مهما بدت بريئة فإنها تمس في الصميم سيادة لبنان الوطنية واستقلاله، فضلاً عن أنها تلقي بظلال الشك على نزاهة ومصداقية نظامه القضائي

وجهازه الأمني، علاوة على ما في تدويل القضايا الوطنية من مخاطر تعرضها لأن توظف في خدمة القوى الدولية المشكوك جداً في نزاهتها وتعاطيها بموضوعية مع القضايا العربية، على الأخص لبنان الذي تركت مقاومته جرحاً لم يندمل بعد في نظرية الأمن "الإسرائيلي" .

والنتيجة أن سياسة الاغتيالات في لبنان التي ابتدأت باستهداف النائب مروان حمادة، مروراً باغتيال رفيق الحريري واغتيال سمير قصير وجورج حاوي ومحاولة اغتيال مي شدياق وإلياس المر، والتي لن يكون آخرها الاعلامي والنائب جبران تويني، ليست جريمة تستهدف أشخاصاً فحسب، بل هي أكبر من ذلك بكثير، فهؤلاء الشخصيات معروفون بمواقفهم المناهضة للسياسات السورية في لبنان لأكثر من ثلاثة عقود. و شاركوا بشكل مباشر و غير مباشر في مسيرة استقلال لبنان بعد اغتيال الحريري من خلال أدوارهم السياسية والإعلامية المتميزة، و أدت في نهاية المطاف إلى انسحاب الجيش السوري من لبنان في أواخر ابريل الماضي. هؤلاء الرموز والهامات الإعلامية المتميزة في لبنان كانوا ضد السياسات الخاطئة والهدامة والمدمرة في لبنان ،ولم يكونوا قط ضد العلاقة الطبيعية و المتوازنة بين البلدين الجارين سوريا ولبنان، وبالتالي فإن اغتيالهم يحقق عدة نتائج تصب في مجملها لصالح الطرف الإسرائيلي، فهي تؤدي إلى إضعاف الجبهة الداخلية اللبنانية تجاه إسرائيل، ثم تدفع في اتجاه الضغط على حزب الله لترع سلاحه

أي نزع سلاح المقاومة اللبنانية والفصائل الفلسطينية، وإخراج لبنان من المعادلة السورية للتوازن تجاه إسرائيل وتجاه الاحتلال الأمريكي للعراق وممارسة الضغوط على سوريا للتوقف عن دعم ومساندة الفصائل والمنظمات الفلسطينية سواء المقيمة على أراضيها أو على الأراضى اللبنانية، وبالتالي فإنه من غير المنطقي اتهام سوريا وحدها بهذه الجرائم، لأنه في هذا الوقت بالذات يتضح أن الأضرار التي تلحق بسوريا جراء ذلك لا تقل عن الأضرار التي تلحق بلبنان.

إن اغتيال النائب والصحافي اللبناني جبران تويني المناهض لسوريا، يشكل جزءاً من خطة تهدف إلى اتهام دمشق وتشويه سمعتها، في فترة حاسمة للغاية، جاء توقيتها بدقة شديدة قبل ساعات من تسلم مجلس الأمن الدولي التقرير الجديد للقاضي ديتليف ميليس رئيس لجنة التحقيق الدولية في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري. فهل هناك من يقرأ ما بين السطور؟!

القربان السوري!!

هل كان نحر أو انتحار وزير الداخلية السوري قرباناً لحماية رأس الدولة نفسها؟؟!! كل ما قرأت من تحليلات ومقـــالات لكتّاب مجتهدين كانت تسير في اتجاه إدانة الـــرئيس الـــسوري نفسه واتهامه بإصدار الأوامر باغتيال رفيق الحريري..الجميـــع يعزف نفس مقطوعة ميليس .. واللبنانيون لا يرضون برأس غير رأسه !! وإسرائيل لن ترضى بأقل من رأس سوريا ولبنان!!

فالانتصار اللبناني في جنوب لبنان تم بأيدي حزب الله وربما بالسلاح السوري والدعم الإيراني في لحظة تحالف مشترك أثمر عن هزيمة وانسحاب إسرائيلي بقوة السلاح ودون شـــرط أو قيد.. إذاً كيف يمكن ترك هذا التحالف يمشي علـــى قـــدمين يتباهى بانتصاره؟؟ لا أظن أن التسامح ممكن في عالم الـــسياسة الإجرامي . أو أن إسرائيل وحلفاءها وأعوانها من أنظمة الحكم الغربية يمكن أن يرضى بديلاً عن سحق سوريا ولبنان وإيران .. ولنتأمل سوياً ما يحاك لكل طرف .. نقطة البداية هي أقـــرب لحظة إشعال جرت وهي اغتيال الحريري، فالخبرات التاريخيـــة تؤكد أنه لا عشوائية في حوادث التـــاريخ الكـــبري، وإنمـــا مؤامرات تُغزل خيوطها بمهارة فائقة ثم يقذف بها مشتعلة في يد طرف ما ، وهو هنا الطرف السورى، فسواء قتل الحريري أو أوعز بقتله أو علم ولم يبلغ فهو في كل الأحوال مدان ويجـــب أن يدان ! والسؤال ماذا يحقق ذلك ؟ أولاً: انـــسحاباً ســـورياً

مهيناً من لبنان . ثانياً: فك الارتباط عن حـزب الله وتوقـف الدعم والسلاح. ثالثاً: المطالبة بضرورة الإسراع في تنفيذ كامل بنود القرار الـدولي ١٥٥٩، وفي مقدمتـها نـزع سـلاح الميليشيات، أي "حزب الله" والمخيمات الفلسطينية ولن يتـأتى ذلك دون تقاذف الاتهامات ،فيتم اتهام سوريا أيضاً في نفـس التوقيت بتقوية حلفائها الفلسطينيين في لبنان بهـدف زعزعـة أوضاعه الأمنية وإعادة البلاد إلى نقطة الصفر، أي إلى حـرب الثلاثين سنة مضت عن طريق سلسلة عمليات تهريب أسـلحة من أراضيهم إلى الفصائل الفلسطينية حليفتهم في لبنان.

إذاً فالهدف النهائي هو العودة بلبنان إلى الحرب الأهلية، لأن لبنان قوي يرأسه الراحل رفيق الحريري كان سـيعني نموذجـاً يحتذي به أجيال العرب في صراعهم الحضاري والعسكري مع إسرائيل ،ومصدر إلهام لكل من تسول له نفـسه أن يـرفض مخططات الاستعمار. وإذا كنا ندرك شعوباً وحكامـاً مغـزى المؤامرة فكيف إذاً نجحت في أن تنفذ سهامها فينـا ؟ كيـف سمحنا لأنفسنا بالتورط في اغتيال رموزنا ؟ أو نهـدد الـسلم الأهلي والاستقرار الداخلي في لبنان أو أي بلد عربي آخـر؟ لا أظن أن للغباء السياسي دوراً يذكر ،فالمسألة أبعد ما تكون عن الصدفة ! لكن المدخل الطبيعي هو أن يجد النظام من يوسـوس له في أذنيه كما كاد أن يحدث مع مصر في أديس أبابا وكـان المطلوب وقتها أن تنفعل مصر بمؤامرة اغتيال الـرئيس مبـارك وتعد العدة لضرب السودان وعندها يكون الـشرخ الـذي لا

يلتئم.. ولولا إدراك الرئيس مبارك وحكمته لكانت الدماء المصرية والسودانية تنزف حتى اليوم. في تلك الأثناء قرعت طبول الحرب في مجلس الأمن والأمم المتحدة والإعلام الغربي والكل كان يطالب برأس السودان لتورطه في المؤامرة، لكن حكمة الرئيس مبارك كانت مثيرة للدهشة وقتها واستجابته لصوت العقل لم تكن مفهومة إلا متأخراً.

أعلم أنه من الصعب بل من المستحيل أن نطلب من اللبنانيين معاملة سوريا بنفس المنطق المصري في معالجته لمؤامرة أديس أبابا، لأن الفارق واضح بين فشل المؤامرة هناك ونجاحها هنا ،لكن الحق أيضاً أن حصاراً اقتصادياً دولياً على سوريا قد يؤذيها في الصميم وعلى وجه السرعة أكثر مما يتخيل البعض، وقد لا يتوقف تقاذف الحمم البركانية في حالة الانهيار عند الحدود السورية اللبنانية بل قد يتعداها إلى الداخل اللبناني خاصة أن زلزال ميليس ما زال في أولى درجاته. وليس مرجحاً أن يستقر على هذه الدرجة ولا يتجاوزها صعوداً..

حطام الذاكرة العربية

بقايا من شرف وكرامة وعزة ذلــك هــو حــزب الله .. جريمته الوحيدة أنه يُذكِّر الشعوب العربية المنبطحة بماضي مــن الرجولة والفروسية وأحياناً .. بالغباء السياسي..نعم! فهو يجمع كل المتناقضات التاريخية والمعاصرة .. يجمع بين الحماقة والتهور .. والشجاعة والحكمة.. لكنه في الحصيلة النهائية يلخص حالة الإحباط في الشارع العربي من الظروف الدوليــة والإقليميــة، يترع عنا ما يستر عوراتنا من كلام معسول عن سلام مضحك مع عدو شرس لا يرحم.. فالسلام لا يكون سوى بين أقوياء.. والسلام ليس سوى هدنة لالتقاط الأنفاس كما هو في منطقــة تل آبيب التي نراها اليوم تُخرِج التنين من محبسه ليلتهم السلطة الوطنية الفلسطينية رغم كل معاهدات واتفاقيات السلام. ولا أخفي سراً إن قلت أن عبارة عمرو موسى " العرب انــضحك عليهم" كانت كمن قذف رأسي بدانة مدفع لعلي أفيــق أنــا وغيري من وهم السلام المستحيل ، وأكرر من جديد "ما أخذ بالقوة لا يسترد سوى بالقوة" .. ولكن أين هي القوة العربيــة التي يمكنها أن تتصدى للتنين؟؟ وهل جريمة إيران أنها أخــذت بأسباب القوة وتسعى لكي تكون قوة إقليمية مهيمنة؟؟ هــل جريمة إيران أننا سمحنا لأنفسنا بأن نكون كالنعــاج في وادي الذئاب؟؟ لا أظن أن إيران مسئولة عــن تراجعنــا الــسياسي والاقتصادي والعسكري.. ولا يمكن أيضاً أن نلقي اللوم علــى أعدائنا التقليديين في تل آبيب بأنهم أضاعوا علينا في ســنوات

المواجهة الفرصة التاريخية لالتقاط أنفاسنا ونمو قدراتنا العسكرية والسياسية فنحن من استمرء الانبطاح.. كان ما سبق من كلمات هو محاولة لتوصيف فكر التيار التصادمي في الأزمة اللبنانية واستعراض منطقه بكل احترام وتقدير.. لكن الوجه الآخر من الحقيقة يتحدث عن خطر إيراني شيعي لا أملك أيضاً سوى رصد منطقه في محاولة لتفسير سيناريوهات الأزمة المتوقعة.. وهو التيار الذي يطلق عليه مجازاً "المنبطحون والعبيد" وكل مفردات البذاءة في القاموس العربي ،ويرى أنه من غير المقبول أن يفرض علينا حزب الله مواجهة غير محسوبة قد تؤدي إلى حرب شاملة تأكل كل إنجازات المجتمعات العربية في حرب ضروس ،وأن زمن العنتريات انتهى ومن غير المقبول أن يجرنا طرف واحد فقط دون استشارة باقي الأطراف إلى مغامرات عسكرية ،ويستند هذا التيار في رؤيته إلى قراءات دقيقة لاحتمالات تواطؤ إيراني / شيعي مع الولايات المتحدة وإسرائيل لجر الدول السنية في المنطقة لحرب إبادة، باعتبارها مستهدفة لتورطها في أحداث ١١ سبتمبر ،ووجود مخطط أمريكي بعيد المدى لاستبدال أنظمة الحكم السنية المتهمة بالإرهاب بأنظمة حكم شيعية وطرف الخيط الذي سيسحبه أحمق هو التورط في حروب مع إسرائيل ،تنتهي بدمار واسع النطاق لتلك البلدان، وللتأكيد على تلك التخوفات فإن الدول السنية تضع أمام عينيها ما يحدث في العراق من تطهير عرقي وديني وفكري للسنة العرب على أيدي الشيعة الموالين لإيران..

هل تكفي هنا الشعارات الإسلامية لطمأنة القلوب والأفئدة من هواجسها تجاه إيران؟ أتصور أن فصل الكلام أن ترينا إيـران وحزب الله في إسرائيل ما لم نكن نحلم به في يقظتنا، فالشكوك والمؤامرات تكاد تعصف بنا ،خاصة إذا علمنا أن كل ما لحزب الله من أسرى لدى إسرائيل كان ثلاثة أسرى فقط هم "سمـير القنطار" اعتقلته السلطات الإسرائيلية عام ١٩٧٩ لدى قيامـه بعملية في مدينة نهاريا من ضمن مجموعة من "جبهة التحريـر الفلسطينية" التي ينتمي إليها ويبدو أنها كانـت تـصر علـى الاحتفاظ به لمبادلته برون أراد أو برفاته، وهو طيار سـقطت طائرته الحربية في جنوب لبنان خلال الاجتيـاح عـام ١٩٨٢ واختفت آثاره . أما الأسير الثاني يحيى سكاف فهو من الحزب السوري القومي الاجتماعي (مؤسسه أنطون سعادة)، يعتـبر مفقوداً منذ ١٩٧٨ وليس لدى أية جهة ولا حـتى "حـزب الله"، دليلاً على أنه حي، وتنفي إسرائيل في استمرار أن يكون معتقلاً لديها ، والثالث هو نسيم نصر، أمه يهوديـة ووالـده شيعي لبناني ويحمل الجنسيتين الإسرائيلية واللبنانية، حكم عليه القضاء الإسرائيلي بالسجن ٦ سنوات، مضت منها ٤ وبقيت سنتان بتهمة التجسس لـ "حزب الله"، وبما أنه يحمل جنسيتها يصعب أن تسلم إسرائيل أحد رعاياها المحكـومين إلى جهـة أخرى ولا سوابق تذكر في العلاقات بين الدول علـى هـذا الصعيد. . إذاً فالبعض يعبث بحطام الذاكرة العربية لعله يخـرج لنا من بين الركام أفعى تلتهم مجتمعاتنا.

وزاري ولا إسكندراني!!!

من يتصور أن انقسامنا الديني إلى شيعة وسنة قد وصل إلى القتلى في لبنان، وأن الانقسام الفكـــري ينخـــر في عظامنـــا كالسوس منذ أن انفجرت الفتنة في العـــراق بفعـــل فاعـــل. وسمحنا للشيطان أن يخرج علينا بالموعظة بين حين وآخر ، فهو يندد اليوم بحزب الله وسوريا ويدافع عن حق إسرائيل في قتـــل المدنيين رغم أصابعه المحترقة في بغداد وبالأمس كان يـــستمتع بقصف غزة. بل إن الجامعة العربية ذاتها كانت في حيرة مـــن أمرها بين الدعوة لمؤتمر وزاري، أم على مستوى المنـــدوبين ،أم تقدم نيولوك للمستويين في مشهد ومقطع "إسكندراني" علـــى مستوى المصطافين في العالم العربي. والمفاجأة كانـــت بيـــان الحكومة اللبنانية التي يسيطر عليها تيار سعد الحريري وأدانـــت الهجوم الاسرائيلي، لكنها اعتبرت أنه لا يمكنها تحمل مسئولية عملية حزب الله لأنها لم تكن على علم بها. وإذا كانت هـــذه حال أهل البيت فلا لوم على الرأي العام البريطاني والنمساوي والفرنسي الذي يرى أن إسرائيل تحارب على جبهتين ــ كان الله في عونها ــ فهي تضرب المـــدنيين وتقـــصف المطـــارات والجسور والطرق براً وبحراً وجواً والضحايا الأبرياء يتساقطون بلا جريرة أو ذنب ،ونحن لازلنا على انقسامنا نخـــشى مجـــرد التنديد أو الاستنكار حتى لا يفسر موقفنا بأنه تعـــاطف مـــع حزب الله الإرهابي ومن ورائه إيران وســـوريا ،فانقـــسامنا إلى

شيعة وسنة قد فاق خيال أكثر أعدائنا مرضاً، وتصورت واهماً أن الرأي العام العربي قد يكون أفضل حالاً من قياداته، ويجتمع على قلب رجل واحد في مواجهة الخطر الإسرائيلي المحدق بلبنان، إلى أن صدمني تساؤل أحد جنرالات المقاهي في موقع لصحيفة إلكترونية يقول صاحبه: "نفسى أعرف إيه الفايدة من خطف جنديين ولا ثلاثة من إسرائيل؟ إسرائيل لا تتفاوض مع الخاطفين. وكله على دماغ اللبنانيين الغلابة. السيد حسن نصر الله في أمان من الغارات. أقول إيه.؟..حزب الله و نعم الوكيل فيك" انتهت رسالة القارئ وانهمرت تعليقات القراء كسيل ينحدر من عُلا تصب في نفس الاتجاه تصف الجماعات المتأسلمة بأنها تعيش في تخلف يجعلها لاترى أبعاد عملياتها على الأمة، وأن قاعدة (الشر يعم والخير يخص) خارج حساباتهم . والضحية هي مئات أو حتى آلاف الأبرياء الذين سيعانون من خطف جندي أو جنديين من الجيش الصهيوني وهي مسألة تهدم أكثر مما تخدم ، وشبَّه أحدهم إسرائيل بمايك تايسون يسير بالطريق، متسائلاً عمَّا سيحدث له بعد ضربه لتايسون بلكمة قوية على رأسه ليتحمل ما سيقوم به تايسون بعدها من لكمات على رأسه هو شخصياً بعد ذلك؟ وأجابه أحدهم قائلاً: " وحياتك أول ما تايسون، قصدي إسرائيل، تبدأ في الرد ها دول الأشاوس راح يصرخون و يستنجدون بالأمم المتحدة". وانتقلت من معسكر" تايسون" إلى معسكر "الأشاوس" لعل وعسى أجد مخرجاً من دائرة العنف الجارية أو

صوتاً للعقل ينظر إلى تراجيديا القتل والثأر خـــارج منظومـــة تصفية الحسابات السياسية إلا أن الأمـــر لم يختلـــف ،فقـــال الأشاوس: " لما الاسرائليين كل يوم بيقتلوا شـــبابنا بفلـــسطين ويغتصبوا نساءنا ويشردوا أطفالنا ،هني حلال يعملوا كل شي ونحنا حرام ،أنت لو فيك ضمير ما بتحكي هيك يـــا عيـــب الشوم على الشهامة عندكن ما في بالعرب إلا شخص واحـــد هوي السيد حسن نصرالله، الله يحميلنا إياه واليوم رفـــع رؤوس العرب بهيدي العملية النوعية ونحنا كلنا مـــع الـــسيد حـــسن نصرالله". وجاءه الرد سريعاً، فقد قرر "آخر" أن يقذف الكرة في الملعب السوري فقال:" إن ما فعله حزب الله اليوم هو قتـــل للناس و قطع أرزاقهم و هذا من الطبيعي في هذه الأيام لأنـــه تلقى الأوامر من الطاغية السوري والمتطـــايرين الإيـــرانيين ، فللأسف حسن نصرالله قد أسس دولة على مقاسه كأنه لـــيس لبنانياً ،فالأفضل له أن يغادر ويعيش في سوريا بدلاً من لبنان... و لم ينتزعني من متابعة جنرالات المقاهي سوى رأس مقطـــوع لطفلة وبقايا أشلاء عربية لبنانية وفلسطينية تخرج مـــن تحـــت أنقاض القصف الجوي الإسرائيلي لغزة ولبنان ،والذي لم يفلح حتى الآن في دك حصون الغيبوبة السياسية التي نتدثر بها.

اختطاف وطن.

ما أشبه الليلة بالبارحة.. وماأشبه الغيبوبة السياسية في الليلة والبارحة، نفس المصطلحات السياسية البراقة والتوصيفات الخائبة التي حلت علينا منذ اختطاف فلسطين عام ١٩٤٨ ثم ابتلاعها عام ١٩٦٧.. ولمن لم يتعسه الحظ مثلي ويعايش وقائع الحربين فليدير مؤشر قنواته الفضائية ويشاهد نسخة مكررة باختطاف أحمد سعدات وفق سيناريو تواطؤ بريطاني أمريكي مخجل (مخجل لمن؟!) بانسحاب منظم ومتفق عليه يعقبه هجوم إسرائيلي في ظل غياب تواجد أمني فلسطيني أو مجرد مظلة سياسية آنجلوأمريكية.

نعم هذا ما حدث عام ٤٨ عندما سلمت بريطانيا فلسطين لليهود رغم قرارت الأمم المتحدة وباركت روسيا قبل أمريكا إعلان دولة إسرائيل واكتملت جريمة الاختطاف بحرب ٦٧.

إلا أن الرمز يلعب دوراً أساسياً في عملية سجن أريحا الأخيرة ،فالمشهد العلني لإخراج السجناء عراة رسالة إلى النظام الإقليمي العربي المتآكل، مثلما كانت مشاهد اعتقال الرئيس العراقي من حفرة صرف صحي رسالة لكل من يفكر أن يحرك أصبعاً في وجه أمريكا.

ودون التوقف كثيراً أمام مشاهد الإذلال نسأل أنفسنا عن مخرج.. البعض يطرح أجندته الجاهزة دائماً ،وهي مزيد من

التصعيد والقتل والثأر الذي لا ينتهي في مواجهة خصم يزداد شراسة يوماً بعد يوم بمساندة بلطجي العالم.. والبعض الآخر يطرح أجندة الحوار والمفاوضات وتقديم التنازلات والاكتفاء بالشجب والإدانة ولا ثالث لهما، بل إن مجرد الدمج بين تصورات الفريقين غير مطروح وحالة الشتات السياسي العربي تتزايد ولا يبدو حل أمام الفلسطينيين إلا أن يحزموا حقائبهم ويرحلون في شتات جديد، أو أن يرتدوا أحزمتهم الناسفة ويعبروا إلى إسرائيل.

بمعنى أن العالم مقبل على دورة جديدة من العنف والقتل ستكون أسوأ من سابقتها بعد أن أُحكم الغطاء فوق القدر السياسي وتم احتباس الغليان والاحتقان بالداخل، تماماً مثلما حدث قبل أحداث سبتمبر..لأن العبث بالحقوق السياسية للشعوب غالباً ما يكون له ثمن، وأي حديث أمريكي عن إحياء سياسة الضربة الوقائية ووضعها في صلب السياسة «الدفاعية» الأمريكية هو للاستهلاك المحلي فقط باعتبار أن لكل فعل رد فعل مساو له إن لم يكن يتجاوزه في القدرة والمقدار، كما أن استبدال أنظمة الحكم السنية بأخرى شيعية أشبه باستبدال برميل بارود تقليدي بآخر نووي.

فأصابع أمريكا المحترقة في العراق لم تحقق الإفاقة الكاملة بعد للإدارة الأمريكية، وصعود حماس في فلسطين لم يحقق الإفاقة الكاملة لإسرائيل، بل دفعها إلى مزيد من العنف ووضع نهاية لمستقبل التيار المعتدل بقيادة محمود عباس، وتفجيرات لندن

زادت من حالة العمى المصابة بها السياسة البريطانية بحيث لم تعد تبصر حكومة بلير الفتيل المشتعل يسعى حثيثاً نحوها. ولازال البعض لا يدرك حتى الآن أن الاختطاف متبادل ،فمثل ما تم اختطاف فلسطين من قبل العصابات الصهيونية الإرهابية فقد تم اختطاف الولايات المتحدة الأمريكية بأكملها في أحداث سبتمبر، فأعلنت الطوارئ واعتقلت الديمقراطية ودهست الحريات العامة والشخصية بإجراءات التنصت واختصرت الحياة بين ثلاثة ألوان للطوارئ ،الأصفر والبرتقالي والأخضر، وأقيمت المعتقلات الطائرة وفتحت السجون أبوابها لتعمل بكامل طاقتها الاستيعابية في جوانتانامو.

الدخان الأزرق

سيطرت حالة من خلط الأوراق على قراءة نتـائج اتفـاق مكة بين القطبين الفلسطينيين برعاية سعودية.. وانطلق كثيرون في محاولة للانتقاص من الدور والسياسة المصرية تحـت تـأثير الدخان الأزرق الذي لا يغادرهم منذ زمن بعيد، وتصوير الأمر على أنه حصاد حالة مستمرة ومتجددة من التراجع المـصري داخلياً وخارجياً، وعلى مختلف الأصعدة الـسياسية والثقافيـة والفكرية ،وأن مصر بكل تاريخها وميراثها الحضاري وقوهّـا البشرية تحولت إلى قزم بمجرد تدخل السعودية لحقـن الـدماء الفلسطينية، رغم أنه جرى في إطار من التكامل والتنسيق مـع الدور المصري الذي اعترف به أبو مازن ،ويرفض الاعتراف به قيادات حماس لحسابات معروفة للجميع ،تجري صـياغتها في طهران وتل آبيب أحياناً وفي عواصم عربية في أحيان أخـرى، وفي القاهرة نفسها مع جماعات محظورة تتصارع على الحكـم وتمارس لعبة تشويه بدائية قديمة تهدف من ورائهـا إلى إتخـام النفوس وإيغال الصدور لدى الرأي العام والـشارع المـصري بالكراهية نحو قياداته السياسية تنفيـذاً لمخططـات اسـتعمار خارجية تبدأ بإضعاف سيطرة النظام وتنتهي بالتحريض علـى غزو البلاد تحت شعار "استعمرونا يرحمكم الله".

التدخل السعودي لحقن الدماء الفلسطينية وترتيب الـداخل الفلسطيني لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي لايستدعي الإسـتئذان

من مصر ،لأن حقن الدماء يستدعي تدخلاً جراحياً سريعاً دون انتظار لكل من يملك إحدى أدوات التأثير ودون إضاعة الوقت في البحث عن أدوار الزعامة الحنجورية، أما الضجيج الدائر الآن فتحركه تيارات سياسية كانت تطمح هي ذاتها إلى سحب البساط من تحت أقدام النظام السياسي وإدارة الأزمة بالوساطة المباشرة مع قيادات حماس، لتُظهر للمجتمع الدولي عجز نظام الحكم في مصر عن تحقيق مصالح شعوب المنطقة لانغماسه في قضية التوريث، وهو تفسير أعوج منحرف غاية في السطحية والسذاجة لازال يغدو في المراحل الأولى للمراهقة السياسية ونحمد الله أنه كذلك.. ثم مَن المستفيد من تراجع الدور المصري أوتقدم السعودي ؟ أسئلة ينبغي أن نجيب عليها قبل أن نمارس جلد الذات. إسرائيل نفسها هي المعني الأول بحجم الأدوار العربية ، لأنها في واقع الأمر تبحث عن شريك عربي إقليمي تحمله بتبعات إجرامها في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فهي تُجرم الدور "المصري" عندما تتشدد "فتح" في مواقفها وتتهمه بتهريب السلاح عبر أنفاق سيناء وبتسلل الإستشهاديين، ثم تنتقل إلى مهاجمة الدور السعودي إذا ما أقدمت منظمات الجهاد على تنفيذ عملياتها الإستشهادية داخل تل آبيب بزعم أن السعودية تقدم الدعم لأسر وعائلات الاستشهاديين.. فجميع الأدوار العربية من وجهة نظر إسرائيل هي أدوار معادية؛ وبالتالي فإن الجري وراء المسميات والانغماس في الصراع على زعامة المنطقة يستهدف بالدرجة

الأولى تحقيق أكبر قدر من الانقسام داخل البيت العربي الواحد، وإغراق ركائزه الإقليمية في سيناريوهات الصراع الإسرائيلية . وإسرائيل حريصة على إثارة تلك النزعة منذ اللحظة الأولى لوصول حماس إلى السلطة، وبدأت وقتها على الفور عبر بعض المؤسسات الأكاديمية الترويج للرأي القائل بتضاؤل الدور الإقليمي لمصر بصورة بالغة، وأن مصر تواجه معضلة عسيرة للغاية ليس واضحًا كيف ستتمكن من حلّها. وهي رغبتها في استقرار الأوضاع بفلسطين وغزة وتسوية مشكلاتهم الاقتصادية واستمرار الحكومة الجديدة، مما يحول دون انتشار مشكلات غزة إلى داخل مصر، كما أن نجاح حماس سيُعَدّ بمثابة كابوس للنظام المصري لأنه سيعمل كنموذج، وإذا أثبت هذا النموذج نجاحه في فلسطين مع نجاحه السابق في تركيا، فماذا يمنع تجريبه في مصر؟!. ثم انتقلت إسرائيل إلى العزف مجدداً على نفس أوتار الانقسام في مقال أخير لشلومو آفينيري رئيس حركة السلام الآن في صحيفة "جيروزاليم بوست" يدعو فيه إلى أن تكون فلسطين محمية سعودية واعتبارها العنوان الصحيح لحل القضية الفلسطينية بدلاً من مصر.. أي أن الصحافة المصرية أصبحت تلعب الآن وفق الأجندة الإسرائيلية لإثارة النعرات والفرقة دون أن تقرأ بتأني ما بين السطور بعيداً عن الدخان الأزرق المتطاير من سحر نعالهم.

اهرشوا راسكو !!

لازالت صرخات جدتي تدوى في أذني كلما دوت سارينة سيارة الإسعاف وهي تمر في شارعنا الذي نقطنه بحي عابدين، تدعونا في فزع إلى هرش رؤسنا ونحن نفعل دون أن ندري السبب أو المغزى أو العلاقة بين سارينة الإسعاف والهرش والفائدة المرجوَّة منها، ومع تقدمي في السن امتنعت عن الهرش ومارست التساؤل لعلي إلى الفهم أهتدي، وهالني سماع الحكمة الكامنة لديها، وتبين لى أنها إستراتيجية دفاعية كاملة متكاملة تسمى "تعويذة الهرش" ووظيفتها أن تمنع صاحبها وتحميه من أن تلتقطه سيارة الإسعاف يوماً ما بعيداً عن بيته وأهله ومسكنه إلى مكان غير معلوم يختفي بعدها إلى الأبد، ولا أدري مصدر الحكمة أو مصداقيتها لدى جدتي وأعترف أنني لم أحاول اختبار صحتها في يوم من الأيام والتزمت فقط بتنفيذها حرفياً إلى أن سقط شعرى بالكامل، وهي لا تغيب عن ذهني لحظة مع كل مصيبة تَحُط في عالمنا العربي وأنسبها دوماً إلى توقفنا عن الهرش في أجزاء متفرقة من أجسادنا ، وكلي يقين أن العلم الحديث لن يعجز يوماً ما عن إيجاد رابط بين الهرش في كل جزء من جسم الإنسان والكوارث السياسية التي نواجهها، لكن حتى يأتى هذا اليوم فلنكتف فقط بهرش رؤوسنا.. ورغم ما في دعوة الهرش من غموض، إلاَ أنها في تصوري باتت مسألة حياة أو موت لكثير من الأنظمة والقيادات العربية التي لم

يُحرك بعضها ساكناً سواء بالشجب أو بالإدانة أو بالمباركة والتأييد، أو حتى بهرش قرار المحكمة الجنائية الدولية محاكمة الرئيس السوداني كمجرم حرب، وكأنها تنتظر دورها في أية لحظة باستسلام ورضاء نادرين، أو فيما يبدو أنها فوضت أمين عام جامعة الدول العربية بالهرش نيابة عنها، وإصدار بيان بأسمائها يحمل دعوة صريحة للشعوب والأنظمة كافة بممارسة الهرش إجبارياً استناداً إلى ميثاق جديد يُجرى إعداده في سرية تامة بهذا المعنى.. فقد تبين لدى الخبراء أن العراق كان بوسعه تفادي الغزو الأمريكي لو أنه هرش بالقدر الكافي وأن ما ارتُكب على أراضيه من جرائم حرب وإبادة وتعذيب لايدخل في نطاق اختصاصات المحكمة الجنائية الدولية لأن الولايات المتحدة والرئيس بوش كائنات فوق المسألة، تمارس الهرش بانتظام بعكس الأقطار العربية، والفلسطينيون أيضاً يستحقون كل ما يفعله بهم أولمرت وباراك وكل قادة إسرائيل التاريخيين ذوي الخبرة والكفاءة في تشريد شعب بأكمله جريمته التي لاتُغفر أنه لم يهرش!!.. الفضيلة الوحيدة لقرار المحكمة الجنائية الدولية أنها فضحت كثيراً من مواقف الرجال على الصعيد الوطني كنا نحترمهم ونثق في مواقفهم ،فإذا هم فقهاء للشيطان ومنطقهم في الحكم هو نفس منطقه، يرون في تحول النظام الدولى والقانون الدولى العام والقانون الدولى الإنساني إلى أداة ضغط على كثير من الحكام وكثير من أنظمة الحكم، فرصة لمراجعة سياستها التي تقوم على الاستبداد بشعوبها والاستئثار

بالسلطة والثروة وكل غنائم الفساد والتمسك بقهر كل صور المعارضة والتعددية الــسياسية، وتناســوا انحرافــات الإدارة الأمريكية الحالية عن الإيمان بسيادة القانون بفعل التوجهــات الصهيونية، واتخاذها أكثر من معيار في سياستها الدولية استناداً إلى غطرسة القوة، مما ينذر بأن يلقي التنظيم الدولي نفس مصير العبارة المنكوبة ويحصد معه أرواحاً كثيرة ويظل الفاعل مجهولاً بحكم قضائي .. وتناسوا أن حرية الشعوب وكرامتها لا تــأتي بها فوهات المدافع وقاذفات الصواريخ أو المحكمة الجنائيــة أو مجلس الأمن المصاب بشلل رعاش مزمن بفعل الفيتو الأمريكي المعارض دوماً لأية إدانة لجرائم الإنسانية الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، يثورون لمنع تداول كتاب "أرض الفراعنــة على شفا ثورة"، ويفقدون كل رجولتهم إذا ما طلب إليهم أن يدينوا الإساءة لأوطانهم.. هؤلاء هم العدو فأهرشوهم.

عايزينها تبقى ضلمة!!.

احترقت قواعد اللعبة السياسية الفلسطينية في نفس اللحظة التي أعلنت فيها حركة حماس استيلاءها على غزة أو تحرير غزة كما تسميه حماس.. وأياً كانت التسميات فالنتائج واحدة، حصار سياسي واقتصادي واجتماعي لا هوادة ولا رحمة فيه، باعتبار أن القاعدة الأولى التي أغفلتها حماس هي أن كل شيء مباح في الحب والحرب ولا اعتبار للدواعي الإنسانية .. حماس رفضت قواعد اللعبة عندما قررت الانقلاب على فتح بصرف النظر عن مدى صدق ونقاء وطهارة ثورية حماس، فهي أولاً وأخيراً لعبة تجري أحداثها على حد السيف ، ومن يسقط يسقط عنقه معه.. وليس في الأمر عنتريات كما قال السفير حسن عيسى منذ أسابيع بالحرف الواحد " غزة مرتبطة بسلك كهرباء بإسرائيل، بماسورة مياه بإسرائيل، بسلك تليفون بإسرائيل، بماسورة صرف صحي بإسرائيل.. لذا يكون التصرف في تلك الحدود .ولو عايز يكون لي موقف وعنترية أفك المواسير والسلوك الممتدة، وإلا إذا قفل "شلومو" هذه المحابس تحولت غزة إلى مقبرة، فلابد أن نراعي ذلك ونحن نتصرف"... لكن البعض يصر على مخاطبة المشاعر الفلسطينية واستهلاك أكبر قدر ممكن من مصطلحات الخيانة والعمالة والقوادة ،بينما كل ما في الأمر أنها اللعبة القذرة المسماة "السياسة" والتي تجيدها فتح وتعجز عنها حماس.. ولو أن حماس

كانت تحيدها لفعلت نفس الأمر بأدق تفاصيله.. والخطورة ليست في الخدمات والمرافق أو في القصف بالطائرات لعناصر حماس لأن الإجرام الإسرائيلي أصبح معتاداً لدى الإعلام الغربي والعربي ولا تخلو منه وسيلة إعلام عربية أو غربية، لكن المعضلة الحقيقية في مخطط تصفية القضية باستدعاء قوات دولية لضبط الأمن في مناطق السلطة الفلسطينية، ثم في مخطط مؤتمر بوش الدولي للسلام لتقسيم وتفتيت المقسم بفعل الجدار العازل؛ هل من المنطقي أن يُجرى استدراج الفلسطينيين لمؤتمر السلام وهم بتلك الحالة المؤسفة من التشرذم؟ وهل من المنطقي أن ينتظرهم عدوهم ليجتمعوا على قلب رجل واحد ليجتمع بهم ؟ ما هي مصلحة إسرائيل والولايات المتحدة في انتظار ترتيب البيت الفلسطيني من الداخل للجلوس حول مائدة التفاوض؟ الإجابة: أنه لا مصلحة! وأن الفرصة التاريخية لإسرائيل هي الاقتتال الفصائلي الدائر الآن ، إذاً فالمشكلة ليست في التحول الأخير لحماس ولم تبدأ المشكلة بسبب ما فعلته حماس ولا بسبب أن حماس فازت بالانتخابات أصلاً، بدليل أن قبل دخول حماس الانتخابات، وفي ظل وجود الرئيس ياسر عرفات قامت إسرائيل بمحاصرة عرفات في المقاطعة ورفضت أي تقدم في التسوية السلمية وهذا أسبق من وجود حماس، لكن لا مانع من زيادة الطين بلة بتصريح أبو مازن بأن حماس هي القاعدة .. وننتقل معه من مرحلة الخطأ السياسي إلى الخطيئة الإستراتيجية الفادحة، والكارثة أن كلا الفريقين سقط ضحية وَهْم السلطة

القائمة على تناقض ذاتي في الحالة الفلسطينية وتخلط بين وظيفتين يستحيل الجمع بينهما.. وظيفة حركة التحرر الوطني ووظيفة الدولة !! والوهم الثاني أن تلك السلطة ذاتها ترزح تحت الاحتلال.. والطبيعي جداً أن هذه الفكرة باعتبار أنها فكرة مرتبكة ومتناقضة ذاتياً أن تخلق هذا الاقتتال بين حماس وفتح، أو بين فتح وفتح، أو بين الجهاد وحماس. المسألة الثانية..أضف إلى ذلك أن كلاً من الفلسطينيين والقضية ضحية للتغيرات الكونية واختفاء نظام الثنائية القطبية، ووفاة الأب الروحي لفكرة الدولتين وتبقى فقط نظام أحادي القطبية أسير توجهاته نحو تل آبيب وإمكانية الحل السلمي؛ الإستراتيجية كانت قائمة على فكرة التوافق بين الإرادات في ظل الهامش المتاح بين المعسكرين ووجود نظام عربي فيه حد أدنى من القدرة على البقاء، لكن الآن ما هي مقومات التوافق في ظل هذا الخلل الذي حدث بالنظام العالمي وهيمنة نظام عالمي ليس لنا فيه حول ولا قوة مساندة، والإستراتيجية العربية قائمة على مبدأ نادر لم يحدث في تاريخ أية حركة تحرر" أن الحليف الرئيسي هو العدو الرئيسي" ؟!!

الفصل الرابع..

صناعة الفوضى!!

منظومة الفوضى!

الفوضى لا تنتج نفسها بذاتها، ومكوناتها عادة ما تكون من خامات محلية، ووكلاؤها من الداخل من نفس طينة الأرض التى نحيا بها جميعاً، وإن كانت تبدو فى مراحلها المبكرة كنتاج لتدخلات خارجية تأخذ أحياناً صبغة تآمرية وتتعايش لفترة على التغذية بالأنابيب من أطراف مؤثرة بالخارج، لكنها فى النهاية تستمر بسواعد أبنائها وركائزها فى الداخل.

والبعض قد يعمل بلا وعى أو عن إدراك وتصور كأحد تروس ماكينات الفوضى، ورغم أنه بالدرجة الأولى مجرد ترس قد يُستبدل فى أية لحظة، إلا أنه لا يمكنه أن ينظر إلى ذاته فى المرآة سوى من موقع المسيطر المؤثر المبتكر المبدع.. وقليل من تلك التروس من رأى نهايته مبكراً فانسحب، وكثير منهم قرر أن يستمر دون تراجع أو استسلام فى صياغة وتنفيذ منظومة الفوضى.

وتحديد تلك النماذج لم يكن أبداً معضلة، المشكلة الحقيقية هى اكتشاف أساليب عمل تلك المنظومة المتغيرة بحدة وبسرعة كبيرة بل وبإتقان ومهارة لا نظير لهما، وحتى لا يكون الحديث مبهماً وغامضاً فقد حاولت فى التناول تفكيك منظومة الفوضى للإجابة على تساؤل رئيسي هو :كيف تعمل ؟ ومن يحركها ؟ ومن هم أدواتها؟!.. بات مؤخراً من النادر أن تتصفح الجرائد أو فضائيات الإعلام العربي دون أن ينهمر أمامك سيل من

الكتابات والتعليقات والحوارات عن المبادرة العربيـــة للـــسلام والموقف الأمريكي منها والمراوغات الإسرائيلية حولها، وهـــو حديث يشبه تماماً قنابل الدخان التي أطلقت قبل حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت وكانت من نوعية مؤتمر مدريد للـــسلام واستهدفت تخدير الشارع العربي وضمان بقائه في غيبوبة طالما استمرت العملية الجراحية لإخراج العراق من الكويت وحصاره وتجويعه وإذلاله إلى أن انتهى الأمر باحتلاله وإســقاط نظامــه وقتل شعبه تحت ستار نشر الديمقراطية واستبعاده نهائيـــاً مـــن معادلة القوة العربية في مواجهة إسرائيل.. ولأن مؤتمر مدريـــد وخريطة الطريق لم يَعُدا يصلحا كستار دخان لضرب إيران فلا مانع من استغلال الحماس العربي للمبـــادرة العربيـــة للـــسلام والترويج لها في زخمٍ إعلامي غير مسبوق منذ إعلانها في قمـــة بيروت لتصبح مجدداً ستار دخان للإجرام الأمريكي في المنطقة، ولا مانع من أن نسقط في جدلية الدور المصري ،وهل تراجـــع لحساب السعودية أم أن الدور المصري والسعودي قد تراجـــع لحساب طهران ؟!.. وهل الدولة الفاطمية كانت مجوســـية أم إسلامية؟. وهكذا تُثار النعرات لإستهلاك وإجهاد دوائر الرأي العام بعيداً عن مسارات الفوضى الخلاقة التي تقودها الولايات المتحدة منذ غزوة نيويورك، إذ أصبح تقويض أنظمة الحكم في المنطقة هو الشغل الشاغل لسادة واشنطن ،ولن يختلف الأمـــر من الحزب الجمهورى إلى الحزب الديمقراطي فـــالجميع متفـــق على تفكيك وإعادة تركيب أنظمة الحكم العربيـــة بتركيبـــة

مشوهه تمنع مستقبلاً مجرد التفكير في معارضة واشنطن أو تـــل آبيب، وليس أبلغ دليل على ذلك من تسلل أصابع واشنطن إلى ملف الجماعات السياسية المحظورة في مصر بل واستدراج كل قوى المعارضة إن أمكن ذلك..وليس من المستغرب أن نشاهد "نموذج الانهزامي" يصول ويجول بصحبة أحد قواديه يطوف به في بر مصر ويمارس لعبة الضغط على أعصاب النظام طمعـــاً في أن يعاود الإتجار من جديد في شعب مـــصر.. ولـــيس مـــن المستغرب أيضاً أن يتزامن ذلك مع دعوات مـــصر ومطالبتـــها بتوازن المواقف من الملفات النووية بالمنطقة ومساواة إســـرائيل بإيران في معالجة قضايا الحد من الانتشار النـــووي وخطـــورة استمرار سياسة المعايير المزدوجة على مصداقية نظـــام حظـــر الانتشار، وهو كلام لا يخدم منظومة الفوضى وينطوي علـــى أخلاقيات ومثاليات لم تعد مطروحة في التنظيم الدولي منذ زمن بعيد، بل حل محلها شريعة إنسان الغـــاب طويـــل النـــاب.. والمطلوب من السياسة المصرية أن تبصم وراء مطالب إنـــسان الغاب دون معارضة أو مقايـــضة أو مطالبـــة بالاحتكـــام إلى الشرعية الدولية وإلا تصبح دولـــة معاديـــة.. الاستكـــشاف الأمريكي للداخل المصري ليس وليد لقاءات النائب الإخـــواني سعد الكتاتني والمسئولين الأمريكيين، فقد سبقه لقاء الـــدكتور رفعت السعيد بالسفير الأمريكي ،مروراً بلقاء كونداليزا رايس بعدد من قيادات العمل الـــصحافي والأكـــاديمي والـــسياسي فالحديث لا ينقطع بين أطياف المجتمـــع والـــدوائر الأمريكيـــة

السياسية لكنه دائماً ما يسبح عكس التيار ،لا يستهدف أي تناسق أو تناغم في العلاقات السياسية المصرية الأمريكية ،وإنما يهدف إلى مزيد من الانكفاء المصري نحو قضايا الداخل، لم يأخذ طابع المشاركة مع قوى إقليمية لها تاريخ عريق وثقل ووزن إقليمي بل كان دائماً ما يهدف إلى سحق عظام هذا الثقل والدور أو تحويله إلى تابع ذليل للهيمنة الأمريكية.. وتدفعنا القراءة المتأنية إلى منظومة الفوضى الأمريكية نحو اليقين بأن صيغ السلام المطروحة لن تنجح كآلية جديدة لتسوية الصراع المزمن في قلب فلسطين ،ولن تحقق اختراقاً حقيقياً للصراع العربي الإسرائيلي.

البهلوان السياسى!

قد يختلف المفكرون كثيراً في تعريف السياسة، فأحياناً ما يصفونها بفن الممكن، وأحياناً أخرى يطلقون عليها شعرة معاوية ،ولكن كثيراً ما توصف بأنها الحرب بوسائل أخرى..لكننا دائماً ما نحتار أمام تعبير بهلوان سياسي لأننا نتصور أن دوره فقط تملق السلطة السياسية وتزيين سوء أعمالها وتبرير سفكها للدماء وسحل معارضيها، فأحياناً ما يكون هذا دوره المرسوم عند محطة تاريخية معينة، ولكن عندما تنتهي تلك المحطة فإنه لا يتوقف عن البحث عن محطات فضائية أخرى يبث من خلالها سمومه ،ودوره هنا يكون مختلفاً تماماً عن دوره السابق في غلق الأبواب والنوافذ وتكميم الأفواه — إلا من التسبيح باسم سيده الأعلى وتبرير جرائمه وهزائمه — إلى التحول في حركة بهلوانية لإفاقة الشعوب العربية من عالم الغيبوبة وفتح كل الملفات والعورات باسم الإفاقة مستخدماً إستراتيجية إعلامية شهيرة اعتمدتها إذاعة بريطانية عريقة وتقوم ببساطة على "دس السم في العسل".

وننتقل من تعريف المفهوم إلى تحليل الدور، وهو دور يتمدد وينكمش وفق رؤية مدير السيرك الذي يعمل تحت إمرته، وغالباً يتركز في تقديم التمهيد الفكري النيراني على مدى زمني بعيد لو كانت الخطة تسلتزم التحرك ببطء وتأني، فيبدأ بث تحليلات الحجرة المظلمة أولاً، بمعنى تقديم رؤية سوداوية

للأوضاع والظروف الآنية والمستقبلية ،وتخيل سيناريوهات لانفلات الأوضاع وانفجارها في وجه الأنظمة العربية الحاكمة وتصوير وضع انفصامي بين السلطة والشعب، وتآمر أقطاب السلطة على بعضها البعض ،وتحفزها لانقلاب القصر والتدخل الأجنبي لصالح طرف، ثم ترويج روايات الفساد السلطوي والنهب المنظم للثروات وحقوق الإنسان المهدرة في السجون والمعتقلات مع الاستشهاد بتقارير مدير السيرك في هذا الشأن.

فالبهلوان هنا يؤدي دور التمهيد النيراني بالمدفعية في ميدان المعركة مستخدماً أفكاراً سلبية تخلق على المدى البعيد صوراً نمطية سوداء لدى المستمع والمشاهد، بحيث يستدعي تلك الصورة بشكل تلقائي كلما حدث جديد ، ويصبح لديه أجندة خاصة بتحليل كل الأحداث من هذا المنظور السلبي.. مثال على ذلك فقد دأبت وسائل الإعلام البريطانية على بث تقارير عن خلافات داخل أسرة عربية حاكمة حول الخلافة وصراعات بين الأمراء من الأجيال الشابة المتعلمة في الغرب وبين أعمدة الأسرة والحكم، ثم استدعاء تلك التعبيرات كلما وقعت حادثة إرهابية والإيحاء بأنه ردة فعل للحراك الاجتماعى الدائر داخل هذا المجتمع ،وكأن أي عمل إجرامى في أي قطر عربي لابد وأن يفسر بأنه توجه إصلاحي ترفضه السلطة السياسية ،فيتجه إلى العنف تلقائياً.

إذاً دور البهلوان هنا يكون عزل التفاصيل والأسباب الحقيقية وخلطها بتصورات ممزوجة برائحة المؤامرة لتضفي

عليها مذاقاً خاصاً يلقى صدى لدى الرأي العام خطوة خطوة .
فهل يمكن بعد كل هذا الإقتراب أن نشير بالاسم إلى هذا البهلوان ؟

لا أظن أن ذلك سيكون مفيداً لأننا إن أمسكنا بأحدهم ظل الآخرون طلقاء ،فهي سلالة لا تنتهي ولا يحدها زمان أو مكان، وقد تعتزل الكتابة أحياناً لتحترف الثرثرة، ويكفينا فقط أن ندرك ذهنيتها قبل أن نسير من خلفها مرددين كل سمومها.

ويكفينا أيضاً أن يكون لدينا مشروع فكري نطرح من خلاله صورراتنا الحقيقية وخصائص مجتمعاتنا وأنظمتنا ومشاريعنا وتصوراتنا عن المستقبل، لا أن نقف مستقبلين للصور السلبية والتعامل مع كل منها بأسلوب رد الفعل..أن ننشر الثقافة السياسية مع كل رغيف خبز وشربة ماء وإلا سنضل جميعاً الطريق إلى النهر..أن نضئ شمعة، خيراً من أن نلعن الظلام.

سوط سيده

ابتلي الإعلام العربي والمصري بتلك النوعية من حملة الأقلام التي تنظر إلى دورها وفق هذا التعبير .. وهو اصطلاح متعارف عليه لتلخيص مواقف كثيرة من رموز العمـــل العـــام دون أن تقتصر على مهنة محددة بذاتها ، لكنها تبدو أكثر فجاجة وقبحاً في العمل الصحافي والإعلامي بل إن البعض يصبح مدمناً لها مع مرور الوقت ومستمراً ومستكيناً مرتاحـــاً البـــال والـــضمير لمبررات العمالة ومنطق القوادة السياسية الذي يتقنه ويعمل وفق أجندته .. وأتصور أن شائعة مرض الرئيس كشفت بدقة عـــن ملامح ووجوه وسلالات كثيرة من حملة سياط أســـيادهم إن جاز التعبير، والتي انطلقت إلى العمل فور تلقيها ما تصورت أنه إشارات مبطنة جرى نقلها عن السفير الأمريكي بالقاهرة بشأن الحالة الصحية للرئيس، والذي قام بدوره بغسل يديه من بـــث تلك الإشارات في بيان صحافي وفي لغـــة دبلوماســـية حـــادة وقاطعة، أعربت فيه السفارة عن اســـتيائها مـــن المعلومـــات المغلوطة التي تناقلتها بعض الصحف المصرية مؤخراً. وأن السفير ريتشاردوني لم يعرب في أي وقت من الأوقـــات — ســـواء في لقاءات عامة أو خاصة — عن شعوره بـــالقلق حـــول صـــحة الرئيس مبارك. وبالتالي فإن هذه الشائعات تفتقر إلى أي أساس من الصحة أو الحقيقة.. وهو موقف جدير بالاحترام والترفـــع عن تلك الصغائر من سفير أكبر دولة في العالم ،فلا يجوز وفـــق

الأعراف الدبلوماسية أن يتورط سفير أية دولة في ترويج تقارير طبية عن الحالة الصحية لرئيس الدولة المضيفة.. لكن البعض يصر على تصنيف ردة الفعل القانونية بأنها محاولة لإرهاب الصحافة ويصر على التفسير التآمري وكأن فوضى الشائعات حول الحالة الصحية للرئيس رغم ما تثيرها من اضطرابات سياسية واقتصادية وأمنية هي حق مشروع، بل إن المقارنة مع ما يجري في حالة التعرض إلى الحالة الصحية للرئيس الأمريكي من معالجات إعلامية ينبغي أن يمثل مرجعية لـ" خلية سوط سيده" الصحافية ،ولا ينبغي أن تتعامل بهذا القدر من الحساسية مع تحريك الدعوى القانونية تجاه الشائعات، لأن الفارق بين الصحافي والهتيف أن الأول لا يدخل المصيدة بينما الثاني هو ضيف دائم بها، فالنظام نجح بامتياز في نصب مصيدة شائعة مرض الرئيس وفتح الباب على مصراعيه لكل الهتيفة ،وامتنع فقط من يعرف حدود وأبجديات العمل الصحافي في تلك الملفات الحساسة ،وبالتالي لن يكون من المستغرب أن نشهد نصل المقصلة يقطع رقاب ويقصف أقلام من هتيفة الجماعة الصحافية. وربما تتطور المطاردة إلى أبعاد أكثر خطورة كما حدث في شائعة القرية المسكونة عندما طافت السيدة المسنة بالقرى والنجوع تلطم الخدود معلنة عن اختطاف ابنتها وابتلاعها تحت الأرض بواسطة الجان، ثم بعد ٦ أشهر عادت الفتاة إلى الظهور من جديد ولكنها في تلك المرة كانت تحمل طفلاً على صدرها، وطافت الأم مجدداً بالقرى والأزقة تعلن أن

الطفل هو ابن الجان!!.. لكن في الوضع الراهن أرى كما يرى النائم في أضغاث أحلامه أن من سيحمل الطفل الرضيع ابـــن الجان هو الجماعة الصحافية عن بكرة أبيها، لأن البعض مـــن الزملاء قرر الاشتغال بالسياسة والابتعاد عن الأداء الـــصحافي الموضوعي ،واعتبر أن وظيفته الأساسية هي التلـــصص علـــى الممارسات الجنسية للجان، فكانت جائزته ذلك الطفل.. فليس من المعقول أو المقبول أن يضع الصحافي قرون استـــشعاره في خدمة سفير أو جماعة محظورة أو رجل أعمال يـــستربح مـــن المضاربة في البورصة كلما روجت صحيفته لشائعة سياســـية، وتتحول المسألة إلى استتراف الرأي العـــام اقتـــصادياً وماديـــاً واستهلاك قدرته وطاقته الإبداعية في اللهث وراء الـــشائعات مثلما كان يفعل " جوبلز " وزير الدعاية النازية .. نعم! ينبغي أن نحاسب أنفسنا قبل أن يحاسبنا الجان.

تاجر الرقيق الصحافي!!

الشهادة لله أن الرجل لم يتلون أو يحاول أن يتنصل من خطه الفكري الانبطاحي منذ محاولته الأولى في عالم النشر الصحافي ، فهو بهلوان محنك تراه في كثير من الأحيان يلعق أحذية سفراء روما وأسبرطة رغم أن كلتيهما وجهين لحذاء واحد. يقود الرجل تيار المنبطحين الرافض لوجهة النظر الوطنية أو الشيفونية في قضايا الداخل أو الخارج يلعن كل طاقة نور أو بادرة أمل، ليشعرك بأنه حارس المجرة المدفوع بقوى إلهية غامضة، بينما هو في الحقيقة ليس إلا أحد داعري الفكر السياسي الانبطاحي السعيد الذين يستكثرون علينا مجرد الكراهية المكبوتة داخل صدورنا للعُهر الدولي ، ومارسوا علينا الاستهزاء والسخرية واللامبالاة ،ورأوا فينا نعاج كما نرى فيهم علوج..

والتحول واضح في النوايا والأداء لدى تيار المنبطحين، فبعض القوى الكبرى التي ادعت في البدايات الأولى أنها ستكتفي بتأسيس وسائلها الإعلامية التي ستعبر عن رؤاها، تراجعت عندما فشلت هذه الوسائل لتعلن أنها ترصد مئات الملايين لكى تساهم في تمويل وسائل إعلامية تبدو مستقلة ولكنها تخدم مصالحها.. ولن يتحقق ذلك سوى بعدو من الداخل يرتدي قميص الناشر والمناضل السياسي لينفذ بدقة البروتوكول الثاني عشر من بروتوكولات حكماء صهيون الذي يصف بدقة تفصيل المشهد الراهن كالتالي.. (يتحتم رفع قيمة

النشر والصحافة ومميزاتها لترغيب كل إنسان في أن يصبح كاتباً أو ناشراً ، وعليه أن يحصل على رخصة يسهل سحبها منه إذا خالف التعليمات، مما يساعد على النجاح في نشر الأفكار التقدمية التحررية ،كي تؤدي إلى الفوضى وكراهية السلطة ،إذ أن هذه الأفكار لا حد لها، فكل من يسمون متحررون هم فوضويون إن لم يكونوا في عملهم ففي أفكارهم وعقولهم، ومن هنا يسهل عليهم السيطرة على المجتمعات ودفع أفرادها إلى السقوط في حالة فوضى المعارضة، التي يفضلها لمجرد الرغبة في المعارضة ،وهو ما تؤديه الصحافة ببراعة على أن يتم ترتيبها على النحو التالي ..الصحافة الرسمية التي تكون في حالة يقظة دائمة للدفاع عن مصالحهم يراعى جعلها ضعيفة التأثير جماهيرياً ،والصحافة شبه الرسمية يكون دورها استمالة المحايد وصحف المعارضة التي تعلن الخصومة في الظاهر وتدين بالولاء في الباطن، ويكون دورها جذب المعارضين وكشفهم ليسهل التعامل معهم، ويجب تكوين جرائد وصحف تؤيد كل التيارات وكل الطبقات وكل الاتجاهات لقطع الطريق أمام صحافة حقيقية تعبر عن تيار حقيقي وتيسر جذب المثرثرين الذين يتوهمون أنهم يرددون رأي جريدتهم ،وهم في الحقيقة يتبعون اللواء الذي يحرك الجريدة والحزب؛ والاجتماعات الأدبية يجب أن تتم باسم الهيئة المركزية للصحافة التي يجب تنظيمها بعناية مع إعطاء وكلاء اليهود حرية مناقشة السياسة اليهودية ومناقضتها ،مع مراعاة أن تكون سطحية ،وهذه

المعارضة لخدمة أغراض اليهود بجعل الناس تعتقد أن حرية الكلام لا تزال قائمة، وبهذه الطريقة استطاع اليهود النجاح في قيادة عقل الجمهورية وإثارته وتهدئته في المسائل السياسية وسهولة إقناعهم أو بلبلتهم بطبع أخبار صحيحة أو زائفة) ما سبق هو توصيف دقيق لمعالم شخصية الناشر ودوره ووظيفته الثورية التي هي ليست أكثر من نباح كلب لسيده الباحث عن النفوذ والسيطرة من وراء الستار ومن خلال دور الصحافة في توجيه الناس إلى المطالب الحيوية للجماهير وإعلان شكاوى الشاكين وتوليد الضجر أحياناً.. ولأننا لم نطلب المواجهة معهم، ظنوا أننا صحف الرحمن وأننا أضعف من أن نرفع أصبعاً أو ندخل في مواجهة مثلما فعلت بهم دوائر صحافية أخرى، وإنما كان ذلك لإدراكنا أن جوهر المعركة الدائرة منذ سنوات طويلة ـــ والذي كان للإعلام الوطني شرف محاولة رص الصفوف فيها ـــ هي نفس المعركة التي نواجهها منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية ،وهدفها منع العرب من أن يمتلكوا مشروعهم للنهضة والتحديث ومنعهم من أن يكونوا شركاء حقيقيين في الحضارة الإنسانية.

الإعلام العربي بين الخطأ والخطيئة ! !

أحياناً ما تشكل الأحداث الكبرى في التاريخ محاور مفصلية بين عالمين، ونقطة تحول لحزم الأفكار والمعـايير.. ولا يمكـن النظر إلى أحداث الحادى عشر من سبتمبر عند تقييم الإعـلام العربي واستشراف آفاقه المستقبلية سوى من منظور الـصدمة التاريخية التي مرت بها مجتمعاتنا العربية في ذلك اليوم وما خلفته من آثار لازال خطابنا الإعلامى أسيراً لها.

يرى كثيرون أن خطأ الإعلام العربي قبل أحداث سـبتمبر كان اللهث وراء تطوير التقنية الإعلامية واللحـاق بركـب التطور التكنولوجي الذي حوَّل العالم إلى قرية إلكترونية صغيرة أو قرية كونية، وهي التعبيرات التي راجت لليل نهار في تلـك الفترة، وأخذ أساتذة الإعلام يبـشرون بهـا في كـل حـين وانهمكت وزارات الإعلام وأبواق الدعاية في مجتمعاتنا تلـهث وراء أية تقنية إعلامية تطفو على سطح العالم... ولكن الخطـأ تحول إلى خطيئة بعد فهرنهايت سبتمبر، عندما اكتشف الإعلام العربي أنه لم يطور، وعلى نفس المستوى الرسالة الإعلامية ذاتها ،ويدرك أن عصر الخطابة انتهى منذ زمن بعيـد ،وأن صـراع الأفكار والحضارات كان مشتعلاً منذ فترة، لكـن الحريـق لم يمسك به إلا متأخراً .

بل إن الحريق تركز فقط في منطقة إشعال الخلافات العربية/ العربية من خلال المعارك التلفزيونية لكي ننهمك أكثر وأكثـر

داخل ذواتنا بعيداً عما يجري في العالم، ولم تـنجح أحـداث سبتمبر ذاتها ورغم قسوتها وتداعياتها الأكثر مرارة في أن تحقق نسبة الإيقاظ الكاملة للأفكار والعقول العربية، ويكفي أن نلقي نظرة واحدة على رصيدنا من النشر والتأليف بكل فروعـه في مقابل رصيدنا المتنامي بلا مبرر لقنوات "البورنو كليب" لندرك حجم الكارثة التي نحيا بها بين ضـلوعنا، فلازالـت الأفكـار تصادر في أقطارنا العربية، ولازال الكتـاب يهـدد أنظمتنـا، وتجري مصادرته ومطاردته بين الأزقة وفوق الأرصفة وداخـل ثنايا ماكينات الطباعة في حين تتضخم الفضائيات الغنائية مـن كل لون وطعم بلا سبب مفهوم، إذاً فالفكر هو مـا نخـشاه، وصدام الأفكار هو ماهرب منه إلى الفضاء الراقص.

ثم إذا انتقلنا إلى الصحافة فسنجدها لازالت في انقسامها إلى فريقين، الأول يسبح بحمد الأنظمة، والثاني يلعن كل طاقة نور أو بادرة أمل، أما النغمة الصحية والصحيحة فلا أثر لهـا بـين معزوفات النفاق أوالصياح، اللهم إلا في النزر اليسير.

لكن الأكثر خطورة كان في استدراج واسـتنفاذ قـدرات الإعلام العربي الرسمي في الدفاع فقط عن المجتمعـات العربيـة والإسلامية تجاه الاتهامات بالإرهاب والتصدي ثم التصدي إلى آخر مدى لأي سطر أو لفظ يصف العرب بالإرهاب وإنفـاق الوقت والمال في نقاشات سفسطائية عن سماحة الدين الإسلامي وسمو أخلاق المسلمين ،تحديداً العرب، وكرم الضيافة وتـرابط المجتمعات وإلى آخر القائمة التي نعرفها جميعاً، أي أن الآخـر

نجح مجدداً في إبقائنا داخل ذواتنا لاننظر إليه نظـرة تـشريحية فاحصة قد تغنينا عن كل ما أهدرنا وسنهدر، بل إن نمـوذج التهدئة في خطابنا الإعلامى تجاه الغرب والولايـات المتحـدة أظهرنا بمظهر ضعف غير حقيقي ودفع بقادة الرأي لـديهم إلى ممارسة الابتزاز السياسي بحملات إعلامية ممنهجة.

والسؤال الذي يبحث عن إجابة للخـروج مـن الخطـأ والخطيئة أيضاً هو بحد ذاته مضيعة وقت، لأن الطريق واضـح المعالم والتفاصيل، وتعريف الإرهاب في الفكر الغربي ورصـد أولى بداياته لا يحتاج إلى مجرد باحث تاريخ وإنما ينبغي أن يمثل مشروعاً إعلامياً عربياً موحد عناصره الأساسية مـن مجمـوع العلوم الاجتماعية الإنسانية، كالتاريخ والـسياسة والإقتـصاد والاجتماع، يرصد ويفسر استحسان الفكر الغربي للإرهـاب الإسرائيلي في الأراض الفلسطينية ولبنان وسوريا، أو الرغبـة الأمريكية المجنونة في امـتلاك ترسـانات الـسلاح النـووي والانغماس في حروب متتالية من كوريا إلى فيتنام إلى الخلـيج والعراق، فما هي الأمراض المجتمعية والأخلاقية التي تستند إليها لتبرر كل حروبها وقتلها للآخرين؟. فمتى يتحول الإعلام العربي إلى رأس حربة بدلاً من موقعه كمدافع عن الخطـوط الخلفيـة لمجتمعات عربية تخطت الخطوط الخلفية في تقهقرها إلى الخلف.

أزمة ضمير!

تكثر المتابعات الصحافية والإعلامية والفضائية للشأن السياسي الداخلي المصري هذه الأيام ويكثر معها الاجتهادات والتحليلات التي كثيراً ما ابتعدت عن وقع الحياة والمجتمع المصري، واختزلت كل شئ في نغمة واحدة عزفتها بداية القوى الدولية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر لأغراض تخدم مصالحها الإستراتيجية الاستعمارية ،بعيداً عن تطلعات وأهداف شعوب المنطقة، ثم تلقفت تلك النغمة جماعات المراهقة السياسية التي لم نسمع صوتاً لأي منها على مدى سنوات طوال، رغم مناخ الحرية الصحافية الذي ينكره ولا يستشعره بعض ممن أدمنوا مناخ القهر والسجون والتعذيب الذي عاصروه عن قرب وتملقوه سنوات عجاف طوال، بينما إخوانهم معلقون من أرجلهم ويجلدون بأقلامهم ،وحتى لا أُتّهم بالانتماء إلى تيار سياسى أو حزب حاكم أو لجنة سياسات فإني أدعو زعماء الحنجوري إلى قراءة صحفنا ومقارنتها بالصحف في بلدان عربية أخرى ، ولتكن لبنان على سبيل المثال لما تمر به من مخاض سياسي متفجر لكنه لا يسقط بلغة الحوار إلى أسفل سافلين كما فعلنا في معالجتنا الصحافية لظروفنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية بشكل أفقدنا احترامنا لأنفسنا وألهم الآخرين مبررات التهجم علينا والتجرؤ على وطن لم يبخل يوماً عن مد يده لانتشال أوطانهم من

الضياع، وقيادة سياسية حملت بكل صبر واحتمال أوجاع ومعاناة شعب طحنته الحروب والأطماع والمؤامرات الكبرى، وتصورنا أن اختلافنا لابد ألا يكون رحمة، بل تصفية حسابات تاريخية وبأسنا لابد أن يكون بيننا لا مع أعدائنا .

وإذا ما كتب أحدنا يدعو إلى ضبط النفس فهو خائن أو عميل حكومي يقبض من أجهزة الأمن ويتعاطى الرشوة الانتخابية ويبحث عن منصب في كعب جزمة النظام، فهي الحرب ولا هوادة وسياسة الصوت العالي والولولة إلى آخر مدى.

والحديث عن تردي أوضاعنا الإعلامية يجب أن يكون المدخل إلى تصحيح مسار المجتمع بأكمله ،لأن الإعلام هو مرآة المجتمع الذي ينظر فيها إلى نفسه وينظر إليه الآخرون من خلالها ،ولا يتصور أن تعكس مرآة مشوهة بالكسور صوراً حقيقية للمجتمع وأفراده ،أو أن تنقل إليه رؤية قياداته لمستقبله وطموحاته وتطلعاته ،ولا يمكن لمن لا يجد قوت يومه أن يمسك بالقلم بيد ترتعش من الآنيميا ليرصد الحقيقة وحدها مجردة .. وعلى الضفة الأخرى من النهر يقف الأداء الحكومي المترهل في أجهزة الدولة منذ عقود الذي حول مشاكلنا الاجتماعية من صحة ورعاية وتعليم وإسكان وصرف صحى ومياه إلى أداة إذلال وابتزاز للمجتمع في معاركه الانتخابية تجاه القوى السياسية الأخرى، وخلق تراكمات ورصيد من الارتياب والشك في أي جهد إصلاحي سياسي مخلص ترعاه القيادة

السياسية واستثمر آلام وأمراض المجتمع بكل قسوة في سبيل الاستمرار بمنصبه الحكومي . نعم ! نحن جميعاً شركاء في أزمة الوطن ،لأننا اعتمدنا الميكافيلية في تعاطينا مع قضايانا وبين أنفسنا . إذاً ما الحل بعد هذه الصورة السوداء ؟ هل الإصلاح السياسي والدستوري هو المدخل؟ أم أن المجتمع في احتياج أساسي لنقل دم وتركيب شريحة تمكنه من جبر كسوره وتحقيق معدلات تنمية ورفاهية حقيقية تمكنه من الحفاظ على مكتسباته السياسية أياً كانت مساحتها وحجمها؟، ومتى نتخلى عن إدماننا التجمد أمام اللحظة التاريخية وممارسة شعارات الحنجوري على سبيل العبط ليس أكثر؟!.

الغيط غيطك!

من المؤكد أن تكنيك المشاهدة لدى الإعلامي أو الصحافي لما يدور في برنامج البيت بيتك يختلف جذرياً عن المشاهد العادي، لأن المتخصص يمكنه بسهولة أن يكتشف الخيوط ويفضح التحالفات المشبوهة وتقسيم الأدوار بين ضيوف البرنامج والقائمين على إدارته، وبالتالي فإن ما قد يبدو من تساؤلات بريئة ومداخلات جزئية من منظور المشاهد يتحول - من وجهة نظر المتخصص - إلى أداء ينطوي على قدر هائل من الشبهات والتضليل، وهذا ما حدث بالفعل في المواجهة الحوارية التي جرت مع ظاهرة عادل عبد العال ،وبدا واضحاً أن هناك جهداً غير مسبوق لتشويه الرجل تحت ستار كشف الحقائق للرأي العام.. وبدلاً من أن تؤتي ثمارها فإذا بطريقة وأسلوب إدارة الحوار تجعل منه شهيداً أمام الرأي العام وتُظهر مدى توحش مافيا صناعة الأدوية وسيطرتها على صناعة الإعلام ظاهره وباطنه.. نعم قد يكون عادل عبد العال قد تجاوز الحدود بأحاديثه المتداخلة بين الطب والتغذية لكنه لم يسئ لأحد بالقول أو بالفعل و لم يتجاوز حدود الأدب .. ولكن ما شاهدناه في برنامج الغيط غيطك أقل ما يوصف به أنه حرب قتال شوارع بين بائع أعشاب ومافيا مندوبي المبيعات لشركات الأدوية .. ولا أعلم ما هي مصلحة مذيعي البرنامج في الانحياز الواضح لوجهة نظر تروج لها مافيا شركات

الأدوية؟ ولماذا أصرا على تحديد وتأكيد موقفهما من عادل عبد العال الذي أتقن بدوره أداء دور الضحية لاجتذاب تعاطف المشاهدين ،وهو ما حدث بالفعل، علماً بأن الانحياز في المواقف بين تيارين متناقضين يُعد أداء إعلامياً منقوصاً .. نعم من حق التليفزيون المصري أن يؤجر ساعات بثه لمن يشاء لكن من حق المشاهد أن يدرك من خلال تنويه مرئي ومسموع على الشاشة أن ما يشاهده في بعض فقرات هذا البرنامج هو إعلان مدفوع الأجر قد ينطوي على مساحة من المصداقية أوالتضليل.. وأن ممارسة تخدير المُشاهد لها حدود متعارف عليها وإلا مات المريض وقرأنا له الفاتحة. المشهد الثاني من منظومة الغيط غيطك جاء في سياق حوار صحافي مع الأستاذ الراحل محمود أمين العالم في صحيفة المصري اليوم وما نسبته إليه من تشكيل تنظيمات شيوعية سرية في مصر، وبدا واضحاً أن هناك استدراجاً متبادلاً بين المتحدث والصحيفة دفع بكل منهما إلى منطقة مظلمة لا يجدي معها التساؤل "لماذا الإعلان الآن؟" وهل ستدعم الدولة الشيوعيين للتوازن في مواجهة الجماعة المحظورة؟ فإذا كان المصنع قد أغلق أبوابه والدولة الشيوعية الأولى في العالم راعية التنظيمات الشيوعية السرية والعلنية قد تخلت عن فكر ومبدأ تصدير الثورة الشيوعية إلى العالم.. وانتهت الحرب الباردة، فمن الممول الجديد للشيوعية في مصر والراعي الرسمي الجديد لمظاهرات العمال في نفس اللحظة التي اختفت فيها الاشتراكية من نصوص الدستور

المصري؟ من يحاول أن يبث الروح من جديد في خرافة التاريخ؟ وهل جرت محاولة لإستخدام الصحيفة على طريقة الغيط غيطك ذاتها كصندوق بريد؟؛ والمشهد الثالث والأخير والأخطر فهو في نفس الصحيفة، لكنه في هذه المرة يتحرك في دائرة الفتنة بين المسلمين والأقباط .. فالدكتور محمد عمارة قرر أن يشعلها مجدداً على مرأى ومسمع الملتقي الدولي الثاني لخريجي جامعة الأزهر وإعلانه أن أعلى نسبة تحول من المسيحية إلى الإسلام تجري في مصر لتصبح أكبر موجات هذا التحول في تاريخ مصر الحديث.. ولم يذكر المفكر الإسلامي أرقاماً أو إحصاءات مصلحة الأحوال المدنية أو الأزهر أو الكنيسة ذاتها.. وهو حديث مرسل يستهدف بالدرجة الأولى إثارة الأقباط والمجتمع الدولى الذي دأب على إصدار تحذيرات مشبوهة عن حملات أسلمة للمجتمع القبطي ،واختطاف فتيات لإجبارهم على التحول إلى الإسلام، فالرجل بحديثه النوراني المتوهج يشعل حريق الفتنة في غيط مصر والصحيفة ذاتها لا تألو جهداً لنشر الغسيل القذر.. معنى ذلك أن الإعلام المباع والمشترى الخاص منه والعام لا يخدم بالدرجة الأولى إلا سيده .. من يدفع له ليشتري ويبيع في الوطن والبشر وفقاً لأجندته الخاصة وليس لحساب المصلحة الوطنية.

مفتاح الشعوب!

الموروث الثقافي المصري ينفر ويبتعد عن أية أجندة أمريكية ولو بالشبهة فقط .. وتكريس الاحتلال الأمريكي للعراق وما يصاحبه كل يوم من جرائم إبادة موثقة صوتاً وصورة، يزيد من الصدمة الحضارية لدى شعوب المنطقة ،وتضخ في وجدانها مزيداً من النفور إن لم تكن الكراهية هي التعبير الأدق لكل ما يُرمز إليه أمريكياً .. بل وتدهس مفاتيح الشعوب -وجوهرها التواصل الإنساني- تحت أحذية الجنود. لكن أحياناً مايفرض علينا منطق الأشياء احترام وجهة نظر الآخر ،طالما أنها في حدود فهمه ومعلوماته وتخلو من سوء النية ،وأتصور أن تصريحات السفير الأمريكي التي سُرِّبت إلى الصحافة والإعلام من أعضاء مجلس الشعب رغم أنها شكلت انتكاسة حقيقية للعلاقات، إلا أنها صادقة مع نفسها من الناحية الفعلية ،لأن بعض أعضاء الكونجرس الأمريكي يرون في المساعدات الأمريكية لأية دولة في العالم نوع من الصدقة والإحسان، وربما يكون السفير الأمريكي نفسه من بين هؤلاء.. لكن عندما يكون منطق الحديث مع مصر وفق تلك الرؤية فلابد من وقفة.. ودائماً ليس أبلغ من" شاهد من أهلها" للرد على ذلك التوهان السياسي، وهو هنا تقرير مكتب محاسبة الإنفاق الحكومي - التابع للكونجرس الأمريكي - الذي قام بإعداد دراسة بناء على طلب من النائب الديمقراطي توم لانتوس عضو

مجلس النواب عن ولاية كاليفورنيا، والذي سعى جاهداً على مدار السنوات الأخيرة إلى تقليص حجم المساعدات العسكرية لمصر ومضاعفة حجم المساعدات الاقتصادية، بزعم تطوير المجتمع المصري وإنعاش اقتصاده . ونقلت شهادات عدد من المسئولين الأمريكيين بأن الخدمات التي قدمتها القاهرة للحفاظ على المصالح الاستراتيجية الأمريكية بالمنطقة في سماح مصر بعبور ٣٦،٥٥٣ طائرة عسكرية أمريكية للأجواء المصرية (عدد مرات المرور لطائرات أمريكية) خلال الفترة من ٢٠٠١إلى ٢٠٠٥ .وأضافوا أن مصر منحت تصريحات على وجه السرعة لعدد ٨٦١ بارجة حربية أمريكية لعبور قناة السويس خلال نفس الفترة، ووفرت الحماية الأمنية اللازمة لعبور تلك البوارج، بالإضافة إلى قيامها بنشر حوالي ٨٠٠ جندي وعسكري من قواتها في منطقة دارفور غرب السودان عام ٢٠٠٤. وأشار المسئولون الأمريكيون ـ وفقاً للدراسة سالفة الذكر ـ إلى أن مصر قامت أيضاً خلال نفس العام بتدريب ٢٥٠ عنصراً في الشرطة العراقية و٢٥ دبلوماسياً عراقياً، فضلاً عن إنشائها لمستشفى عسكري وإرسالها عدداً من الأطباء إلى قاعدة باجرام العسكرية في أفغانستان بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٥، حيث تلقى حوالي أكثر من ١٠٠ ألف مصاب هناك الرعاية الصحية .ونقل تقرير واشنطن عن الدراسة أن الولايات المتحدة قدمت لمصر حوالي ٧,٣ مليار دولار بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٥ في إطار برنامج مساعدات التمويل

العسكري الأجنبي، وأن مصر أنفقت خلال نفس الفترة حوالي نصف المبلغ ــ ٣,٨ مليار دولار ــ لشراء معدات عــسكرية ثقيلة. وأضافت أن مصر حصلت منذ عام ١٩٧٩ على حوالي ٣٤ مليار دولار في إطار برنامج مساعدة التمويل العــسكري الأجنبي، إذ خصصت الولايات المتحدة منذ ذلك الحين حوالي ١,٣ مليار دولار سنوياً كمخصصات لمصر في إطــار هــذا البرنامج .وأكدت أن هذا المبلغ شكل عام ٢٠٠٥ نحو ٢٥ % من إجمالي المساعدات التي قدمتها الولايات المتحدة إلى جميــع الدول المستفيدة من هذا البرنامج، في الوقت الذي شكل فيــه نسبة ٨٠ % من إجمالي المشتروات العسكرية المصرية.

وأتصور أن الترجمة العربية الدقيقة لكلمة السفير الأمريكي أمام غرفة التجارة الأمريكية والمنشورة على موقع السفارة والتي تمت صياغتها بشكل حرفي ومهــني عــالي الأداء ،تؤكــد أن الحرص متبادل وأن أهداف الولايات المتحدة الأساسية مع مصر يمكن أن تختصر في ثلاث كلمات هي: السلام والديمقراطيــة و الرخاء.

مشاهد الفوضى الخلاّقة !!

لا أتصور أن صناع الفوضى في المنطقة لهـم أي حـق في الشكوى من تداعياتها باعتبار أن طباخ السم لابد أن يتذوقـه وفق الأعراف والقواعد الدولية المتعارف عليهـا .. فمجلـس الأمن الذي تستر على ضرب دولة اسمها العـراق والوقـوف موقف المتفرج من تقسيمها إلى شظايا، ليس لـه الحـق في أن يحاكم إيران أو رئيسها لتصريحاته حول محـو إسـرائيل مـن الوجود، كما أن إسرائيل التي ابتلعت شـعب وأرض دولـة فلسطين وترفض أن ترد الأراضي أو تسمح بعودة المهجـرين، ليس لها أيضاً حق الشكوى أو الأنين.. لأن الجميع له سـوابق مشينة في مقاعد المتفرجين كجزء من المخطط العام للمـؤامرة على بلدان المنطقة.. وإيران التي لا تتـرك فرصـة لزعزعـة الاستقرار في الداخل العراقي منتهجة مبـدأ تـصدير الثـورة تفاجئنا دائماً بكل جديد، فهي تمارس أساليب الصهيونية خفاء مع دول الجوار وتدينها علناً .

.لكن بفضل تصريحات أحمدي نجاد بشأن "إزالة إسـرائيل من خريطة العالم" أمكننا أن نـرى الوجـه القبـيح للغـرب ومخططاته ونواياه السيئة ،فالزوبعة قامت ولن تهدأ،وكوفي عنان كما عودنا لم يترك الفرصة، فأعرب عـن خيبـة أملـه ازاء تصريحات أحمدي نجاد وقال أن إيران "إحدى الدول الموقعـة على ميثاق الأمم المتحدة وهي بذلك وافقت على عدم التهديد

باستخدام القوة ضد دولة أخرى عضو بالمنظمة". وهو نفسه كوفي عنان الذي كان يجلس على مقعد السكرتير العام للأمم المتحدة بينما كولين باول يبث أكاذيبه بشأن امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وفي حين اعترف باول بأنه كاذب فإن كوفي عنان لم يعترف بعد ، فإيران هي المستهدف الأخير في حلقة التصفية الإسرائيلية لتحالف الخروج المهين من جنوب لبنان .

المشهد الفوضوي الثاني جرى إعداده بإتقان شديد في الإسكندرية على طريقة سهم عربي مسموم يندفع بعدها الغوغاء إلى ضرب الكنيسة وإحراقها إن أمكن ،ذلك لتنفجر بعد ذلك أعمال القتل والتخريب والنهب والسلب في أنحاء القطر المصري، الأمر الذي يستدعي تدخل الولايات المتحدة والناتو لحماية الأقليات القبطية، وكأن الأقباط ليسوا شركاء في الوطن ،ولكنهم رعايا أجانب يتبعون روما الجديدة في واشنطن، مخطط قرأناه من قبل في كتب التاريخ ،لكن المؤسف أن عنصريّ الأمة لا يقرأون كتب التاريخ ولا يدركون أن المحتل وقف يوماً يحاول دهس المصريين بأقدامه من باب الفتنة الدينية وفشل ،لكنه لم ييأس في أن تشتعل يوماً ما ،لذلك أطلق زبانيته تزأر من نيويورك وتلطم الوجوه وتقطع ثيابها كمداً وحزناً على فشلها.

فسيناريو التفتيت الديني في مصر دائماً ما يفشل ،وسيناريو التفتيت العرقي لا أرضية له لأنه لا وجود للكيانات العرقية في

مصر، فإذا علمنا من أين تأتينا الفوضى الخلاقة فلماذا إذاً الإصرار على منحها الفرصة ؟ هل مقعد البرلمان يوازي في قيمته نعمة الاستقرار في الوطن؟ وما قيمة أن تكون ملكاً على وطن حولته إلى مقابر؟ العبث بالأديان في مصر هو المنفذ الذي سيأتى منه الخطر ،ومن لا يدركه من الأطراف المختلفة عليه أن يحزم حقائبه ويرحل ،فلا مكان له بيننا .

المشهد الفوضوي الأخير جاء في أعقاب زيارة السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية في صورة سلسلة من الانفجارات والشتائم والبذاءات والرفض لأي تدخل عربي، كأن العراقيين أدمنوا قتل أنفسهم وتعذيبهم في سجون أبوغريب ،وأصبح الحديث عن أي تحرك عربي جريمة إنسانية كما يسوق لها الأكراد أحياناً والشيعة أحياناً أخرى؛ فالقصاص لا غير من المجرمين السنة الذين حكموا العراق وأثخنوه قتلاً ودماراً. لقد باءت جهود عمرو موسى بالفشل حتى قبل أن تبدأ ولم يثمر شرف المحاولة أو مؤتمر الوفاق والمصالحة المزمع عقده عن حل سحرى للخروج من الفوضى الخلاقة -لعنها الله- طالما ظل العراقيون ينتهجون فيما بينهم سياسة لا تراجع ولا استسلام.

الخيط الرفيع!

هناك خيط رفيع لا تكاد تدركه الأبصار بين تحديات السياسة الخارجية والداخلية وتفاوت الشد والجذب والارتخاء في العلاقات الدولية وفق عناصر القوة السياسية لكل دولة، والتي من بينها تماسك الجبهة الداخلية ووحدة الرؤى والأهداف.

القاعدة الثانية أن التجارب السياسية التاريخية تؤكد أنه لا يمكن النظر بشكل منفصل إلى الضغوط الأمريكية تجاه مصر بعيداً عن الأجندة الإسرائيلية في المنطقة ، بمعنى أن الولايات المتحدة الأمريكية كثيراً ما ضحت بمصالحها الإستراتيجية من أجل عيون إسرائيل.. فمطالب بوش ورسائله التي لا تنتهي للنظام السياسي المصري لابد وأن تصاغ في إطارها الصحيح بعيداً عن الرومانسية السياسية وأوهام الدفاع عن أحقية الشعب المصري في الديمقراطية والحرية ، فمع بداية تصريحات السفير المصري في تل آبيب في مقابلة نُشرت بصحيفة (جيروزالم) الاسرائيلية بدأت العاصفة الأمريكية، قال محمد عاصم (إن مصر لن تقوم بدور الشرطي في حال حصول هجمات ضد اسرائيل انطلاقاً من قطاع غزة، وذلك بعد الانسحاب الاسرائيلي هذا الصيف، وأن مصر لن تمارس هذا الدور، إنه مشكلة إسرائيلية وقضية عليكم أن تحلّوها بأنفسكم). ومضى يقول:(إن مصر يمكنها أن تسيطر أكثر على

حدودها مع غزة إذا أُتيح لها أن تنشر مزيداً من قواتها بعد الانسحاب الاسرائيلي؛ وإن اتفاق السلام لا يسمح لنا باستخدام قوات كافية على الأرض لمواجهة عمليات التهريب). وهي التصريحات التي دفعت بإسرائيل إلى إرسال وفد أمني لبحث بعض النقاط المرتبطة بالانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة ،التي تتم برعاية مصرية لتفادي أية صدامات تنتج عن اختلاف في وجهات النظر الفلسطينية الإسرائيلية، إلا ان الرد الحقيقي جاء في رسائل قصيرة سريعة الطلقات على لسان الرئيس الأمريكي بدأت أولاً بالمؤتمر الصحافي المشترك مع رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية محمود عباس ،وقال فيه: "يجب السماح للناس بالتعبير عن آرائهم، وأنا آمل أن يتيح الرئيس مبارك انتخابات مفتوحة يثق فيها الجميع."ثم انعطف إلى الأحداث المخجلة التي مرت بها البلاد في الإستفتاء على تعديل الدستور فقال "إن مبدأ تعرض الأشخاص الذين عبروا عن معارضتهم للحكومة بالاضراب، لا يتماشى -بحسب رأينا- وكيفية عمل الديمقراطية، وهي ليست بالتأكيد الطريق إلى انتخابات حرة".

اللقطة الثانية جاءت في نفس الأسبوع بفارق زمني يوم واحد في مؤتمر صحافي مع نظيره الجنوب أفريقي ثابو مبيكي (لاحظ معي أنها الدولة المنافسة لمصر في السباق نحو المقعد الإفريقي في مجلس الأمن) فقال :"إن الرئيس مبارك قال علانية إنه يؤيد إجراء انتخابات حرة ونزيهة، وقد حان الوقت ليشاهد

العالم كله كيف أن بلده العظيم يمكن أن يكون نموذجاً للآخرين."

وأشار بوش إلى أن الرئيس مبارك أكد له "أن ذلك (الانتخابات الحرة النزيهة) هو ما يريده أيضاً، وسوف أستمر في محاولات إقناعه بأن هذا الأمر لا يحقق فقط مصالحنا (مصر والولايات المتحدة) ولكن من مصلحة العالم أن يرى مصر تجري انتخابات حرة ونزيهة."

والسؤال: هل يمكن أن نصدق فعلاً الحرص الأمريكي المزعوم على الديمقراطية في مصر، بينما يدها تقطر دماء الشعب العراقى، وتبذل قيادتها العسكرية كل الجهد للتغطية على جرائم الحرب التي ابتكرتها في العراق ودفعت بالقاضي الاتحادي في مانهاتن "ألفن هيلرشتاين" قاضي المحكمة الجزئية الأمريكية لإصدار أمر للجيش الأمريكي بتسليم أكثر من ١٤٤ صورة فوتوغرافية وبضعة شرائط فيديو التقطها السرجنت جوزيف داربي الذي كانت صور أخرى التقطها قد أثارت فضيحة إساءة معاملة المعتقلين العراقيين في سجن أبوغريب قبل أكثر من عام.

فتنة الدور!

لنضع أنفسنا جميعاً موضع بلطجي العالم الذي أثخنته الجراح والضربات داخل بغداد ،فأخذ يبحث عن وكلاء له بالمنطقة يتخلى لهم عن بعض صلاحياته مقابل أن يعملوا تحت اسمه وتحت شعاراته ويضمنوا له خروجاً مُشرفاً من بطولاته الزائفة ،ولا مانع أن يرسلوا بضع آلاف من أبنائهم مسلحين ليقفوا على جانبي الطريق مهللين ومكبرين لانتصاراته الزائفة.. تلك هي حقيقة فتنة الدور المصري / السعودي الذي يعزف عليه دون انقطاع قطيع من صبيان بلطجي العالم.. أحدهم يكتب عن الدولة الرخوة في عهد مبارك وآخر يرصد تراجع الدور المصري في ملف توثيقي مصطنع وثالث يُدعى توماس فريدمان يهمس في دهاليز السياسة السعودية بأن العالم ينتظر ميلاد "سادات جديد" يخرج من السعودية.. الجميع يمارس لعبة الضغط على أعصاب القاهرة والرياض، فبعد خروج العراق مفتتاً من منظومة القوة العربية واستبعاد سوريا وحصارها داخل أزمة اغتيال الحريري في لبنان حان وقت التفرغ لمحور القاهرة / الرياض بعزف مقطوعة فتنة الدور الريادى وإثارة نعرات الزعامة في زمن الندامة الذي نعيش أحلك سواد أيامه.. والسؤال هو :ما قيمة السعي خلف الزعامة والريادة تحت أحذية الاحتلال الأمريكي غير المشروع؟ إلا أن يكون سباقاً للعمالة والقوادة يروج له هتيفة أمريكا في

المنطقة ونربأ بالقاهرة أو الرياض أن يتزلقوا إليه.. وهل يعلم هؤلاء الهتيفة أن قيمة الفاتورة السياسية لممارسة الزعامة تحت ظلال الاحتلال هي التنازل عن السيادة الوطنية!! أم أنهم هم أنفسهم مأجورون ومسخرون ليلاً ونهاراً في حملة ترويج منظومة الدور الزعامي الحنجوري ؟!. لم يكشف أوراق اللعب الأمريكية سوى تصريح للرئيس الباكستاني برويز مشرف يقترح إرسال قوة حفظ سلام إسلامية إلى العراق، تبعه تصريح آخر نقلاً عن مصادر أمريكية مجهولة تكشف فجأة عن تلقي الإدارة الأمريكية رسالة تهديد سعودية مباشرة بالتدخل في العراق لحماية السنة في حالة خروج القوات الأمريكية من العراق وأن الرسالة السعودية كانت محوراً للمحادثات المغلقة التي عقدها مسئولون أمريكيون بارزون في عواصم الشرق الأوسط، وهي إشارة واضحة لزيارة "ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي وقبله كونداليزا رايس وزيرة الخارجية. إذاً المطلوب من مصر حتى تسترد الزعامة بمباركة أمريكية أن تتورط في حروب الإمبراطورية الدائرة في العراق أو إيران أو دارفور أو في الصومال بوكالة إثيوبية، وألا تجادل حتى لا ينتزع منها الدور لصالح الرياض أو عمان.. لذا لم يكن من المستغرب أن يلجأ السفير الأمريكي في القاهرة لتذكير مصر بأموال المعونة الأمريكية وهي ٢٨ مليار دولار مساعدات اقتصادية و٣٠ مليار دولار كدعم عسكري في هذا التوقيت تحديداً، فهي وجهة نظر يجب أن تحترم ،طالما أنك مددت يدك وقبضت

الثمن مقدماً فقد حان وقت تنفيذ مهام العمالة الموكلة إليك ،حتى لو اقتضى ذلك إرسال أبنائك إلى الذبح في العراق.. أخشى أننا جميعاً في احتياج شديد إلى وقفة ضمير جماعية تمنع انزلاق مصر إلى ورطة الدور التاريخي مجدداً ، وإلى نوبة يقظة مصرية /سعودية لمخططات إثارة الصدام، بينما توشك وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" على الانتهاء من إقامة قاعدة عسكرية شمال شرقي تشاد تعد هي الأكبر من نوعها في القارة الأفريقية ،ويزيد عدد القوات الملتحقة بها عن الثمانين ألف جندي؛ وتهدف القوة العسكرية الأمريكية التي ستسمى باسم "قيادة أفريقيا" إلى تطويق الدول المناهضة للسياسة الأمريكية بالقارة وفي مقدمتها السودان الذي يرفض التجاوب مع مطالب الولايات المتحدة بنشر قوات دولية في إقليم دارفور.

وستكون من أولى مهمات القوات الأمريكية التدخل في أزمة دارفور في حالة فشل المساعي الدولية لحلها، وإصرار حكومة الخرطوم على رفض مقترح الأمم المتحدة بنشر ٢٢ ألف جندي بالإقليم، بينما لا يزال مفكرينا يبحثون عن دور في طابور الحمير.

الطهور السياسي!

أثارت انتباهي بشدة صورة سفير إسبرطي وهو يرتدي الأسبوع الماضي طاقية مولد السيد البدوي في طنطا ،وبث في قلبي الرعب أحد أصدقائي الماكرين الذي أطلق صيحة تحذير من تكرار زيارة السفير لأهالي طنطا الكرام وتحديداً في مولد السيد البدوي، وأخذ يفسر معاني تلميحاته في قصة رائعة قد تفسر إلى حد كبير أسباب التقارب الإسبرطي ـــ الطنطاوي. " يُروى أن شاب مهذب ذهب لخطبة فتاة رائعة الجمال تُحرك "أبا الهول" من مرقده بصحراء الجيزة ورحب والد الفتاه به بشدة رغم إصرار الشاب على سؤال حماه عنه في مسقط رأسه بطنطا وتكراره عبارة " ياعمى إحنا من طنطا اسأل علينا"، وأمام تأكيدات حماه بأنه يكفيه أن يكون زوج ابنته من طنطا أهل الطيبة والسماحة والكرم والخلق الحميد ويكفي بجاورتهم لمقام السيد البدوي، التزم الشاب الصمت، وتمت مراسم الزواج على خير وفي الصباحية جاءت الفتاة مهرولة إلى أبيها تبكي وتندب حظها النكد لفشل زوجها ليلة زفافه ويقينها أنه لن يمكنه مواصلة حياته الزوجية الطبيعية . لكن والدها أصر أن يعرف السر كاملاً فاستدعى العريس وواجهه بمزاعم ابنته وجاءته نفس الإجابة المبهمة مجدداً وأخذ يكررها حتى صرخ والدها قائلاً: مش فاهم حاجه يعني إيه من طنطا ؟ فأجابه العريس بأن من عادة أهل طنطا تكرار ختان الذكور من

أبنائهم في المولد كل عام!!! واستلقى صديقي الماكر على قفاه ضاحكاً كلما صور له عقله المريض أن السفير الإسبرطي قد يكون ضحية عملية ختان طنطاوية يجريها سنوياً بانتظام وما قد تثيره تلك العملية المشبوهة من تداعيات وأزمات دولية تستدعي احتلال طنطا والبحث عن المطاهراتي الذي يقود تلك المذابح في حق زوار طنطا الكرام.. صدمتني رواية صديقي الماكر وطالبته بأن يوقف هذا الهذيان وأن يفسر الأمور في سياقها الطبيعي ،وهو التواصل الثقافي بين الشعوب للخروج من دائرة النخبة، لكنه رفض ذلك، وقال: "اليوم نشاهد محاكمة الشيطان في بغداد ،لكننا لم نر محاكمة من صنعه في إسبرطة". والتفت إليّ قائلاً بسخرية: هل قرأت تصريحات السفير الإسبرطي الذي تقمص أيضاً شخصية أمير الضلال وبدا ممتعضاً بشدة في أجواء مولد السيد البدوي من الاضطراب السياسي الذي تشهده مصر حاليًا والفساد والمناخ الاقتصادي المضطرب ،واعتباره أن ذلك أبرز أسباب رفض حكومة بلاده توقيع اتفاقية التجارة الحرة مع مصر، وتحذيره المبطن من أن رأس المال الإسبرطي والمستثمرين في بلاده لم يغامروا بالاستثمار في مصر بسبب السحب والغيوم في سمائها ،وأن أسباب تعثر المفاوضات حول الاتفاقية حتى الآن ترجع إلى معتقدات وأفكار داخل إسبرطة عن مصر بأنه لا يوجد استقرار سياسي ولا ديمقراطية ولا يوجد إصلاح اقتصادي وسياسي . فأجبته :نعم قرأتها وقرأت أيضاً إشاراته إلى الملف الفلسطيني . وسألني "الماكر"

لماذا إذاً رفضت إسبرطة نتائج انتخابات حرة ديمقراطية دفعت بحماس إلى مقعد السلطة ؟ ألم تأتِ حكومة حماس عبر صندوق الانتخابات الذي تروج له إسبرطة وتصوره بأنه سيف مسلط على رقاب العباد؟ ولماذا تقبل بصعود متطرف إسرائيلي لسدة الحكم وترفض نظيره الفلسطيني؟ نفس الشئ سيحدث مع مصر إذا ما استسلمنا لأضغاث أحلام سفير إسبرطة وأمراء الضلال في بلاده.. نعم, قضية الديمقراطية والحرية هي قضية حق لكن ما جرى في طنطا وما يجري في بغداد أُريد بها باطل، لأنه في اليوم التالي لإعلان افتتاح فرع حكومة حماس في القاهرة عبر صناديق الاقتراع والانتخابات الحرة الديمقراطية سنواجه نفس مصير حكومة طالبان في أفغانستان وموسوليني في روما...وسألت صديقي الماكر: أليس لديك مثقال ذرة من تقدير واحترام لجهود سفير إسبرطة في التقارب مع الوجدان المصري بعيداً عن صيغة المؤامرة التي تلوث عقلك؟ أجابني بأن الإختلاف في الرأي لايفسد للود قضية ،وأنه يشهد للرجل حرصه الشديد على تحسس معالم التنوع الفكري والعقائدي والطائفي والثقافي المصري ،لعل وعسى يحدث تقارب حقيقي بين مصر وإسبرطة ،أو يتحول التحسس في لحظات الإختلاف إلى وقود لفتنة عرقية... لعن الله صديقي الماكر المتشكك دوماً في سفير النوايا الحسنة.

أجندة غسل العقول

فيما يبدو أنه أصبح أجندة عمل لدوائر صحافية مصرية تعالت أصواتها مؤخراً بالمطالبة بإحلال التفكير السببي محل التفكير التآمري التواكلي، ونظرية المؤامرة التي أصبحت وباء أصاب الجميع.. وقد يكون هذا الحديث له معنى ومغزى إيجابياً ومتوازناً في ظرف دولي غير شاذ جنسياً كالذي نمر به، وفي ظل سيطرة حقيقية للمنظمات الدولية السياسية على مجريات الأزمات والحروب والشرعية الدولية، وهو ما لم يحدث في تاريخ تلك المنظمات منذ تأسيسها، بل كرست الهيمنة الأمريكية وكرست معها الخلل الدائر في التنظيم الدولي، لذا سيظل الحديث عن نظرية المؤامرة متصلاً أياً كانت المسميات، ورغم أنف محاولات غسل العقول من واشنطن وأدعيائها في الدوائر السياسية والفكرية المصرية ،ولن تنجح عشرات المؤتمرات والندوات في محو الفكر التآمري دون تقديم تفسير لسقوط كل دعاوى التحالف الدولي بشأن امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، وثبوت خلوه من أي أثر لها باعتراف صقور وغربان الإدارة الأمريكية بخطأ معلوماتهم الاستخباراتية, بل والحديث عن ضغوط سياسية مورست على أجهزة المخابرات الأمريكية قبل غزو العراق عام ٢٠٠٣، وخلال جلسة استماع نظمتها الكتلة الديمقراطية في مجلس الشيوخ واتُّهم من خلالها "لاري ولكرسون" المدير السابق لمكتب وزير

الخارجية الأمريكي الأسبق كولن باول نائب الـرئيس ديـك تشيني بممارسة ضغوط سياسـية علـى أجهـزة المخـابرات ،للحصول على ما يعزز آرائه حول أسلحة الدمار الشامل التي كان من المفترض أن يكون الرئيس العراقي المخلـوع صـدام حسين يمتلكها.

وأن يمتد التفسير أيضاً لما ذكرته "إنسايت مجـازين" الـتي تصدرها مؤسسة "واشنطن تايمز" وتقول إن أجهزة المخـابرات الأمريكية تدرس اقتراحاً مبتكراً لمنع السعودية من تمويل القاعدة باغتيال رؤساء الجمعيات الخيرية السعودية، وأن الاقتراح طرح في جلسة "توليد أفكار" نهاية الشهر الماضي، وشـارك فيهـا مسئولون من أجهزة المخابرات الأمريكية وإدارة بوش.

إلا أن أدعياء واشنطن يرفضون فكرة استدراج مصر لحربي ١٩٥٦ و١٩٦٧، كما يرفضون الفكر التآمري وراء ضـرب العراق عام ١٩٩١ لحظة دخوله الكويت بضوء أخـضر مـن السفيرة الأمريكية في بغداد، وهو الضوء الذي رأته الـصحافة الأمريكية و لم نره أو نسمع عنه إلا من خلالها. يرفضون أيـضاً تفسير مغزى الضغوط الأمريكية على إيران لأنها تملك مشروعاً نووياً لإنتاج الطاقة..وفي نفس اللحظة تغمض عينيها وتـدير قفاها لترسانة السلاح النووي الإسـرائيلي، لكنـهم يقبلـون بوجود مؤامرة وراء اغتيال كيندي وديانا وسقوط دولة محمـد علي باتفاقية عام ١٨٤١.. يقبلون المؤامرة متى كانت موجهـة إلى غيرهم وفي أحداث تاريخية لن يجدي نفعاً الاعتراف فيهـا

بالمؤامرة بعد أن تجاوزها التاريخ وأصبحت لا تقدم أو تــؤخر، ويرسمون خطاً أحمر يمنع الإقتراب أو التفسير لما يجري حولنا من ألاعيب أمريكية، لأن ذلك ربما يؤدى إلى الاستفاقة من غفلتنا.

أدعياء واشنطن يرون أن التيار القومي والإسلامي هما مــن يروجان للفكر التــآمري في المنطقـــة..لكنــهم لا يــرون في الممارسات الإسرائيلية ومشروعها الاستعماري ذرو مؤامرة تجاه العرب والمسلمين..لا يرون في نظرية فوكوياما فكراً تآمرياً..لا يرون في كتابات توماس فريدمان تجنياً أو مؤامرة.. بــل إنهــم يبرئون الــشيطان مــن التــآمر علــى آدم لإخراجــه مــن الجنة...آغوات واشنطن وصحافتهم لم يقرأوا ســوى كتــب النكاح.. والحب والعشق في دهاليز البيت الأبيض، وتركــوا علم السياسة التي هي الحرب ولكن بوسائل أخرى، ومارســوا فقط غسل العقول والانبطاح تحت بيادة أصــدقائهم.. لكــن واشنطن تعلم جيداً أن الصديق من صدق معك ولــيس مــن صدقك.

مواء القطط

يمارس البعض فضيلة الكتابة على طريقة مواء القطط التي تنتظر أن يُلقى إليها بالفتات التي لا تسمن ولا تغني من جوع ثمناً لأصوات البهجة التي تقدمها، وذلك البعض لا يمانع أن يمارس حرفة الطبل والزمر والرقص أحياناً بثمن أو بمقابل لحظي يستبق المصلحة القومية أو القطرية . . ويمكنك أن تنصت من بين أطنان الصحف وأمتار المقالات والتحليلات لكل إيقاعات وتموجات وأنغام القطط ،فقد بالغ هذا البعض على مدى الأيام القليلة الماضية في الاحتفاء بنتائج اتفاق الدوحة وبدا ذلك واضحاً بين كُتّاب الأعمدة والمقالات والافتتاحيات، وامتدت الإشادة بالاتفاق والقائمين عليه إلى الانتقاص من الدور المصري والسعودي طوال الفترة الماضية بشكل ملحوظ، يكاد يماثل الحملات الصحافية المدفوعة الأجر، حيث كرر البعض نفس المفردات والمعاني والقفز إلى النتائج دون عرض المقدمات والجهود المبذولة ،سواء من مصر أو السعودية في هذا الشأن، وذلك في تطابق واضح ملفت للنظر، خاصة مقولة أن قطر نجحت في خمسة أيام فقط في تحقيق ما فشلت فيه مصر والسعودية والجامعة العربية على مدى ٢٠ شهراً، والملاحظ أن تلك النغمة لم تختلف مابين أطياف الصحافة، مع كل الاحترام والتقدير لقطر وأميرها ووزير خارجيتها ،ودون أي انتقاص من تلك الجهود العربية الكريمة أو تأويلها لصالح قوى دولية ،أو

كأنها فتح قومي لسوريا الشقيقة إن لم يكن هو استدراج ناجح لها بكل المقاييس.. كيف حدث هذا؟ المسألة في غاية البساطه، فقد فاز لبنان برئيس منتخب وفازت قوى الأغلبية بإعادة تعيين فؤاد السنيورة رئيساً للوزراء مجدداً ، وقوى المعارضة جرى تدجينها بورقة ممسوحة اسمها الثُلث المعطل مع تقييده بتعهد عدم الاستخدام، لكن هل فرت سوريا برقبتها من المحكمة الدولية؟ لم يحدث!! هل حررت الجولان ووضعت قدميها في بحيرة طبرية؟ لم يحدث!!.. هل أسهمت في تليين المواقف الأمريكية من الملف النووي الإيراني ؟ لم يحدث!! هل محادثاتها السرية العلنية مع تل آبيب عبر الوسيط التركى آتت ثمارها؟ لم يحدث!!، لكنها في المقابل حققت الصدمة الإيرانية بفعل الهرولة نحو تل آبيب عبر بوابة أنقرة، ثم ارتدت خائبة مع مطالبة أولمرت لدمشق بقطع علاقاتها مع طهران، وبالتالي فالسيناريو الذي وُضع لسوريا بدقة يُجرى تنفيذه عبر انتزاع الورقة اللبنانية أولاً ، وهو ما حدث في الدوحة بطريقة أو بأخرى، ثانياً: تدجين حزب الله بإدخاله في مفاوضات معقدة لاسترداد أسراه من السجون الإسرائيلية، ثالثاً : التفرغ للملف الإيراني سلماً أو حرباً.. نعم اتفاق الدوحة نجح في تهيئة الظروف للاستفراد بإيران وحرمان وكلائها من مبررات إشعال الحرائق والحروب بالوكالة عنها إذا ما تعقدت الأمور وسارت في اتجاه المواجهة العسكرية ،ودعونا نتوقف عن ممارسة الدهشة والانبهار إذا ما جرى الإستجابة للمطالب السورية بشأن

استحققات السلام، فهي في مجملها ستكون استهلاكاً للفرص وللأوراق السياسية وللوقت ثم الدوران في دائرة مغلقة لحين الانتهاء من الإجهاز على إيران.. ليس هناك شئ مجاني في عالم السياسة سوى الموت.

شرف الخديعة!

نعرف جميعاً مغزى "شرف المحاولة"، وكثيرون منا ادعـــوا هذا الشرف وسعوا خلفه بإصرار كلما عاندهم الأقدار .. لكن من غير المفهوم أن يصر بعض أبواق إيران على ممارسة "شرف الخديعة" ،أو بمعنى أكثر دقة "حرفة الكذب" وتشويه المواقـــف وكان آخرها إعلان أحدهم أن ميليشيا الحريـــري تـــدربت في مصر والأردن والحرب الأهلية سياسية لا طائفية"، ومن حقـــه أن يتصور معشوقته إيران كيف يشاء، لكن ليس من حقـــه أن يصر على تصدير هذا العشق إلينا ،أو أن يحرض على المـــصالح المصرية في لبنان وأن يهدد أمن السفير المصري ويعرض حياتـــه للخطر هو والمصريين المقيمين، عندما يكتب مؤكداً أن مـــصر والأردن تدرب ميليشيات الحريري دون أي سند من الحقيقة، ولكن فقط لمجرد التغطية على التمويل الإيراني لحزب الله.. نحن لا نعارض قناعاته الشخصية في أن إيران أعظم دولة في المنطقة وفي التاريخ، فتلك كذبته على نفسه يتجرع منها كيف يـــشاء ومتى يشاء، لكن من غير المقبول أن يرى في وطنه وكر أفاعي وماخوراً للتآمر، من حق مفكرنا الإسلامي المبجل أن ينتمي إلى الشيعة أو إلى حزب الشيطان، لكنه من حقه أيضاً أن يغـــادر الوطن إلى الجحيم إن رغب في ذلك طالما أن ســـحر طهـــران يأسر عقله وفؤاده، وأن يترك لنا أشجار الوطن بلا غربـــان أو بوم ينعق فيها . . فلتدافع كما تشاء عن المـــشروع الـــشيعي

الفارسي الإيراني ولتحقر من نقيضه حسبما ترى، فتلك وجهة نظرك الشخصية والعقائدية، لكن لا تحاول تسريبها إلى جيناتنا الفكرية والذهنية وأن تصور لنا الشيطان بملابس الإحـــرام . . فليس في السياسة ملائكة وأشرار .. بل أشـــرار فقـــط لأنها ببساطة هي الحرب بوسائل أخرى، من حقك أن تغضب مـــن السادات وتعتكف بين شيعة الكويت، وترتحل معهم حاجاً إلى طهران راكعاً بين يدي الخميني طالباً العفو والمغفرة، فهذا هـــو قرآنك وتلك هي صلاتك.. لكنه من غير المقبول أن تبحـــث عن "خوميني" آخر ليحكم مصر بعد مبارك كما يصور لـــك عقلك المريض، فأنت غير معني بالأساس بالهم والشأن المصرين منذ أن حولت نفسك بوقاً لإيران، فـــلا تتـــهم الفلـــسطينيين بالعمل في الدعارة السياسية بينما دعارة الفكر منهجاً وطريقـــاً لكثيرين فضلوا طهران على أوطانهم .. أو رهنوا جولانهم لدى نخاس إسرائيلي ورفضوا أن يطلقوا عليه رصاصة واحدة وهـــو يعاشرهم جنسياً، وانتظروا من لبنان الضعيف أن يحـــرر لهـــم التراب والعرض والشرف.. اللعبة مكشوفة يا سيدي ولكنـــك ترفض أن نراها أو ننظر إليها، فالحصار السياسي والعـــسكري الأمريكي كلما اشتد على إيران سوف يتبعه ارتفـــاع ألـــسنة النيران في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان بفعـــل وكـــلاء طهران، ثم إذا تحول الحصار والضغوط إلى معركة عـــسكرية، فسوف يتحول الخليج بأسره إلى منفضة للسجائر أو الصواريخ الإيرانية . . وليدفع العرب ثمن الغطرسة الفارســـية وشـــهوة

البحث عن الزهو القومي . إن حديثك المعسول عن التسامح بين السنة والشيعة فات أوانه منذ أن افترس الشيعة في العراق شركاءهم في الوطن تحت إشراف البيادة الأمريكية، وقد لا تصدق حرفاً مما أقوله، لكن زيارة واحدة إلى اللاجئين العراقيين في أحياء القاهرة قد تفيقك من غفلتك أو تعيد إليك رشدك أو تعيد إليك صدقك مع نفسك ومع قرائك . . ولا تحاول أن تفسر نقدنا لك بأنه مأجور أو مدفوع فنحن نرفض من قبلك ضرب إيران أو حصارها عسكرياً لسعيها في الحصول على التكنولوجيا النووية، ولكننا فقط نتساءل : إلى من ستوجه إيران ترسانتها النووية إذا ما امتلكتها ؟ وهي تمارس فضيلة السلب والنهب للجزر العربية بسطوة السلاح والقوة، وتطهير البصرة مذهبياً وعرقياً من السنة وغيرهم ضمن منهج المشروع الفارسي الرامي إلى تقويض العالم العربي من الداخل، والذي لا يختلف عن مشروع التفتيت الأمريكي الإسرائيلي . . كان الأكرم لك أن تعترف أن العالم العربي اليوم هو منطقة صراع على النفوذ بين الفرس من ناحية والغرب من ناحية أخرى، دون أن تنعق فوق أشجار الوطن أو تمارس شرف الخديعة.

استنساخ الفتنة!

للدول الكبرى مذاهب ومـــدارس في تفتيـــت المجتمعـــات والكيانات السياسية بالمنطقة،وهي لا تخجل من المجاهرة بذلك علناً سواء في مؤتمرات أو ندوات يديرها وكلاؤها بحرفية بلهاء، أو من خلال إملاءات وشروط ترفقها بمساعدتها المشروطة وقد ترتدي أحياناً رداء الديمقراطية وأحياناً أخرى حقوق الأقليات الدينية أو العرقية أو من خلال التـــدخل العـــسكري المباشـــر والاحتلال كما هو دائر في العراق.

ونجاح أو فشل تلك الأجندات دائماً ما يكون رهناً بـــوعي الشعوب ومدى حصانتها الفكرية وصلابتها وتماسكها وسرعة استجابتها في سد الثقوب السوداء بالمجتمعات أو تنقية العـــسل من السم.. وببساطة شديدة فإن القراءة المتأنية الدءوبة لعدد من المشاهدات تكشف ملامح كئيبة لأجندة الفتنة ،ففـــي تحـــرك سريع يواكب أزمة الخادمات يصدر تقرير الخارجية الأمريكية حول الإتجار بالبشر ينفخ في الرماد ويصف مصر بأنهـــا دولـــة مرور للإتجار في النساء ورجال الخليج الأثرياء يتوافـــدون إلى مصر بهدف عقد زيجات مؤقتة كواجهة للاســـتغلال الجنـــسي التجاري. وهو مستوى من الفتنة موجه للعلاقـــات المـــصرية الخليجية بشكل عام.

المشهد الثاني رغم أنه داخلي إلا أنه مستورد مـــن العـــراق بالكامل شكلاً وموضوعاً ،فهو أجندة الاختراق الشيعي الـــتي

أخذت طابع المواجهة العنيفة والاشتباك بالأيـدي في إحـدى العروض المسرحية بنقابة الصحافيين منذ عدة أيـام ،وانتـهى العرض المسرحي الذي يروج لوجهة نظر شيعية بمعركة عراقية سنية / شيعية على أرض مصرية خالصة.

التطور الثاني في هذا المستوى هو مطالـب آلاف الـشيعة العراقيين اللاجئين بمصر بإنشاء مسجد خاص بهم يؤدون فيـه شعائرهم الخاصة في مدينة السادس من أكتوبر ومحاولة استدراج كيانات مصرية أخرى لتعزيز أجندتهم للفتنة. والمشهد الثالـث كتاب يروج للفكر الماسوني أجهض الأزهر محاولات ترويجـه داخل مصر لاستهدافه الإسلام والمسيحية معاً.

والمشهد الأخير يأخذ مستوى سياسياً متقدماً بدعوة زعـيم عربي لإحياء الدولة الفاطمية كنموذج تـاريخي للتـسامح في مواجهة فقه التعصب والجهل وحماقة وعاظ سلاطين الـنفط.. وبالتالي فإن الصورة العامة تكشف بدقة عن محاولات كـثيرين إدارة معاركهم الخاصة من بين الحواري والأزقة المصرية التي لا تعرف حتى الآن الفرق بين الشيعة والسنة ؛ ويعني ذلك ببساطة أنه طالما رفضت مصر التورط في احتلال العراق وإرسال قوات عسكرية كغطاء وستار لجرائم المحتل، فسوف ترسل إليها الفتنة في عقر دارها سواء في كتاب ماسوني أو في مؤتمر ديمقراطي أو تأسيس مسجد شيعي أو بمجرد عمل مسرحي شديد الـسطحية والتفكك... وتُنبئنا تلك المشاهدات بأن الدين يستخدم مـن أجل مصالح سياسية لا تعرف الأخـلاق ولا الفـضائل، بـل

وتتصيد بوضاعة وخسة التوقيت الأسوأ لتوجيه سهامها برعاية وكلائها الذين يؤدون مهمة التصويب الدقيق لسياط أسيادهم.
ومن الخطورة التعامل مع تلك المشاهدات على أنها ظواهر عارضة أو مجرد مطالبات بالحقوق الدينية والمدنية والسياسية لا رابط بينها، ومن الخطورة أيضاً أن نكتفي بالمتابعة وحشد القوى والجهود للرد وتفنيد الحجج والبراهين كأننا مصابون بمرض عقلي.. لكني أتصور أننا في المقابل مطالبون بأجندة بحثية فكرية تنقب عن التشوهات داخل السياسية والمجتمع الأمريكي ولا مانع من الاستعانة بالباحثين المتميزين في هذا المجال لاستثمار الفتنة والانقسام داخل أروقة السياسية الأمريكية وفي داخل التجمعات العرقية المختلفة والتشهير بها من حين لآخر في المحافل الدولية ،على أن تتكفل الولايات المتحدة بتخصيص جزء من المعونة الأمريكية لتلك الأجندة البحثية التي تهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق التقارب والوعي والفهم بين الشعبين لا سمح الله!!

إستراتيجية بيكـــو!

"بيكو" كان اسم التدليل لذلك الفتى الوسيم الإيطـــالي – المصري المشترك القاطن بحي عابدين جوار القـــصر الملكـــي, حيث كانت الملكية هي سمة الحكم يوم مولده لأب مصري وأم إيطالية رائعة الجمال امتلأت بعشق مصر، فقررت يوم طلاقها أن تستقر في مصر، بينما قرر الأب أن يستقر في إيطاليا ،ليظل "بيكو" حائراً بين موانئ البحر المتوسط جيئة وذهاباً، وليـــت حيرته استقرت عند هذا الحد بل امتدت إلى ديانته أيضاً فأصبح مزيجاً ما بين المسلم المستنير والمسيحي الغربي، إذ كان الاتفـــاق بين الأب والأم على احتفاظ كل منهما بديانته، وبالتالي فـــإن بيكو في الأوراق الرسمية مسلم لأبيه يرتدي في عنقه سلـــسلة معلق بها آية الكرسي كلما توجه إلى روما لزيـــارة والـــده في إجازة الصيف، ثم يرتدي مفتاح الحياة كرمز مقارب للـــصليب عند إقامته الدراسية لدى والدته .. بيكو الماكر أتقـــن اللعبـــة وعرف كيف يديرها لصالح محفظته الاستثمارية ،فالأم تغـــدق عليه الأموال بمجرد عودته إليها مرتدياً مفتـــاح الحيـــاة والأب يفعل بالمثل لحظة رؤيته لآية الكرسي، وبيكو يمضي وقته مرحاً بين بارات القاهرة وروما إلى يومنا هذا، والعجيـــب أنـــي لم أستطع أن اكتشف ديانته الحقيقية في أية لحظة لإتقانه الـــشعائر الدينية المسيحية والإسلامية في عبقرية شديدة رغم لكنته العربية الرديئة، لكنه كان بارعاً، فهو ثمـــار التـــزاوج بـــين الأديـــان

والثقافات.. بيكو لم يكن حالة فردية في ذلك الحي الذي كان يمتلئ بعشرات الأسر المزدوجة الديانة دون أن يشكل ذلك أدنى إزعاج للمؤسسات الدينية أو لمنظومة العائلة والمجتمع المصري ،لكن بوفاة والديّ بيكو بدأت المشكلة وبدأ يبحث عن مصادر أخرى للرزق وهو لا يتقن سوي لعبة المتناقضات، فهي حرفته الوحيدة فلم يجد بديلاً عن استبدال والديه بقوى دولية أكبر لتظل لعبة المتناقضات تحقق له التدفقات المالية الكافية لحياة الترف التي اعتادها، فقرر الهجرة والانضمام إلى تشكيلات سياسية تُدعى أقباط المهجر ليصبح أحد كهنتها وحكمائها لخبرته العريضة في هذا المجال منذ طفولته ،فبدأ بتنظيم المؤتمرات ونظم الهتافات ونشر المقالات، فإذا بالدولارات تنهمر من كل حدب وصوب ،ويصبح بيكو زعيم المضطهدين في الأرض.. دائماً ما أتذكر بيكو كلما قرأت مقالاً لكاتب سقط ضحية لإغواء جماعات بيكو وأخذ يردد صياحهم وصراخهم، أو استمعت إلى هتافات تأتي من فنادق واشنطن الفاخرة، أو أطلعت على دراسات مراكز الأبحاث ذات الطابع الإستراتيجي، فتجارة جماعات بيكو نجحت وازدهرت بشكل سرطاني مخيف أصبح لهم أبواق في القاهرة وفي واشنطن وفي لندن وباريس وبرلين، ولم يعد هدفهم مصر فقط بل الإسلام من المحيط إلى الخليج استثماراً لموجة سبتمبر الكريهة.. بيكو وأتباعه كان بإمكانهم أن يتحولوا إلى رصيد حضاري مشرف لمصر لكنهم فضلوا الاتجار بالوطن فهو أكثر ربحية وأكثر خسة،

وعزاؤنا الوحيد أن تاريخ أقباط مصر مليء بالشرفاء الـــذين لم تنحنِ لهم جباه أمام ذهب المعز أو سيفه ،ولم يكونـــوا يومـــاً سياطاً للوطن. وعزاؤنا الوحيد أن جماعات بيكو ليست قبطية خالصة، فمن بين صفوفها جماعات أخرى خلدونية ربما تكون قد مرت أيضاً بنفس ظروف النشأة والتطور والانتظام في تجارة الوطن.. ومن يدري فقد يجود الزمان يوماً بنسخة قبطية مـــن "جوئل بينين" مؤلف كتاب شتات اليهود المـــصريين لتـــزيح الستار عن أكاذيب شتات جماعات بيكو في المهجر.. فالرجل أنصف اليهود المصريين كما أنصف المصريين من تهمة معـــاداة السامية ،وكان من نتاج هذه المواقف الواضحة والـــشجاعة أن تعرض للهجوم من قبل الصهاينة والقوى اليمينيـــة الأمريكيـــة المتطرفة التي هالها أن ترى أستاذاً في جامعـــة مرموقـــة يكيـــل الاتهامات الخطيرة الواحـــدة تلـــو الأخـــرى إلى الحكومـــات الأمريكية المختلفة وحليفتها إسرائيل.. فالأكاذيب لن تـــستمر طويلاً .

الرومانسية السياسية

تدهشك محاولات الابتعاد بملف اغتيال بنازير بوتو عن السياسة إلى معالجات رومانسية وصور فاضحة وروايات عن تجارب المرأة في عالم السياسة، بحيث بدا الأمر وكأنه محاولة إخفاء الرسائل الحقيقية التي أرادها القاتل من خلف طلقات الغدر.. فبنازير بوتو جرى اغتيالها على طريقة "سهم عربي مسموم" لعملاق المسرح المصري الراحل زكي طليمات، إذ أعلن بوش صيحته الشهيرة "القاعدة" ،وهي مسألة يدركها أي كاتب سيناريو مبتدئ فالزعيمة الباكستانية تنتمي إلى المذهب الإسماعيلي أي أنها شيعية، وبالتالي فالقاتل ينبغي أن يكون سني قاعدي أو غير قاعدي، ووفق التسلسل المنطقي يصبح من الخطورة أن يمتلك هذا القاعدي حقيبة الأسرار النووية الباكستانية وعليه أن يسلمها لأولياء الأمور في مجلس الأمن المزعوم ،باستخدام نموذج الفوضى الرئاسي اللبناني ،وهنا يحل الزوج والابن في موقع الزعيمة المغتالة ويجرى تدويل القضية والتحقيقات والجلاد الذي يمارس القصاص.. وتصور معي أيضاً ان بنازير بوتو لم تغتل وحققت اكتساحاً في الانتخابات الرئاسية ،وتولت مقاليد الحكم لتصبح الحقيبة النووية في أيدى شيعية لتنضم إلى إيران في مواجهة السنة العرب المؤسسين الحقيقيين لتنظيم القاعدة.. إذاً فالمعادلات رغم أنها متغيرة لكنها في النهاية تصب في الصالح الأمريكي طالما استمرت الفتنة دائرة

تحت مسمى "سني وشيعي" فالدين أصبح هو الورقة الرابحة في يد أمريكا لحرق المنطقة. عند لحظة الفهم هذه ما هو المطلوب منا ؟! هل تفعيل الحوار المذهبي الذي تعثر لقرون موغلة قدماً في التاريخ كفيل بترع الفتيل وإطفاء الحريق؟ وهل لدينا متسع من الوقت لننفقه في الجدل السفسطائي بين شرعية المذاهب وحيل التوفيق بينها ؟ أتصور أن هذا هو الترف بعينه والسفه الذي لا يمكن أن يقبله عاقل، وإيران تدرك ذلك جيداً وهي مطالبة بأن تغلب الانتهازية السياسية على المذهبية الدينية في أدائها السياسي وهي تتعامل مع مصر، وهي لغة تجيدها بالفعل وليس فيها افتعال أو تصنع، ويمكنك أن ترصد بعين القارئ العادى ذلك السيل القادم من أبواق إيران في الإعلام المصري يجاهد بعضه لدق أجراس الخطر الإستراتيجي والتحذير من إضاعة فرصة التصالح مع إيران، بينما الآخر غارق في التهليل والتبجيل للمذهب الشيعي في محاولة لإقتلاع الخوف من الصدور، والكارثة أننا في مصر لم نعرف التحيز المذهبي فنحن نطوف حول الكعبة ونطوف حول أضرحة الأولياء مسلمين وأقباط، ولقد عايشت مسلمين ضيوفاً دائمين على "ماري جرجس" في مصر القديمة وأقباط لا يقربون الطعام قبل مدفع الإفطار في رمضان.

وبالتالي فنغمة التقارب المذهبي هي عزف على وتر مقطوع لن يطرب أحد بقدر ما يثير من الشكوك، وليس من المطلوب إغراقنا في عقد مقارنات بين الوهابية والشيعية بينما إيران تمد

خيوط الوصال مع الولايات المتحدة، وليس من المنطقي أن نتزلق في مواجهات مع الولايات المتحدة بالوكالة عن إيران بينما طهران تغازل تل آبيب من خلف الأبواب الخلفية التي تمر عبر يهود إيران؛ السياسة لا يجب أن تمر عبر المراجعات الدينية أو أن تستسلم لمحاولات الربط بين التدين والإرهاب لأنها محاولة فاشلة عاجزة تسعى إلى اختزال الكراهية تجاه السياسات الأمريكية في المنطقة في مساحة فكرية ضيقة، لا يمكن أن يكون الدين مسئول عن حالة السخط والانفجار التي نشاهدها في العراق مثلاً من الاحتلال والغزو الأمريكي!!، أو نفسر الانتهازية الطائفية للشيعة في العراق بأنها منفصلة عن أحلام الإمبراطورية الفارسية في التوسع والسيطرة.. على إيران أن تقبل نظاماً إقليمياً شرق أوسطياً متعدد الأقطاب يستلهم بقاءه من مفاهيم الأمن الجماعي والسلام الدائم.

عدو نفسه

يرى كثير من علماء التاريخ والجغرافيا والاجتماع أن الشخصية المصرية هي من أعقد الشخصيات الإنسانية تركيباً وتميزا وتفرداً.. وعداء للنفس!! والملاحظة الأخيرة تستدعي التحليل التاريخي لتلك النزعة المدمرة وهل هي كامنة ضاربة في عمق التاريخ أم أنها إحدى تبعات أحداث سبتمبر المشئومة؟! وهو تساؤل أجد أن الإجابة عنه تستدعي منظومة عمل من خبراء التاريخ والاجتماع ومجمل العلوم الإنسانية لنصل إلى النغمة الصحيحة للتعامل مع الشعب المصري..لكن ما لَحظْتَه بالفعل منذ أحداث سبتمبر وحتى الآن أن نغمة العَداء الشخصي في تزايد وارتفاع وتوحش، ولنبدأ من أحداث سبتمبر وتدفق الدارسين العرب من أوروبا والولايات المتحدة لاستكمال دراساتهم الجامعية بمصر قطعاناً وزرافات في هجوم لم نشهده منذ الستينيات في أجواء الفورة الثورية ،عندما فتحت مصر ذراعيها لكل من هب ودب ،لنفاجأ فيما بعد أن هؤلاء أصبحوا اليوم قادة ورؤساء وزعماء ووزراء وقادة رأي في أوطانهم، وكم من المكاسب السياسية حصدتها مصر من وراء ذلك.. ومع كل هذا الإدراك لسلاح التعليم المصري فإن التعامل مع الحدث في أجواء سبتمبر لم يكن على هذا القدر من المسئولية ،واستمر المجلس الأعلى للجامعات في أدائه الروتيني وبطء تفاعله مع معادلة الشهادات الجامعية الدراسية للوافدين،

الأمر الذي دفع بكثير منهم إلى الخارج مرة أخــرى وفقــدان مصر دخل يعادل -إن لم يكن يزيد- عن دخل البترول وقنــاة السويس وتحويلات العاملين في الخارج.. بــل إن الولايــات المتحدة نفسها أدركت جريمتها الشنعاء في حق الطلبة العــرب وما أدى إليه ذلك من هروب الدراسيين العرب من الجامعات الأمريكية وفقدان تلك الثروة الهائلــة ،فبــدأت في تــصحيح مساراتها السياسية من جديــد وتنــشيط برامجهــا الدراســية لاستقطاب تلك الثروة مجدداً ..ولأننا لا نستوعب الدرس ولو تكرر آلاف المرات فقد مارسنا نفس المنهج مــع التــدفقات الاستثمارية العربية، بــدأت بلطــم الخــدود علــى تــوطن الاستثمارات العربية والإسلامية في الغرب وقدرتها على تقريــر المؤسسة العربية لضمان الاستثمار في الكويت أخيراً بــــ ٤,١ تريليون دولار، ثم مرت باستجابة ملحوظة من عدد من رجال الأعمال والمستثمرين العرب، وانتهت بلطم الخــدود ولطــم المستثمرين وركلهم بكل أصناف الأحذية حريمــي ورجــالي وأطفال.. وأصبح كل من يوسوس له الــشيطان بالاســتثمار الزراعي أو العقاري في مصر إقطاعي وخائن وعميل لتل آبيب ومصاص دماء أراضي مصر الصحراوية البور..ومن يجرؤ على تعمير حقل ألغام الساحل الشمالي حتى مطروح فهــو تهديــد لمستقبل مصر النووي .. لكن من يــسرق مليــارات البنــوك ويتسلل تحت ستار الظلام هو وطني مخلص، ومن يستولي على أموال البسطاء في شركات توظيف الأمــوال هــو مناضــل

شريف..ومن يهدم الأبنية المغـــشوشة فـــوق رؤوس قاطنيهـــا بضمير قاتل مستريح مطمئن، أو يغرق الأطفال والنساء في اليم هو ضحية الظروف..إذاً نحن من صنع مأساة الوطن، ونحن من أضاع أمانة الوطن عندما استغرق بعضنا في النـــهب ونـــزح ثروات البنوك إلى الخارج ،ولم يعد أمامنا مفر سوى أن نـــشهر إفلاسنا أو نستجدي الاستثمارات العربيـــة لتملـــئ الفـــراغ الاقتصادى ،ولا مانع فيما بعد من أن نمارس عداء الـــنفس وأن نذبح الدجاجة من جديد طالمـــا أن العـــدو لازال يقطـــن في الداخل.

لا حياء في الأمن

كثيرون منا كان من المفترض أن يقضوا إجازاتهم في شــرم الشيخ أو دهب أو أي من شواطئ مصر، إما لغــرض العمــل وتأمين لقمة العيش أو للسياحة الداخلية والاستجمام من عناء وأعباء الحياة وضغوطها اليومية،إذاً فنحن جميعاً مستهدفين من قتلة دهب وطابا وشرم الشيخ ولا استثناء لشيخ أو طفــل أو امرأة ولا حرمة لمريض أو عابر سبيل أو فقير معدم يــسعى إلى لقمة العيش بشق الأنفس، أو سائح يلتمس كرم الــضيافة لأن الإرهاب لم ولن يستثني أحداً، والقاتــل لا تعــوزه المــبررات السياسية أو الدينية لكي يقتل طالما أنه عقد النية مسبقاً.وبالتالي فإن استبعاد بدو سيناء من التنمية السياحية في سيناء لا يمــنح تفويضاً أو تبريراً لممارسة القتل ،كما أن بدو سيناء لا يمكــن النظر إليهم على أنهم خوارج عن النسيج الوطني المصري ،وفي المقابل فإن نظرتهم إلى الانتماء الوطني يجب أن يختفــي منــها مفهوم استبدال الاحتلال الإسرائيلي بآخر مصري.بمعــنى أدق وصراحة تصدم، فالمطلوب أن تختفي الشكوك المتبادلــة بــين أطياف المجتمع المصري والنعرات التي تسري في دوائر الــرأي العام بشكل غير مسبوق وتطعن في وطنية البدو، وهــو اتجــاه ينمو ويزداد يوماً بعد يوم ،وهناك من يغذي ويكــرس معــاني الانشقاق بين طوائف الشعب المصري .بل إن مصداقية الانتماء الوطني لبدو سيناء دخلت في إختبار ثقة شائك منذ تفجــيرات

طابا باعتبار أن مسئولية الأمن الفعلي في شبه جزيرة سيناء تقع على عاتقهم "فأهل مكة أدرى بشعاها" كما أن الإتفاقيات الأمنية مع إسرائيل تضعهم في مواجهة المسئولية عن تأمين بوابة مصر الشرقية دون غيرهم من الأجهزة الأمنية ،وأي فشل في تأمين ضيوف مصر أو العاملين هناك يتحمله بدو سيناء دون غيرهم، والحديث عن خصوصية وحرمة بدو سيناء يواجهه في المقابل مسئوليات وواجبات وأعباء وطنية،

إلا أن حصاد قراءة الرسائل السياسية لتفجيرات دهب تلقي بضوء كاشف نحو دوائر إرهابية تفوق قدراها بدو سيناء أو حتى التنظيمات المحلية ،بل إن تستر الفاعل الأصلي وراء خلايا يمتزج فيها البدو بطوائف مصرية أخرى لا يعني بالضرورة أن التخطيط والتمويل مصري خالص، فهذا الدمج بين المناسبات والأعياد الوطنية المرتبطة بنصر أكتوبر وتحرير سيناء ينطوي على دلالات سياسية لفكر إرهابي من نوع خاص يتجاوز تنظيم القاعدة ،كما أن التنفيذ القائم علي معلومات دقيقة يعني أننا أمام جهة أكبر من مجرد تنظيم صغير ،ولربما كانت وراؤه أياد كبرى تنتمي إلى دولة هنا أو هناك ،وحتى لا نتهم باستدعاء نظرية المؤامرة من قبرها فلنقرأ النتائج لنصل إلى المقدمات، أولاً: أن هذه الأعمال الإرهابية ذات تأثير فوري علي الدور الإقليمي لمصر، وتهدف إلى إرسال الرسائل للداخل والخارج بأن مصر ليست مؤهلة لمثل هذا الدور إلا في إطار محدود جداً، خاصة وأن الإجماع العربي على اتخاذ شرم الشيخ

مقراً دائماً للقمة العربية يتعارض مع أطماع إقليمية في جعل سيناء مقراً لمنظومة الشرق الأوسط الكبير اقتصادياً وسياسياً, لذلك لم يكن من المستغرب أن تزعم جريدة هآرتس الإسرائيلية أن المعلومات المتوافرة لدى إسرائيل وزودت بها مصر تؤكد أن تلك المتفجرات تهرب إلى سيناء من السعودية، فالسعودية هي التي قررت التكفل مالياً ببناء مقر القمة العربية في سيناء.

ثانياً: طمس كل الأعياد القومية الكبرى ذات الصبغة الإذلالية للاحتلال الإسرائيلي ،والتأكيد أن سيناء تلك التي زعمتم وفرحتم بأنكم حررتموها من الاحتلال وأنتم لا تستطيعون اليوم حمايتها منا ". ذلك هو جوهر الرسالة التي بعثها من خططوا ونفذوا الاعتداءات الإرهابية الثلاثة ،وهي رسالة تهدف إلي إهانة المصريين جميعاً شعباً وحكومة ،والحط من شأنهم وأية تصورات قد يسعون إلى تحقيقها لدور مصري عربي أو إقليمي فعال ونشط. هذه النوعية من اختيار تواريخ ومناطق العمليات الإرهابية التي وقعت في سيناء لا تتطابق مع طريقة تفكير وإمكانيات وسوابق الجماعات والتنظيمات الإسلامية المتطرفة والإرهابية التي عرفناها خلال السنوات الأخيرة التالية لهجمات الحادي عشر من سبتمبر.

بغاء الخادمات

خيط رفيع مشدود يربط بين قضية "بنات الليل" و"صفقة الجواري" لكن ما بينهما في تلك المسافة التي تقف على طرفها الأول الإعلامية هالة سرحان وفي نهايتها وزيرة القوى العاملة عائشة عبد الهادي يجلس الشيطان كامناً في التفاصيل ،لكنه شيطان بلا ملامح محددة حارس لأقدم مهنة في التاريخ.. فالأولى تحدثت عن عالم سري ملامحه ضبابية يعمل تحت الأرض وعناصره مخفية وراء أستار المجتمع وحواجزه الكثيفة. وكل جريمتها أنها أعلنت عن وجوده رغم أنه إعلان متأخر ينقصه معلومات غزيرة أوردتها دراسة لشبكات البغاء في مصر صادرة عن دار الآداب منذ عامين.. فهالة سرحان كانت مجرد ناقلة للكفر -إن صح التعبير- وحتى لو ثبت أن اللقاء مفبرك والضيوف مأجورون أدوا أدوارهم التمثيلية ومحاكاتهم للواقع بمهارة، فسوف تظل العهدة على الراوي، وهو هنا أيضاً دراسة حديثة أخرى بعنوان "بغاء القاصرات" لمؤلفته رضوى فرغلي ،وينطوي على قدر هائل من نوعية المشاهدات التي تطرح أسئلة كثيرة تذكر من بينها المؤلفة طالبتان ضبطتهما معاً في وضع غير لائق أخلاقياً، ومدرسة تحرض بعض الطالبات على أعمال منافية للآداب مقابل مزايا عينية ومادية، وخال يعتدي جنسياً على ابنة أخته الطالبة بالمدرسة، وأب يتحرش بابنته، والأم في أغلب الحالات تلوذ بالصمت المبهم، وطالبات يذهبن

إلى المدرسة" بالمريلة" ويخرجن بملابس أخرى تليق بلقاء بعض الشباب والذهاب للمتنزهات رخيصة الثمن أو دور السينما (درجة عاشرة) وتوثق محاولاتها للقيام بدور إيجابي يساعد في تخفيف الآثار النفسية لهذه السلوكيات، لكن محاولاتها باءت بالفشل نظراً لعدم توفر المناخ الملائم، وعجز الميزانية، وعدم وعي الإدارة المدرسية بدور الأخصائي النفسي، وانتهى الأمر بها إلى أجازة بدون مرتب!!.فكل من تعرض لملف البغاء كان مصيره النفي والإقصاء وكأن خلف الستار لوبي أو خلية تنظيمية تدير المعركة في مواجهة من يمتنع عن الصمت.. أما جريمة وزيرة القوى العاملة أنها مارست السذاجة التي أتحلى بها أحياناً ودفعتني في إحدى المرات إلى سؤال أحد قساوسة الكنيسة الآنجيلية في هامبورج بألمانيا عام ١٩٩٤ عن دور الكنيسة في مكافحة شبكات البغاء التي تتخذ من الشارع الخلفي للكنيسة مقراً لها ؟ وأجابني-وليته ما أجابني- فقال: يا بني أنت تتحدث عن أقدم مهنة في التاريخ، لم تنجح أي من الرسالات السماوية في القضاء عليها نهائياً رغم العقوبات البدنية والروحية.. وبالتالي فقد تكون محاولة السيدة وزيرة القوى العاملة لتقنين أوضاع العمالة النسائية المصرية بالخارج قد مست وتراً حساساً لدى حراس كنوز البغاء لأنه يقفل باب الاجتهاد السري في تلك المسألة والتي كانت تجري بانتظام وبطرق شرعية ملتوية ،فالقواد يتحول إلى زوج في الأوراق الرسمية ويصطحب ضحاياه بزعم أنهم زوجاته ثم يجبرهم في أية

بقعة من الأرض على ممارسة البغاء ،وتكفـــي قـــراءة متأنيـــة لعشرات القضايا سواء في مصر أو في الخليج لمعرفة أكثر مـــن سيناريو لاستدراج الضحايا بـــزعم تـــوظيفهم خادمـــات أو مصففات شعر أو ممرضات ثم ينتهي هم الأمـــر إلى بغايـــا.. وبالتالي فإن أية اتفاقية لتقنين أوضـــاع النـــساء العـــاملات في الخارج تضرب القوادين في مقتل وتفقدهم سوقاً رائجـــة مـــن آلاف الضحايا، وتنهي عصراً كاملاً من الاحتكار وتقضي علي تجارة اللحم البشري، وليس كما يصور البعض أنها تنشئ سوقاً للرقيق الأبيض.. وأية اتفاقية تناقش أوضاع المـــرأة المـــصرية العاملة في الخارج تستحق منا جميعاً التأمل والمناقشة والجـــدل وليس الانكار وكأنها قضية ليس لها وجود مطلقاً وبـــلا أب أو أم شرعيين..لقيطة أو بغية.. بل هي مأساة وجدت أخيراً مـــن يقف في وجهها ويفكك أسبابها وينهي وجود القائمين عليها.. لا تظلموا عائشة عبد الهادي قبل أن تقـــرأوا ملفـــات الآداب وتكتشفوا بأنفسكم من يحول نساء مصر إلى بغايـــا بإشـــراف وطني خالص.

تسطيح .. المسطح

ظاهرة التسطيح الفكري واحدة من الظواهر التي تحتاج إلى مجموعة بحث رفيعة المستوي لتضع معايير كاشفة لها تحصن القارئ والمشاهد من الوقوع بها، وقد نجحت بكل اعتزاز في رصد ثلاث ظواهر للتسطيح هذا الأسبوع ،لكن ساعتذر عن مواصلة تتبعها حتى أحيا بأعضائي الداخلية والخارجية سليمة وحتى لا أتهم بأنني أمارس التسطيح لحساب جهات هنا أو هناك.. الأولي: كانت تصريح لمعالي وزير التخطيط دكتور محمد عثمان بأنه "لا إلغاء لدعم رغيف الخبز ولكن سنبحث عن من يستحقه" وجاء في حوار مطول نشرته الزميلة مجلة المصور، وعندما قرأته شعرت أن من يستحق الدعم في رغيف الخبز قد انقرض من على وجه الأرض وأصبح كائناً خرافياً يستدعي تدخل الأثرى العالمي دكتور زاهي حواس للتنقيب عن آثاره في منطقة تمتد من سور الصين العظيم حتى بين السورين بشارع الجيش.. الثانية: كانت دعوة في صحيفة إيلاف للكف عن مهاجمة وفضح بعض الروايات والكتب المصادرة والبرامج الفضائية ومقاطع العري في الفيديو كليب بزعم أن توجيه النقض لها يرفع من نسبة الإقبال عليها ،في حين أن الحقيقة أن ما أثارته الكاتبة هو تسطيح للقضية لأنه كان إتهاماً قديماً موجهاً للصحافة والإعلام منذ عقود بالتورط في الترويج للجرائم, بنشر تفاصيلها وأساليب ارتكابها والنتيجة ارتفاع نسبة الجرائم كما صور ذلك الباحثون المسطحون وهوجمت

صحافة الحوادث بشدة لهذا السبب الأهبل ،في حين أن الجرائم كانت تحدث بكل أنواعها كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم مثل القتيل في صورة البقرة وزنا المحارم والزنا بكل أنواعه وشرب الخمر, فالقرآن جاء ليخبرنا عن العقوبة المحددة لكل فعل إجرامي, كذلك الإعلام المعني بالحوادث حقق نسبة وعي عالية لدى القارئ دفعته إلى الحذر والانتباه تجاه كل ما يستجد في عالم الإجرام.. النتيجة أن الكتابة عن سلبيات المجتمع من كتب وبرامج فضائية .. حقيقة لم يُروَّج لها بقدر ما أسهم في تعريتها وتحصين من سيقع في شراك المشاهدة لها،لأن العين الثالثة التي تملك القدرة على النقد والتحليل وتعرية المضامين المفخخة هي مَلكة وموهبة مقتصرة على قطاع وشريحة ضئيلة في المجتمع الإعلامي ذاته ،والخبرة تحققت لديها بمرور السنين وتكرار المواقف وانتقالها إلى المجتمع لتحصينه لا يمكن أن يعني الترويج لها ،كذلك في مسألة الرقابة على المؤلفات أتصور أنها ضرورة لا غنى عنها في مجتمعات تصل فيها نسبة الأمية إلى أرقام فلكية في حين أن الأمية في الغرب هي لمن لا يجيد فنون الحاسب الآلي، وبالتالي فالقارئ في مجتمعاتنا دائماً ما يكون في احتياج إلى خبرات الرقيب والصحافي والإعلامي ليأخذ بيده إلى ما يشكل فكره بصورة صحية وليست مشوهة بفعل الفسح المستمر بلا وعي، ولكن بهدف تدمير معاييره الفكرية السليمة.. لابد أن نتفق أنه سواء قبلنا الرقابة على الفكر أو رفضناها فإن المَلَكَات والقدرات الفكرية بين الأفراد متفاوتة

وليست على وتيرة واحدة أو بنفس القدر، وأن دور الإعــلام ليس فقط نقل الصورة والخبر، ولكن أيضاً صـياغة الوجـدان والهوية والانتماء، وأن عولمة الإعلام تهدف إلى تحقيـق نفـس المعايير ولكن لحساب الآخر الذي يتـربص بنـا ؛ فاحـذروا تسطيح المسطح الذي تروج له الكاتبة وهي لا تدرى أنها تدعو إلى هتك عرض الفكر بانتزاع دوره في التوعيـة .. الثالثـة: مباحثات أمريكية مع جيران إيران، ومنهم السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة بشأن سبل تعزيز دفاعاتهم، يجريهـا اللفتنانت جنرال جيفري كولر المسئول عن مبيعات الأسـلحة الأمريكية، للوقوف على القدرات المطلوبة وأفضل السبل الـتي يمكن أن تلبي بها الولايات المتحدة تلك الاحتياجات. والجـدير بالذكر أن "كولر" حقق مبيعات أسلحة للحكومة الأمريكيـة قيمتها ١٠,٦ مليار دولار العام الماضي، وهـو في سـبيله إلى تنسيق مبيعات قميتها نحو ١٣ مليار دولار هذا العام. وقال إنه يتوقع منافسة من فرنسا وأخرى في الشرق الأوسط على الفوز بمبيعات أسلحة للشرق الأوسط .

وبالتالي فكلما زاد التسخين الأمريكي تجاه إيـران كلمـا ارتفعت مبيعات السلاح الأمريكية والفرنسية لتغير التـدفقات النفطية من مسارها بالعودة إلى الخلف من حيث أتت، بينمـا وزير التخطيط يواصل تنقيبه عن مستحقي الدعم لرغيف الخبز الذي انقرض هو والخبز منذ عقود.

الفصل الخامس..

منظومة التفكيك .!!!

تفكيك مصر

استشعرت الدول والإمبراطوريات المتفوقة منذ أقدم العصور ضرورات المعرفة بـ(الآخر) من أجل الهيمنة عليه أو استثماره أوالإفادة منه، تأسيساً على حقيقة أن المعرفة إنما هي القوة ،وقد تجلت الحاجة إلى اكتساب كل المعلومات عن الدول الأخرى حتى في العصر العباسي، عندما كانت بغداد عاصمة لدولة الخلافة الممتدة بين الصين وأوروبا، حيث كان تأسيس ورعاية (بيت الحكمة) (كمؤسسة استشعارية) ينطوي على رغبة رأس الخلافة ومعيته بمعرفة شئون وعلوم الأمم الأخرى .

ولن يبالغ المرء إذا ما ادعى أن المؤشرات الأولية لعالم اليوم تدل على وجود العشرات وربما المئات من الأدوات الاستشعارية ،ممثلة في المعاهد والمراكز الإقليمية والمؤسسات البحثية المتخصصة في شئون الشرق الأوسط ، ومعنى ذلك أننا نعيش حقبة الرقابة الدولية حيث تحاسب الدول عن سلوكها الاقتصادي والسياسي، بينما تحاسب الشعوب عن خصوصياتها الثقافية، وهويتها الحضارية والدينية ،وهل تسير في المسار الصحيح، أم أنها انحرفت وانجرفت في مجال عدم قبول الآخر وكراهيته، بل والنضال ضده، ليس فقط برفع الشعارات المتطرفة قومية كانت أو دينية، بل أحياناً بالإرهاب القطري الذي يوجه للدولة العربية المعاصرة ذاتها، أو الإرهاب العالمي

الذي يوجه ضد مصالح دول أجنبية.وبالتطبيق علـــى الحالـــة المصرية لهذا الإطار النظرى فإن أي مراقب دقيق لابد أن يقف متسائلاً عن مغزى القبول الأمريكي للحوار خلـــف الأبـــواب المغلقة مع تيارات الإسلام السياسى المصرية، بينمـــا تـــرفض واشنطن ثمار الانتخابات الفلسطينية التشريعية التي قـــد تـــأتى بحماس إلى عصب الحياة السياسية الفلسطينية ،ويـــصل الأمـــر بالرئيس الأمريكي إلى التدخل في الشأن الداخلي الفلـــسطيني بدعوته إلى عدم التصويت لمـــصلحة حركـــة "حمـــاس" في الانتخابات التشريعية المقبلة، معتبراً أن قيام دولـــة فلـــسطينية مستحيل مع "وجود عصابات مسلحة تتوسل العنف لأغراض سياسية".وقد يختزل البعض تفسير ذلك في مفهـــوم سياســـة الكيل بمكيالين طالما أن إسرائيل طرف في الحالة الفلـــسطينية، وهو أمر غير صحيح لأن الفارق بين الحالتين مرحلي بمعـــنى أن الحالتين هما تسلسل لسيناريو واحد، فالأمر يبدأ بتوجيه القوى الدولية الدعوة إلى انتخابات حرة تسمح لكل القوى السياسية بالمشاركة والتعهد بقبول ما ستسفر عنه تلك الانتخابات الحرة كما في الحالة المصرية ،أو التحذير من وصولها إلى الحكم كما في الحالة العراقية والفلسطينية، ثم ما أن يصل الإســـلاميون إلى سدة الحكم كما حدث بالجزائر حتى يبدأ ســـيناريو الحـــصار والتحريض واتهامهم كما في حالة حماس بالعنف والإرهاب، أو اتهامهم باضطهاد الأقباط والعنف الديني كما سيحدث في حالة مصر إذا ما قفز آيات الله إلى الحكم، لتبدأ دورة من الحصار قد

تنتهي بسيناريو الفوضى العراقي لتفكيك النظـــام الـــسياسى المصري وإعادة تشكيله مجدداً على غـــرار النمـــوذج اللبنـــانى الطائفي.

وفي كل السيناريوهات المطروحة يظل العنصر الداخلى هو حجر الزاوية فى نجاح أو فشل المخطـــط التـــآمرى ،وبفـــضلٍ انزلاق جماعات المراهقة السياسية يصبح الأمـــر أكثـــر يـــسراً وسهولة ،وتحت ستار التغيير تجرى عملية لبننة الساحة السياسية المصرية وتجهيزها للتفجير، وكله بالديمقراطية وســـواء رفعـــت جماعات المراهقة السياسية لافتات الرفض للتدخل الأجـــنبى أو دعت إليه تظل في الإطار النهائى ترس أساسى في عملية فـــرم المجتمع وتحويله إلى فتات طالما ظلت ترفض استيعاب الظـــرف الدولى ومارست الانتهازية علـــى حـــساب مـــصير الـــوطن وتصورت أن التغيير يجب أن يعتمد فقط أسلوب الصدمة دون مراعاة للأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تماماً كما حدث في الاتحاد السوفيتى وأدى إلى تنـــاثره شـــظايا ،يقـــف كثيرون على أطلاله اليوم يترحمون على زمن التوازن الـــدولي وجحيم الحرب الباردة مقارنة بالطوفان الأمريكي.

سياسة الخازوق

نعرفها جميعاً من أفلام الكوميديا الرائعة في الستينيات ،لكن لا أتصور أن أحداً أدرك من قبل أنها ليست كوميديا.. فدائماً كان التهديد بالسيخ المحمي في صرصور ودنه هو الإفيه الصارخ في لقطات تلك الأفلام، لكنه لم يعد يضحك بعد أن تحول إلى إستراتيجية عسكرية قاتلة تعمد إلى استخدامها القوى الدولية كلما أرادت ابتزاز نظام سياسي عربي.

والخازوق كما رأيته يتفاعل ويشتبك ويتعامل معه الأسبوع الماضى هو ملف المعهد الجمهوري الأمريكي،وما أثار رعبي أن الاستماتة على الاستحواذ به كانت ضارية إلى حد كبير وكثيرون أشاروا إليه بأنه خازوق وضعته الإدارة الأمريكية لممارسة الابتزاز السياسي تجاه مصر وتهيئة الأوضاع السياسية لمزيد من التأزم والقابلية للانفجار والدخول في عصر الفوضى الخلاقة الذي دخلته العراق من قبلنا، وآخرون رأوا أنه طوق نجاة من أزمة المجتمع المدني في صراعه مع السلطة والنظام والأمن ،وهو جدل أدى إلى تسميم أجواء العلاقات المصرية الأمريكية وإغلاق المعهد إلى أجل غير مسمي .. وللتسمية بُعد ورؤيا أدركتها من متابعة أهداف أطراف الأزمة ،فالولايات المتحدة وفق رؤية مديرة المعهد بالقاهرة وفي حديثها لجريدة نهضة مصر ترى أنه حان وقت التدخل المباشر لدعم توجهات الإصلاح السياسي وتقديم يد العون والمساعدة للقوى السياسية

من أحزاب ونقابات وتجمعات سياسية من أجل التوصـــل إلى نظام ديمقراطي مستقر ومن داخل مصر التي يعتبرها الأمريكيون هي مفتاح التغيير للمنطقة العربية والنموذج الذي سيحتذي به كثيرون في حال النجاح ،وهي الرؤية التي قد ترضي مـــشاعر الشيفونية لدى كثيرين، طالما أن رؤية الآخر لنا بهذا القدر مـــن الاحترام والتقدير ، إذاً فالولايات المتحدة قررت أن تقدم لنـــا وصفة جاهزة للإصلاح السياسي من خلال برامج هيئة المعونة الأمريكية تماماً مثل وصفات صندوق النقد والبنك الـــدولي في برامج الإصلاح الاقتصادى والتي أوشكت أن تهلكنا جميعاً. إلى هنا والحديث مطمئن وخالي من الكوليـــسترول، لكـــن مـــا أثارالريبة أن المعهد باشر نشاطه دون استكمال الشكل القانوني والسياسي اللازم ،وهي ليست بدعة أو افتراء علـــى حقـــوق السيادة الوطنية، كما أن المعهد لا يروج للإدمان وليس لديه ما يخشاه ،بل بالعكس يدعو إلى الاســـتفاقة الـــسياسية الكاملـــة وبالتالي فهو ارتكب فعل فاضح في الطريق العـــام.. المعـــسكر الآخر انتهج سياسة الحنجوري والهتاف بحرق وإحراق الخازوق والقائمين عليه وأنا شخصياً لن أسير معهم، ليس خوفـــاً مـــن الخازوق -لا سمح الله- ولكن لأن التجربة معمول بها في مصر منذ سنوات و لم يطلق أحد عليها مسميات العمالة ،فالحكومـــة الألمانية تنتهج في مصر سياسة المعونة الفنية وبجوارها يزاول عدد من المعاهد التابعة لأحزاب سياسية نشاطهم ويقدمون برامجهم التطوعية والتدريبية لرجال الإعلام والصحافة ،ولن أذكر أسماء

تلك المؤسسات الألمانية التي استفاد منها عشرات الصحافيين في دورات مهنية راقية حتى لا أُتهم بالتحريض أو بالتستر على طريقة علم و لم يبلغ.

والأدهى أن كثيرين ممن هاجموا الخازوق ــ عفواً ــ المعهد سابقاً يدركون أن أحلام القائمين على المعهد تجرى في سراب، فنظرة واحدة إلى حصاد الانتخابات البرلمانية الأخيرة تجعلنا ندرك الثقل الحقيقي للأحزاب في مصر ،ثم مستقبلها المعتم - بإذن الله- وأن آلاف المعاهد والمؤسسات والمنح التدريبية سوف تعجز عن لعب دور الماشطة في الوجه العكر .. وأخشى في النهاية أن يكون الخازوق من نصيب من أرسلوه!!

ختم القاعدة

في براعة ودقة شديدتين بدأت تصفية القضية الفلسطينية وتفكيكها في لمح البصر ببركة تنظيم القاعدة، فالبيان الأول الذي قدمه لنا أيمن الظواهرى في جزيرته المفضلة وصم المقاومة الفلسطينية بالإرهاب ومنحها بلا فخر ختم القاعدة وعلامة الجودة وشهادة الأيزو، ولا أعلم من أشار عليه في هذا التوقيت تحديداً بمنح بركاته للمقاومة الفلسطينية وتحويلها في غمضة عين من أنبل حركة تحرير وكفاح وطني في مواجهة الاستيطان والاستعمار الإسرائيلي إلى أحد فروع تنظيم القاعدة الموصومة بالإرهاب وفقدانها ميراث تاريخ طويل من تعاطف المجتمع الدولي الذي لا يسمن أو يغني من جوع بدوره، لكنه أضفى قدراً من الشرعية على أدائها المسلح، وبالتالي فالمسألة لا تحتاج إلى ذكاء لمعرفة المستفيد الأول من بيانات الظواهري لدعم حماس مع تصاعد نغمة العداء لتوجهها الإسلامي بفعل مراسم وطقوس انتحارها السياسي على أسوار غزة، ثم يتبع ذلك في تسلسل ودقة متناهية تعيين توني بلير مبعوثاً لجهنم في المنطقة، لمواجهة تنظيم القاعدة - فرع حماس - في غزة .. هذا التزامن هو صك شرعية ذبح وسحل حماس بمعرفة إسرائيل تحت سمع وبصر وحماية المجتمع الدولي، ثم الاستفراد بفريق فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية لاحقاً.. وبالإصرار نفسه والبصمات والختم القاعدي تمنح الحركات التحريرية في العراق وأفغانستان

وفلسطين والصومال بركات تنظيم القاعدة في بيـــان جديـــد، يدعو فيه المجاهدين إلى ضرب المصالح الغربية في أي مكـــان في العالم ثمناً للعدوان في تلك الأقطار وذكرها بالاســـم، لتفقـــد المقاومة العراقية بريقها وتفقد مـــن يفكـــرون أدنى تفكـــير في دعمها أو مساندها ولو بكلمة، وقد تكون دعوته الجهادية حقاً ومقبولة وبنية صافية لدى كثيرين ضل بهم الطريق لـــولا أنهـــا تزامنت مع أسود لحظات القضية الفلسطينية في كل تاريخهـــا.. المشهد الثاني الذي يمنح ختم القاعدة أيضاً لإحدى أخطر قضايا الداخل وهي التنمية، ذلك التزامن العجيب والمثير للدهشة بين صرخة استغاثة السيناريست الشهير وحيد حامد مـــن قلـــب قصور مارينا لبرنامج "الغيط غيطك" يستنجد فيه بمـــن يهمـــه الأمر ويدعو إلى التصدي لأحد رموز المجتمـــع لتعديـــه علـــى مقدسات مارينا واستئثاره بها لنفسه ومنعه المارة من الـــدخول إلى الشارع الذي يقطنه بسياراتهم، وذلك بالتزامن مع مـــشهد آخر أرى أنه أكثر قسوة من المشهد الماريني وهو ثـــورة ميـــاه الشرب في برج البرلس بمحافظة كفر الشيخ، أيهمـــا الأكثـــر إيلاماً؟! بشر لا يملكون قطرة المياه وآخرون لا يمتلكون حـــق المرور في أحد الشوارع المارينية، لكن صوتهم أعلـــى وأكثـــر صخباً وقدرة على الوصول لشاشات الإعـــلام المـــصري..ألا يغذى هذا الاستئثار من الصفوة لقدرات الإعلام المصري مناخ الصراع الاجتماعي والطبقي ،ويحول الجياع إلى أعضاء فعليين في تنظيم القاعدة فرع محطات مياه الشرب ؟! هل إثارة القضية

بالتزامن مع ثورة الجياع مقصود لإبراز التناقض الحاد والشرس في المجتمع المصري وتقديم التمهيد الفكـــرى والأرض الخـــصبة والسخط الاجتماعي كعناصر أساسية لانتشار وتقبل الفكـــر القاعدي الذي يقدم نفسه كمخلص ومنتقم من جميع أشـــكال القهر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ،من خلال خطابـــه الدعائى المعتمد بقناة الجزيرة، أتصور أن طوق النجاة المشروع والوحيد هو التخلص من أبواق المصالح الضيقة التي لا تراعـــي حق المجتمع والوطن وحاصرت نفسها خلـــف أســـوار قـــرى المنتجعات السياحية تحارب من أجلها فقط وتنتفض فداء لهـــا وتقدم للفكر القاعدى فوق طبقٍ من ذهـــب كـــل مـــبررات الكراهية السوداء، وأتصور أيضاً أن أي حـــديث أفلاطـــوني يفصل بين الفقر والقهر والإرهاب هو محاولة لغسيل اليد مـــن أخطاء السياسة وإلصاقها بالصفات الجينية والوراثية.

التخطيط للكارثة

لم يخبرنا تاريخ المجتمعات البشرية عن مجتمع أتقن فن التخطيط للكوارث التي تحيق به! ربما لأن الأمر لم يصبح تاريخاً بعد ولكنه واقع ملموس لازلنا نعيش فيه . والقصص التي يرويها أكثر من شاهد عيان تنطق وتبوح بكل أسرار الكوارث التي تمر بنا، وأحدثها ذلك الحريق الهائل - وليس المحدود - الذي جرت وقائعه بوسط البلد ،وتحديداً بمنطقة أرض شريف المجاورة لشارع عبد العزيز حيث معقل تجار الأجهزة الكهربائية، فالحريق جرى بتخطيط مسبق من أطراف عديدة ،أولها محافظ سابق للقاهرة تفرغ لمطاردة باعة الصحف في الميادين وأعلن مقولته الشهيرة بضرورة عودة الصعايدة إلى أوطانهم في قارة أطلانتس المفقودة، لكنه في باطن الأمر ترك لهم الحبل على الغارب ليحتلوا الأرصفة والطرقات ويغيروا من مسارات الطرق في شارع عبد العزيز وأرض شريف ،تماماً كما حدث في الموسكي من قبل وانتهى الأمر بجريمة قتل وثأر لم تنته إلى الآن، أي ترك لهم الحبل على الغارب ليختنقوا به ومعهم ساكني الحى الذين سقطوا من الدخان ،بينما رجال الإطفاء والشرطة والإسعاف يشقون طريقهم في قلب الجلطة المسماة شارع عبد العزيز لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ،حيث تفتقر المحلات لأبسط شروط الأمن الصناعى من طفايات حريق أو مضخات مياه قوية تتناسب وحجم الاستثمارات والأموال المنفقة.

الطرف الثاني محافظاً للقاهرة خرج علينا بفرمان لرؤساء الأحياء بتحديد مساحة العرض لحلوى المولد النبوي بمتر واحد فقط ،وهو قرار رائع باحترام حق المشاة في الرصيف لولا أنه لا ينطبق إلا لمدة أسبوع واحد فقط وعلى فئة واحدة من التجار، ويغض النظر عن الرصيف المخطوف طوال العام على بعد أمتار بسيطة من مقر المحافظة في شارع عبد العزيز والأحياء السكنية المحيطة به.

الطرف الثالث هم التجار الذين وجدوا في الفوضى غنيمة لا تترك، فالمتجر ذو المترين يتحول في لحظة إلى عشرة أمتار ليصبح الرصيف والشارع معاً قطعة لا تتجزأ من ساحة العرض ،بينما سيارات النقل لا تجد أمامها متسعاً سوى أعناق المشاة كلما أتيحت لهم الفرصة.

ولن تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك الهستيرى كلما ساقتك أقدامك إلى جوار المحافظة حيث مقر شرطة المرافق لتشاهد عربات الفول والكشري المصادرة وأحيانا الخضار والأطعمة ،بينما لا تشاهد جهاز تلفزيون واحد أو كرتونة فارغة لمروحة يتيمة ضلت طريقها إلى الحملة.. المشهد الثاني: في حي المعادى الراقي الهادئ حيث الخضرة والأشجار القاتلة تنتظر صاحب النصيب لترقد فوق رأسه في ثوان وتحوله إلى جثة هامدة ولا مانع أن تنتقي سيارة أو تاكسي كما حدث مؤخراً لتسقط فوق عنق راكبيه، وقد يتصور بعض السذج أن الأمر قضاء وقدر بينما الحقيقة غير ذلك تماماً، ولتفعلها عزيزى

المواطن وتذهب إلى حي المعادي للإبلاغ عن شجرة أوشكت على السقوط، وفي ثوانٍ سوف تتحول إلى رجل فكاهي ينافس علي الكسار وإسماعيل ياسين، واعذرني إن لم أذكر لك اسم المهندس المسئول عن اكتشاف موهبتك حتى لا أُتهم بالسب والقذف، ذلك السيف الذي يمنع من فضح المفسدين في الأرض.

المشهد الثالث :في مدينة نصر ولا تعليق لأن القضية منظورة أمام النيابة والقضاء،كما أنه لا تعليق بعد الحكم لأنه لا تعليق على أحكام القضاء، إذاً الصورة لا تختلف من عابدين إلى المعادي إلى مدينة نصر ،إدارات الأحياء تحركها مصالح واعتبارات ضيقة تتحول في لحظة إلى كارثة دموية بتخطيط مسبق.

التعليم الطبقي

تهورت الأسبوع الماضي وقررت مرافقة أحد الأصدقاء لإلحاق طفله الوحيد بالعالم السري لرياض الأطفال ،وهو التوصيف الحقيقي لما يجري من مهازل وأهوال لا يتصورها عقل ولا تخطر على بال بشر . ورغم أن صديقي هذا قد أسعده الحظ بتأشيرة "موافق" صريحة من وزير التربية والتعليم بمساعدة أحد أعضاء مجلس الشعب، وقبل ذلك قرار وزير التعليم الصريح بقبول الأطفال من سن ثلاث سنوات ونصف، إلا أن ذلك لم يَحُل بينه وبين دور البطولة في هذا العمل المسرحي الهابط الذي تمر به ملايين الأسر المصرية اليوم، ويكشف عن تسلل الطبقية مجدداً إلى ملف التعليم ،بما ينذر أو يكرس تقاليد الصراع الطبقي وما يتبعه بالضرورة من حقد طبقي دون مبالغة، خاصة إذا قررت أن يلتحق طفلك بمدرسة لغات متوسطة الحال لا تتجاوز مصروفاتها الألفي جنيه، وحتى لو امتلكتها فهو رقم صعب تحقيقه أو الوصول إليه في سوق العرض التعليمي الذي انطلق بلا رجعة لعالم المصروفات بالدولار .. وأول عقبة سوف تصطدم بها هو الإصرار على لقاء الأبوين - رغم أن الأب يعمل بالخارج أوقد يكون هارباً من الأم منذ سنوات و لم يطلقها بعد - ثم اختبارهما تحريرياً وشفوياً في اللغة الإنجليزية والتأكد من حصولهم على مؤهل عالٍ، وإذا كان تعليم أي منهما متوسط فلا تقبل أوراق الطفل

دون أي اعتبار لمعيار الاختيار الأول وهو السن.. لكن السؤال الصعب الذي أجدني عاجزاً عن فهم مغزاه، هو الاستقصاء عن ملكية الطفل لجهاز كومبيوتر بالمترل ورقم عضويته بالنـــادي!! وأقسم بالله أن هذا حدث بالفعل كتابة في استمارة التعارف أو شفوياً في لقاء التعارف!! والطفل لا حول لـــه ولا قـــوة ولا يعرف بماذا يجيب أمام الجريمة النكراء التي ارتكبها أبويه عندما لم يفكرا في إلحاقه بالنادي أو شراء جهاز كومبيوتر له بمجـــرد أن أنهى مرحلة البامبرز. وأجدني مضطراً إلى تحذير أولياء الأمور من مغبة التهور والتقدم بأوراق أطفالهم إلى مدارس اللغات إذا كانوا فيما مضى قد أخفقوا في الحصول على مؤهلات مرموقة أو دفعتهم ظروف المعيشة إلى السفر والعمل بالخارج، لأنهـــم مطالبون في تلك الحالة بتفويض الأم رسمياً من سفاراتنا بالخارج بالتعامل مع المدارس ، وإذا كان الأب هارباً (أوطفشان) فـــلا مانع من استكتاب الأم إقراراً بمـــسئوليتها عـــن المـــصروفات الدراسية!! وأن تتعهد بإلحاق طفلها بعضوية النـــادي وتـــوفير جهاز لاب توب بنظام الويندوز فيستا أو إكـــس بي برخـــصة أصلية وليست منسوخة ولا مانع من جهاز موبايل من الجيـــل الثالث، وأنا شخصياً ليس لديّ اعتراض على انسحاب الدولة من ممارسة نفوذها ودورها في قطاع التعليم الأساسي أو تسلل التعليم الطبقي وعبثه بالقيم المجتمعية، طالما أن البديل المُر هـــو إلقاء أطفالنا بالطرقات دونْ تحصيل علمي أو دراسي، وبـــدون التعليم الخاص سوف يتحول أطفال مصر إلى تسول قطع غيار

أجهزة الكمبيوتر أو عضوية الأندية الرياضية ولن يتمكنوا من الالتحاق بالخلية السرية لرياض الأطفال. لكني فقط أترحم وأقرأ الفاتحة لكل من أتاح لأجيال متعاقبة من أدباء ومفكري وعلماء مصر فرصة التعلم والنجاة من التشرد دون عضوية نادي رياضي أو جهاز كومبيوتر أو شاليه بالساحل الشمالي للتصييف إذا لم يكن يقضي المصيف في باريس، ومعذرة لرئيس الوزراء إذا كان قدره أن يدون اسمه في السجل الأسود لتاريخ مصر مقترناً بتكريس التعليم الطبقي أو بتحول المدارس إلى منافذ دعاية وترويج وبيع لمنتجات شركات الكمبيوتر وأجهزة المحمول من فصيلة الجيل الثالث وللأندية الرياضية الخاصة ،طالما أن ذلك يجري تحت سمع وبصر وإشراف إدارات مصر التعليمية التي تنصت لدبيب النمل، وطالما أن أحداً لم يسأل عن شكل الحياة في مصر بعد ٣٠ عاماً من الآن عندما تمتلئ الشوارع والطرقات بالمحرومين من التعليم الطبقي.

المعرض الدولي للشاورمة

أزعم أنني أحد فئران الورق في عالم الصحافة الذين يُجيدون تحويل دليل التليفون إلى أشكال العمل الصحافي كافة ،من تحقيق إلى مقال إلى تقرير أو خبر صفحة أولى ،لكني أعترف بفشلي وعجزي الكلي والجزئي عن فهم أو تفسير أو تحويل هذا الكم الهائل من أسياخ الشاورمة المتداولة في معرض القاهرة الدولي للكتاب ــ سابقاً ــ إلى مادة صحافية.. وتصورت أنني فقدت بريقي المهني وتخلفت كثيراً عن مواكبة التطور في هواية الكتابة الصحافية ،بحيث أصبح ما أشاهده من تطور في عالم النشر يفوق مكوناتى الحضارية، وزاد من شعورى بالتضاؤل ذلك الكم الهائل من القيادات الأمنية والإدارية التي أمعنت في تفتيشي ذاتياً عند بوابات الدخول ومنعتني من مجرد الاقتراب بسيارتي، بينما سمحت لهذا الكم الهائل من باعة الأرصفة بالدخول والتجول تحت سمع وبصر كتائب وجحافل العناصر الأمنية.. من يصدق أن الحدث الثقافي الأهم في مصر على مدى ٣٩ عاماً والذي يشرف بافتتاح رئيس الجمهورية لفعالياته يتحول إلى معرض لأصناف من الجوارب الرديئة وألعاب الأطفال وأطباق الكشري ولفائف الشاورمة السوري ومعدات إزالة الشعر للنساء.. من هو ذلك الأقرع المصاب بالصلع الفكري الذي يُصر على الاحتفاظ بالشكل فقط دون المضمون!! ويصر على أن تجلس الثقافة في مصر على أسنة

رماح الشاورمة وتُحاصر داخل علب الكشري أو أن تقلى في الزيت المغلي مثل حبات الكبيبة السوري.. هل محاصرة الفكر والثقافة بعبوات المياه الغازية وأصناف المأكولات يُحصن مصر من فضيلة الفهم الصحيح ،باعتبار أن الفهم قد يؤدي إلى أمراض ضغط الدم؟! كما يساعد على التصدي للفكر المنحرف الذي ينتعش ويتكاثر في لحظات الأزمات المجتمعية!! بل من يصدق أن موقع المعرض على شبكة الانترنت يُغلق في نفس لحظات فعالياته وتكتب لافتة "هذا الموقع موقوف للتأخير في سداد المستحقات المالية برجاء سداد كامل المستحقات ليعود إلي العمل"، ومن هو ذلك العبقري الذي وضع المعرض على خريطة السياحة الداخلية وبرامج زيارات اليوم الواحد كبرنامج ترفيهي تمارس فيه نفس مظاهر الاحتفال المعتمدة في حديقة الحيوان بالجيزة، ومن هو الأكثر عبقرية الذي منع الكتاب والصحافيين من الدخول بسياراتهم للمعرض بينما عربات الكشري تضرب في أرجائه؟! بل أين هي قاعة الندوات الفكرية ؟ومن هم المتحدثون الذين يملكون أدوات تنقية العقول من الفكر الغوغائي ومنظومات التضليل وحيل تشويه وتزييف المعلومة الصحيحة.. البعض يتصور أن الدور الترفيهي للمعرض أكثر أهمية من دوره الثقافي والفكري والسياسي، أحياناً على اعتبار أن حق الترفيه هو حق أصيل للشعوب في ميثاق الأمم المتحدة وأن الشعوب المترفة يسهل توجهيها وحكمها، لكن أيضاً يسهل الانحراف بها وتضليلها إلى سراديب الجماعات

والتيارات المحظورة وهو ناقوس الخطر الذي أعلن دقاته في مؤتمر وزراء الداخلية العرب بتونس، الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي ووقف ينبه بشكل خاص إلى ما غزا العالم العربي من متغيرات فكرية وتوجهات سلبية تهدف إلى عزل الأمة عن ثوابتها وقيمها الأصلية والسعي إلى استبدالها بثقافة العنف والتحلل والصراع تحت شعارات زائفة عملت على نشرها والترويج لها جهات يديرها أشخاص مأجورون يتسترون وراء واجهات وأقنعة مختلفة؛ وأوضح أن من شواهد خطورة اختراق حواجز الأمن الفكري العربي هو تسرب الفكر المنحرف إلى عقول بعض المجتمعات العربية ليقود ذلك إلى ارتكاب جريمة العصر ،وهي الإرهاب الذي تعددت فيه مظاهر الفعل الإجرامى ووحشيته من قتل للأنفس البريئة وتدمير للممتلكات والأموال وإفساد للعقول والفطر السليمة وانتهاك للأعراض واستباحة لحرمة الدين وقدسيته.. نعم لقد صدقنا الرجل .. والفكر يا سادة هو الحصن الأمني الأول للمجتمعات وليس أسنة رماح الشاورمة!!!

انتخابات أم .. إرث الحضاري؟!

كان اللقاء في صيف عام ١٩٩٤ بأحد معاهد الدراسات السياسية والإستراتيجية الألمانية ودار الحديث حول تساؤل واحد فقط لكل المجموعة الأفريقية التي كنت واحداً منها، وهو "هل تعتزم بلادكم الترشيح لعضوية مجلس الأمن؟ " كان الحاضرون أربعاً فقط من نيجيريا وبتسوانا وجنوب أفريقيا ومصر ،وشكّل التساؤل صدمة لمعلوماتي ودراساتي الأكاديمية، فقد كنت قد أنهيت منذ عام دراساتي في السياسة والمنظمات الدولية على أيدي أساطين العلوم السياسية بجامعة القاهرة، ولم يتطرق أي منهم للحديث عن توسعة العضوية في مجلس الأمن ، ولم أجد وقتها سوى الإجابة بأن هذا الحديث لم نسمعه في مصر مطلقاً ،ولكننى أثق في أن القيادة السياسية المصرية لن تفوت مثل هذه الفرصة، ولكن إجابتي استفزت مَلَكَات محدثي ،فدفع إليّ بتساؤل أكثر إيلاماً عن مؤهلات مصر الديمقراطية لكي تنضم إلى هذا المحفل الدولي، في حين أنها لا تتمتع بمواصفات الديمقراطية الغربية وعلى رأسها حق الانتخاب المباشر لرئيس الجمهورية ؟ وأجبته بأن لكل مجتمع خصوصياته السياسية والاجتماعية والثقافية ،وأن مصر لن تعدم وسيلة حين تجّد الأمور للحاق بهذا السباق ،وأنه لا يجب أن يطلق العنان للحديث عن الديمقراطية دون أن يمعن النظر في آلياتها التي دفعت بهتلر وموسيلينى إلى سدة الحكم تحت نفس المسميات.

وأكثر ما آلمني وقتها من هذا الحديث ليس فقط جهلي المطبق بالتطورات الدرامية في السياسة الدولية، بل خوفي الشديد من أن تهرب الفرصة من يد مصر إلى الأبد لصالح قوى إقليمية أخرى، ورغم مرور عشرة سنوات على تلك الواقعة فإن حزني كان يتجدد كلما تطرق الحديث إلى حلم انضمام مصر لهذا المارد الدولي وإدراكي أن العقبة الأساسية كانت في استكمال الإطار الديمقراطى للحكم في مصر ،وأن هذا لن يتأتى بغير تعديل دستوري لا يجرؤ عليه سوى مقاتل من بر مصر، لذلك فأنا مدين بشكل شخصي للرئيس مبارك بالشكر لتحقيقه واحداً من أصعب أحلامى التي تمنيتها على مدى عشرة سنوات في اللحظة التي قدم فيها الواجب الوطني كعهدنا به قبل أية طموحات شخصية في الحكم والسلطة ،واعتبر أن تأهيل مصر ديمقراطياً للحاق بركب مجلس الأمن هدف أسمى من كل تلك الإغراءات ،وبدلاً من رفض عملية نشر الديمقراطية على أنها فكرة غربية يجب على العرب رفضها، ألزم نفسه بعملية إصلاح -إذا ما سُمح لها بالمضي قدماً- يمكن أن تُحوِّل مصر إلى دولة منافسة لعضوية المنظمة الدولية. وأياً كانت النتائج التي ستسفر عنها انتخابات ٧ سبتمبر فإنها ستدفع بمصر إلى مكانة دولية رفيعة تؤهلها للتعامل مع المتغيرات الدولية بكفاءة أكبر ،ولن ينسب هذا الفضل سوى لمبارك سواء قبل أو رفض البعض، ولن تنال من قيمته التاريخية والسياسية سلبيات الدعايات الانتخابية التي مارسها البعض وتعفف عن ممارستها

مبارك ضارباً مثلاً ونموذجاً لما يجب أن يكون عليـــه المرشـــح ،ومن الخطأ رفض حقيقة أنه شرع الديمقراطية باعتبارها تطلعاً وطنياً، وعندما يُقرأ التاريخ مجدداً سيذكر لمبارك شـــجاعته في تغيير وجه الحياة السياسية في مصر، بل وربما تمتد آثار الزلـــزال المصري إلى نطاق أوسع ؛ ولا يجب أن تنسينا سيول البذاءات الانتخابية التي مارستها أقلاماً عديدة، نظرتنـــا الموضـــوعية إلى الوزن الحقيقي لكل مرشح وثقله وتاريخه النـــضالي وقدرتـــه الفعلية على الأداء السياسى، باعتبار أن محـــصلة كـــل ذلـــك ستؤدى بنا إلى الاختيار السليم. نعم المجتمعات مثـــل الأفـــراد تخطئ وتصوب أخطاءها، وتتعلم من تجاربها ليرتفع رصـــيدها ورصيد الأجيال القادمة من الإرث الحضاري ،وبعد غد سوف يقفز الرصيد الحضاري المصري إلى ٧ آلاف عام قادمة.

نسمات ديمقراطية

استيقظ ذات صباح على رؤية جاءت تسعى إليه حثيثاً تحمل معها نسائم الحرية لأمة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ.. وشاء قدره أن يحمل رؤياه وحده بداخله .. يفصح عنها أحياناً لمن يأتمنه .. ويضمها إلى صدره أحياناً كثيرة كيلا يقتلها المتربصون والمتخونون .. أدرك أن قدره كما كان من قبل قدر أبيه أن يفتح نوافذ الحرية لتذهب نسمات الديمقراطية بريح عطنة كدنا أن نعتاد عليها، حتى أنستنا معاني الديمقراطية وأصبحنا ننظر ونفسر أي تغيير حقيقي على أنه انهيار للنظام واغتيال لأحلام الرجل الذي قاد حزبه إلى انتصار متزن يبتعد عن شبهة الـ ٩٩,٩% ، ثم صورنا مكاسب التيار الديني بأنها كارثة ألمت بالحزب الحاكم وبمصر ،وكان أول الهامسون بذلك هم أقطاب التيار الديني نفسه الذين لم يصدقوا أنفسهم رغم أن قواعد اللعبة الديمقراطية الصحيحة لا تخرج عما حدث من مكسب وخسارة، ونسينا أننا شركاء في الوطن .. أقباطاً ومسلمين.

فأين إذاً أخطأ جمال مبارك؟! وأين نحن أخطأنا؟!!. لا أتصور أن الرجل أخطأ عندما طهر حزبه من ديكتاتورية الحزب الواحد ..أو عندما اصطدمت أفكاره بالحرس القديم أو -إن صح التعبير- شيوخ العمل السياسي الحزبي .. أو عندما

قبِل أنصاف الحلول أحياناً للحفاظ على الوطن.. فهكذا يكون السياسي يعرف معنى الممكن ولا يصطدم بالمستحيل لكي يهلك كل من معه ،وكم من زعماء وقادة أوردوا أمتهم ينابيع الهلاك تحت شعار لا تراجع ولا استسلام.

هل أخطأ الرجل عندما استجاب لإرادة الأمة في انتخابات حرة قد يخسر فيها حزبه أو ينجح، لكي يعرف الجميع حجمه وقدره ومصيره وتدرك الأحزاب جميعها أنها فقط صحف .. بل حناجر بلا أحزاب أشبعتنا صراخاً وعويلاً طيلة عشرات السنين..تبث فينا صوراً سوداء لا يراها سواها.. تبشرنا بالجحيم ليلاً و نهاراً وتقسم بأن الجنة بيمينها غير أن الحزب الحاكم يمنعها عن سدة الحكم ويمنعنا عن نعيم جنتها.. حتى كانت فضيحة العمر لكل الأحزاب الحنجورية الورقية ،ويعرف الجميع أن وجودهم تحت قبة البرلمان ارتبط دائماً بتحالفهم مع التيار الديني ،وليس تعبيراً عن ثقلهم ووزنهم الحقيقى في الشارع السياسي كما نراه اليوم.

فهل يكون جزاء الرجل بعد كل ذلك أن نطالبه باعتزال العمل السياسي ونحمله فشل أحزابنا في الوصول إلى نسبة محترمة من التمثيل النيابي متظاهرين بأننا بلا خطيئة.. بل نحن شعباً من الملائكة الأطهار؟!الحقيقة أن أخطاءنا قاتلة.. فنحن لم نعد نؤمن بالأفكار الصادقة ،وفقدنا القدرة على تقييم الغث من الثمين ، وأطلقنا لأنفسنا سوء الظن يلتهم عقولنا وضمائرنا بلا حسيب أو رقيب.. والأكثر مرارة أننا فرطنا في رجل آمن

بنا في حين أننا لم نؤمن به بالقدر الصحيح و لم نلتف حوله نسانده ونؤازره في رؤياه التصحيحية لمسار العمل السياسي الوطني.

وبدلاً من ذلك استدعينا شياطين الجحيم تدعونا إلى البقاء في منازلنا وعدم المشاركة، لأن الانتخابات مزورة حتى قبل أن تبدأ، ولأن الصفقة أُبرمت ولن تُعلن ،ولأن القتلة يتربصون بكل من يقترب إلى صناديق الاقتراع .. لم نقاتل دفاعاً عنه أو عن أفكاره التي حلمنا بها جميعاً وتركنا الأمن وحده ليدافع عن القضاة ويحرس اللجان والصناديق، ومارسنا فقط أدوار الرقابة والتشهير والتشفي عن بُعد في لحظات كان الوطن في أشد الاحتياج إلينا.. لم نشكل لجاناً شعبية للدفاع عن الناخبين، ومراكز الاقتراع تساند الأمن في دوره .. لم نتصد لإهانات القضاة سوى على صفحات الجرائد ،والتزمنا مقاعد المتفرجين ،وبدوره فإن القضاء لم يطلب الحماية من الشعب بل طلبها من الجيش خروجاً على قواعد اللعبة السياسية وخلطاً للأوراق .

نعم بالتزامنا مقاعد المتفرجين وتزعمنا الأغلبية الصامتة فإننا تركنا للآخرين حرية القبول أو الرفض نيابة عنا.. ومارسنا فضيلة الخرس المنزلي وتصورنا في النهاية أن من حقنا أن نعلق على نتائج الانتخابات..عفواً .. اسمحوا لي أن أتنحى عن زعامة حزب الصامتين.

الفهرس

الفصل الثاني..أدوات التغلغل فسدة ومفسدون !!

الفصل الثالث..إحنا واللي حوالينا !!

الفصل الرابع..صناعة الفوضى!!

الفصل الخامس..منظومة التفكيك .!!!

في هذا الكتاب

في براعة ودقة شديدتين بدأت تصفية القضية الفلسطينية وتفكيكها في لمح البصر ببركة تنظيم القاعدة، فالبيان الأول الذي قدمه لنا أيمن الظواهرى في جزيرته المفضلة وصم المقاومة الفلسطينية بالإرهاب ومنحها بلا فخر ختم القاعدة وعلامة الجودة وشهادة الأيزو، ولا أعلم من أشار عليه في هذا التوقيت تحديداً بمنح بركاته للمقاومة الفلسطينية وتحويلها في غمضة عين من أنبل حركة تحرير وكفاح وطني في مواجهة الاستيطان والاستعمار الإسرائيلي إلى أحد فروع تنظيم القاعدة الموصومة بالإرهاب وفقدانها ميراث تاريخ طويل من تعاطف المجتمع الدولي الذي لم يسمن أو يغني من جوع بدوره، لكنه أضفي قدراً من الشرعية على أدائها المسلح، وبالتالى فالمسألة لا تحتاج إلى ذكاء لمعرفة المستفيد الأول من بيانات الظواهري لدعم حماس مع تصاعد نغمة العداء لتوجهها الإسلامي بفعل مراسم وطقوس انتحارها السياسي على أسوار غزة.



تصميم الغلاف: حاتم عرفة

